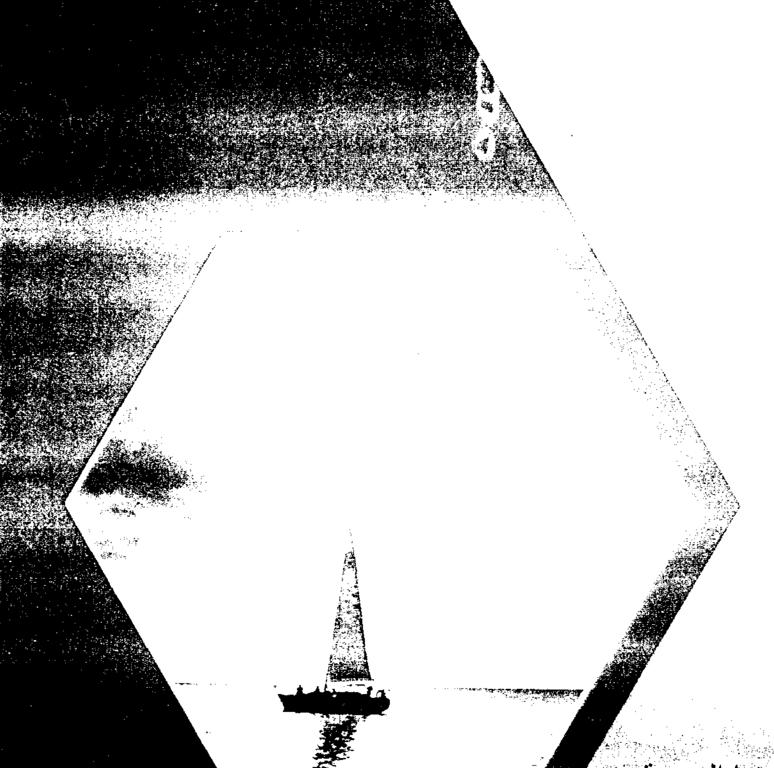
الرّحلةُ إلى الذّاتِ

فُصُولٌ في التّفكيرِ الموضوعيِّ

أ. د. عبد الكريم بكّار



دار القلم
دمشق

الرِّحلةُ إلى الذَّاتِ
(١)

فُصُولٌ
في
التَّفكيرِ الموضوعيِّ
مُنطَلَقاتٌ ومَوَاقِفُ

بقلم
أ. د. عبد الكريم بكّار

دار القلم
دمشق

الطَّبْعَةُ الخَامِسَةُ
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقـدّمة

الحمد لله رب العالمين على ما تواتر من نعمه، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ونبيه محمد نبي الرحمة وإمام الهدى وعلى آله وأصحابه، ومن دعا بدعوتهم إلى يوم الدين. وبعد:

فقد امتنَّ الله تعالى ـ على هذه الأمة بأن بعث فيها رسولاً من أنفسها، ليدلها على مقاطع الرشد ومراشد الحق، ولتنعم بخيري الدنيا والآخرة؛ وقد أدى ـ فداه أبي وأمي ـ الأمانة وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، فتركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاَّ هالك.

وقام المسلمون بواجب الدعوة، فانساحوا في الأرض معلمين وفاتحين، فأنقذ الله بهم من النار أمماً وشعوباً، وفتحوا في نحو نصف قرن ما يزيد على أربعين ألفاً من المدن والقرى والحصون، وكان ذلك تعبيراً حياً عن الطاقة الهائلة التي ولَّدها الإسلام في نفوس أتباعه.

وهذا الانتشار الواسع أدى إلى امتزاج شعوب متباينة وثقافات مختلفة، وصار الأمر يتطلب ـ بصورة متزايدة ـ اجتهاداً متنامياً من أجل دمج تلك الثقافات في مزاج عام مؤطر بالشريعة الغراء، ومن أجل وعي مستمر بالذات، والتمييز بين ما هو موجود في حياة المسلمين نتيجة الامتثال للآمر الشرعي، وبين ما اصطحبته معها تلك الشعوب من جاهلياتها؛ حتى لا تختلط الرؤية، ولا تضطرب المفاهيم والمثل العليا التي تمثل مركز الجذب لفعاليات الأمة وأنشطتها المختلفة.

وظل الانسجام بين مطالب الهُوية، ومطالب الحياة المختلفة سيد الموقف فترة طويلة من الزمن تمثل فترة الازدهار والنمو؛ ثم أخذ يختلُّ شيئاً فشيئاً حتى آل

الأمر بالأمة الفاتحة إلى الانحسار والانكسار، وأصبح الخوف على ذاتها من الذوبان في الأمم الأخرى شغلها الشاغل وحلمها الوردي.

ولسنا هنا بصدد تحليل الأسباب والعلل التي أدت إلى ذلك، وإنما نريد أن نرسم ملامح أحد المداخل الهامة لذلك.

قد ألقى بنا التاريخ بعيداً عن جنانه، وأصبحنا خارج دائرته، نبحث عن مكان في مؤخرة القافلة، فلا نجد!!. وإذا ما أردنا العودة إليه فإن أول ما ينبغي علينا أن نفعله هو دراسة الأسباب التي أدت بنا إلى ذلك، ولكن ذلك ليس بالأمر اليسير المذلَّل؛ حيث إن تراكمات سلبية كثيرة تجمعت في حياتنا تحول دون رؤية ناضجة، ودون امتلاك الأدوات الكافية لمعرفة ذلك وتحليله تحليلاً دقيقاً.

ولعل من أهم الأدوات التي ينبغي أن نقبض عليها القدرة على رؤية موضوعية بعيدة عن الهوى والذاتية والقراءات الناقصة...

هذه الرؤية تمتد عبر القرون؛ لتزودنا بالحسِّ المرهف القادر على استشفاف العوامل التي أدت إلى هذه الحالة المنكورة التي نحن عليها اليوم، وإدراك المعوقات التي تشل فاعلية الأمة وقدرتها على الخروج من نفق الظلمات، كما تمتد لتستشرف آفاق المستقبل الرحب الذي نتشوف إليه؛ ولن يحصل من ذلك شيء إلاَّ إذا امتلكنا فضيلة الصبر والجلد على إعمال الفكر، وتقليب النظر، والكف عن (التكديس الذري) للمعلومات دون الوقوف على النواميس العليا التي تنتظمها في مسارات محددة، وتوزعها على مفاهيم واضحة تخرجنا من التيه، وتعصمنا من العيش في الأوهام وردود الأفعال. ولن يكون هذا عسيراً إذا ما أدركنا أهمية ذلك، وتذرعنا إليه بالصبر والجلد؛ والله حسبنا ونعم الوكيل.

وكتبه
د. عبد الكريم بن محمد الحسن بكار
أستاذ العلوم اللغوية في جامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية
(فرع الجنوب)
أبها ــ ص. ب ١١٨٣

الرّحلة إلى الذات

هـذا هـو الكتـاب الأول في هـذه السلسلة التي تهـدف إلى الانكفـاء على الأسباب والعوامل الداخلية المؤثرة في تقهقر الأمة ونهضتها، من أجل درسهـا وبيان نسب تأثيرها وآلية عملها. والشعار الذي تتكثف فيه مضامين هذه السلسلة هـو قولـه ـ جل وعلا ـ :

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[1].

إذ إنه استقر في يقيني من فترة بعيدة أن مـا أصاب أمتنـا من انكسار حضـارى وتخلف وتبعية وانخفاض في فاعلية المسلم وإنتاجيته لم يكن بسبب عوامل خارجية بعيدة عن إرادتنا وذاتيتنا؛ وذلك لأن لكل ظاهرة من الظواهر عوامل داخلية أوجـدت مسـوغات وجـودها، وقـامت بحفظ ذلك الـوجود، وحـددت اتجاهـه، ورسمت أطر تفاعلاته؛ وإن العامل الخارجي يظلُّ غير ذي أثر ما لم يتمكن من خلال الصراع مـع العوامل الداخلية من إزاحـة أحد تلك العـوامل عن مـوقعه، والحلول محله؛ وحين تبتعـد العوامـل الداخليـة عن أداء وظائفهـا الآنفة الـذكر، وتحـل محلهـا العـوامـل الخارجية فإن الظاهرة تتلاشى من الوجود حينئذ، أو تفقد اتجاهها؛ ولا يختلف فقـد الاتجاه ـ في كثير من الأحيان ـ عن فقد الوجود!.

ولكن هـذا لا يجعلنا نغض الـطرف عن أننـا نعيش في عـالم (تنـازع البقـاء) الذي يحتم بمحدودية موارده واختلاف ثقافاته تـرسيخ فلسفـة: «إما أنـا وإما أنت»؛ فكل مصنع ينتج في أرضنا يؤثر فـي مصنـع يعمل في أرضهم، وكل سلعة نكف عن

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٥.

شرائها منهم ستوجد نوعاً من الانحباس في إنتاجهم، وهكذا... فالهدف من الوعي بوجود العوامل الخارجية ذو فائدة حين ندرك طبيعة الصراع بينها وبين العوامل الداخلية. أضف إلى هذا أن العداء بين أمة التوحيد وأهل الكتاب سيظل مستمراً إلى أن يتمكنوا من جعلنا جزءاً من رصيدهم، أو جزءاً من ملتهم، أو جزءاً من خدمهم..

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(١).

إننا لا نستطيع أن نقنع الأعداء بالكفِّ عن أذانا، كما أن البشر جميعاً لا يستطيعون منع الثلوج من السقوط؛ ولكننا نستطيع أن نحصِّن أنفسنا من كيد الأعداء وثلوج السماء!.

ومما دفعني إلى الشروع في الكتابة في هذه السلسلة هو ما استقر في يقين كثير من الباحثين أن أرقى أنواع الوعي هو الوعي بالذات، وأن أعظم أنواع الجهل هو الجهل بها. والوعي بالذات ليس انغلاقاً عليها، ولا تعبداً في محرابها؛ ولكنه الإدراك الحسن لحدودها وشروط وجودها والظروف الأكثر ملاءمة للحفاظ عليها وترقية درجة عطائها؛ وهذا لا يتم في كثير من الأحيان إلَّا عن طريق الوعي بالآخرين؛ فإن الرقم (٧) غير ذي قيمة لو لم يكن جزءاً من نظام عددي؛ فهو يستمد قيمته من الرقم (٦) والرقم (٨). وحتى نتمكن من وعي المرحلة التي نخيم فيها فلا بد من معرفة المراحل التي أناخ فيها الآخرون؛ وهذا دافع آخر يدفعنا إلى عدم الانغلاق مع إدراكنا أهمية البحث عن الذات.

هذا من جانب؛ ومن جانب آخر فإن عدم الوعي بالذات يوقع الأمة في محذورين خطيرين:

* **الأول**: هو إضافة عناصر ترفضها ثقافة الأمة لاصطدامها مع بعض منظوماتها العقدية أو الشعورية أو الرمزية أو التاريخية مما يؤدي إلى صراع بين ثقافة الأمة وهذا الوافد الجديد الذي لا يحمل (تأشيرة دخول) إليها؛ ونتيجة هذا

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

الصراع هي جراحات في ثقافة الأمة وانقسامات وردود أفعال مضطربة النظام؛ ومحصلة ذلك هي ضرب الموازنات العميقة للأمة، وانحباس في تقدمها.

* **الثاني**: هو الجمود والعزلة عن تيارات الثقافة العالمية؛ وهذا المحذور لا يقل خطراً عن سابقه إذ إن العالم اليوم يوصف بأنه (قرية إعلامية)، وهذا يجعل العزلة غير ممكنة على الصعيد العملي، ولكنه يجعل الثقافة المنعزلة هدفاً للاضمحلال والضمور. وأما الذين يظنون أن العزلة تساعد على الحفاظ على ثقافة الأمة وأصالتها فإن نِسَبهم ستظل في حالة انخفاض دائم إلى أن يصبحوا غير ذي قيمة في عالمي الكيف والكم. وإن طبيعة الأهداف التي يسعى إليها المسلمون تجعل عزلتهم أيضاً غير ممكنة؛ إذ إننا حملة الرسالة الخاتمة التي كلفنا بإيصالها إلى البشر جميعاً؛ كما إننا مكلفون بإيصال صوت الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إلى هذا العالم المضطرب البائس...

ومن زاوية ثانية فإن المقدمات النظرية لثقافتنا تركت هوامش واسعة في ذاتية الأمة، تسمح لها بالتفاعل مع الآخرين أخذاً وعطاءً؛ وانطلاقاً من هذا فإن السواد الأعظم من المسلمين سيمضي إلى أبعد مدى في ذلك التفاعل؛ وبهذا المعيار يكون الانعزال غير ممكن أيضاً. فلم يبق بعد هذا وذاك أمامنا من سبيل سوى أن نرسم حدود ذاتنا موضحين المركز والإطار في كل ما نأتي، ونذر، متذرعين إلى ذلك بالاجتهاد الدائم على شتى الصعد، وبمختلف الوسائل، وحينئذ نستطيع أن نسبح مع التيار وضده، ونزداد مع ذلك قوة ومناعة دون أن نخشى من الغرق!

وإنما جعلت التفكير الموضوعي مفتاحاً لهذه السلسلة ـ التي أسأل الله أن يعينني على إكمالها ـ ؛ لأنني أعده الخطوة الأولى على طريق الوعي بالذات وعلى طريق إدراك جذور كثير من انحرافنا وأسبابه ومظاهره؛ وعلى الله قصد السبيل.

● ● ●

الفَصل الأوَّل

في

التَّفْكِيرُ بِصُورَةٍ عَامَّة

مَا ٱلتَّفْكِيرُ؟

تعد كلمة (تفكير) من الكلمات الغامضة التي نستخدمها، ولكن نعجز عن شرحها؛ ويلاحظ أن كثيراً من العلماء يؤكد على خاصتين هامتين في التفكير، وهما: تكامل الخبرات السابقة وتنظيمها من ناحية، واكتشاف الاستجابات الصحيحة من ناحية أخرى(١).

ويقول (همفري): إن التفكير هو: «ما يحدث في خبرة الكائن العضوي سواء أكان إنساناً أم حيواناً حين يواجه مشكلة، أو يتعرف عليها، أو يسعى إلى حلها»(٢). ويرى (بارتليت) أن التفكير هو «عملية توسيع الدليل على النحو الذي يلائمه بحيث يتم ملء الفجوات فيه؛ ويتم هذا بالانتقال من خطوات متتابعة مترابطة يمكن التعبير عنها آنياً، أو فيما بعد»(٣).

ويركز بعض علماء النفس على الجانب النفسي حين يعرفون التفكير بأنه: «استخدام الوظائف النفسية لحل مشكلة من المشكلات وصياغة حلول لها في أحكام، ثم يقوم العقل بمحاكمتها من أجل الفوز بالحل النهائي».

ويعرف بعض المناطقة التفكير بأنه «ربط العقل بين حدين أحدهما الموضوع والآخر المحمول». أو هو «مجموعة الأساليب التي يتبعها العقل لمعرفة السبب واكتشافه»(٤).

---

(١) التفكير في الدراسات النفسية: ص ١٩٦.

(٢) السابق: ص ٢٠٠.

(٣) السابق...

(٤) المنطق: ص ٢٦٥.

وحين نستعرض تعريفات التفكير فإنما نريد التفكير العلمي إذ هو وحده التفكير المجدي الذي يمكننا من الاستنتاج من المقدمات أو الوقائع؛ ومن ثم فإن بعض التربويين عرفه بأنه: «كل نشاط عقلي هادف مرن يتصرف بشكل منظم في محاولة لحل المشكلات، وتفسير الظواهر المختلفة والتنبؤ بها والحكم عليها باستخدام منهج معين يتناولها بالملاحظة الدقيقة والتحليل؛ وقد يخضعها للتجريب في محاولة للوصول إلى قوانين ونظريات»[1].

وهذه التعريفات كلها تدور حول قضية واحدة هي: تردد العقل في جملة من المعطيات توسلاً إلى ما يرتبط بها من المجهول بطريقة منهجية.

● ● ●

---

(١) الجامعة والتدريس الجامعي: ص ٢٥٦.

لماذا كان التفكير ضرورة حيوية؟

إن الله ــ تبارك وتعالى ــ خلق الحياة الدنيا داراً للابتلاء:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[1].

ولذلك وفر فيها كل شروط الابتلاء والاختبار؛ فكل دقيقة تمر على المرء تحيطه بضرورة من الضرورات سواء أكانت تلك الضرورة مما يتعلق بأمور الآخرة أم أمور الدنيا. وتسخير الله تعالى الأشياء لنا يعني قابلية تحويلها من (كم) إلى (كيف)، وهذا التحويل لا يتم بمجرد الحركة؛ إذ إن هناك سنناً ثابتة ونواميس ماضية تحكم عمليات التحويل تلك؛ ومعرفة تلك السنن من المقدمات الهامة التي يجب تحصيلها حتى تنساب حركة التخلص من الضرورات بيسر وسهولة.

إن الإنسان محصور دائماً بين تحد دائم مما حوله من الزمان والمكان والأشياء والمعارف، وبين نصر أو هزيمة؛ وعلى مقدار ما يسجل من انتصارات يكون رقيه في سلم التقوي والتقدم، وعلى مقدار ما يصاب به من انكسار وهزائم يظل راسفاً في قيود التراب والتأخر مطوقاً لعنقه بسلاسل الضرورة التي توصله إلى هاوية الاضمحلال التام. ومن هنا فإن أكثر دعاء يردِّده المسلم في ليله ونهاره هو «إهدنا الصراط المستقيم» لأن كل لحظة من العمر تحتاج إلى هداية جديدة من مالك يوم الدين ما دام عمره مليئاً بالتكليف والاجتهاد.

وما دام الأمر على هذه الصورة فإن الثروة الحقيقية لأية أمة من الأمم لا تكمن

---

(١) سورة الملك.

في الأرض أو في المال أو في الأشياء التي تمتلكها؛ وإنما تكمن في كمية الأفكار البناءة التي تخلصها من قيود الضرورات على الوجه الأكمل، وتعلمها حل المشكلات وإبصار دروب الفعل التي تسلكها.

ويمكن أن نبسط هنا بعض الأسباب والمجالات التي توجب علينا العناية بهذا اللون من ألوان النشاط الإنساني؛ وذلك على الوجه التالي:

١ ـ نظراً لأهمية التفكير في حياة الناس فإن الكتاب العزيز جاء حافلاً بالآيات التي تحث المسلمين على تقليب النظر في ملكوت السموات والأرض، ليستدلوا بذلك على وجود الخالق المبدع، كما حثهم على النظر في أحوال البشر وبدايات خلق الأشياء وتحريك عقولهم بقياس أحوالهم على أحوال من سبقهم من الأمم حتى لا يعرضوا أنفسهم لمثل ما تعرضوا له من عقاب وتدمير. وأمرهم باكتشاف السنن العليا التي تحكم حركة الإنسان والكون حتى يختصروا الجهد والوقت، ويجنبوا أنفسهم التصادم معها. ولعلنا نستعرض بعض تلك الآيات لننعم بقبس من نورها:

(أ) في مجال التوحيد والدلالة على خالق هذا الكون يقول ـ جل وعلا ـ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[1].

ويقول ـ سبحانه وتعالى ـ حاكياً حياة عالم النحل المدهش ومعبراً عن دلالة دقة تنظيمه على وجود بارئه:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى

---

(١) سورة آل عمران.

مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾(١).

(ب) ويذكر القرآن الكريم أن من أهم ما يهدف إليه حثَّ العقل الإنساني على التفكر والتدبر، فيقول ـ سبحانه ـ :

﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(٢).

ويقول ـ تباركت أسماؤه ـ :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾(٣).

(ج) ويذكر لنا القرآن الكريم أن القصص الذي احتل مساحة واسعة منه يهدف إلى إثارة النظر والفكر حتى يستخلص العبر الهادية للناس في مسيرة الحياة، فيقول ـ سبحانه ـ :

﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾(٤).

ويقول أيضاً:

﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾(٥).

وقال أثناء ذكر قصة إجلاء بني النضير:

﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾(٦).

أي قيسوا أحوالكم على أحوالهم حتى لا تقعوا في مثل ما حلَّ بهم.

---

(١) سورة النحل.
(٢) سورة النحل.
(٣) سورة ص.
(٤) سورة الأعراف.
(٥) سورة الأنعام.
(٦) سورة الحشر.

(د) ويعلمنا القرآن الكريم الوقوف على بدايات الأشياء وضرورة ملاحظة الجذور حتى لا يزيغ البصر في تأمل أطوار الأشياء المختلفة، فيقول ـ سبحانه ـ :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾[1].

(هـ) ويدل الله ـ تعالى ـ عباده على شيء من منهجية البحث والنظر حين يطلب منهم القيام لله مثنى وفرادى بعيدين عن التأثر بصخب الجماهير، وانفعالاتهم حتى يسلم النظر من المؤثرات الخارجية، فيقول:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾[2].

٢ ـ كان الفيلسوف الفرنسي (ديكارت) يقول: (أنا أفكر إذن أنا موجود) فهو بهذه العبارة الموجزة يجعل التفكير دليلاً على الوجود، بل يكاد يحصر الوجود في التفكير، وكأنه يريد أن الذين عطلوا ملكات التفكير لديهم لا يوجد دليل على أنهم أحياء!

وإذا سلمنا بصدق هذه المقولة فإن كثيراً منا اليوم يعيشون حياة نباتية فيها الطعام والشراب والتنفس والنوم والتكاثر. . . ولكنها خالية من التفكير!! وهؤلاء الذين يفعلون ذلك يندفعون إليه بشكل ذاتي في بعض الأحيان، وبضغط من الآخرين في أحيان أخرى حتى لا يختل نظام القطيع الذي يسوقونه، وحتى لا تتعرض مصالح العباد والبلاد للخطر!!!.

وخاصية التفكير هي التي توجد ميزة التنوع بين البشر في المستويات العليا؛ وحين تحرم أمة أو مجتمع أو جماعة أو فرد من هذه النعمة الجليلة فإن الحياة تصاب بالقحط والجدب، وتفقد ماءها ورواءها، وتصبح الأعداد البشرية الهائلة أكداساً من

(١) سورة العنكبوت.

(٢) سورة سبأ.

اللحم والعظم! وإذا ما حدث ذلك فإن كل مشكلة تصيب المجتمع تصبح إحدى لوازمه الثابتة فيه، وتظل تتضاعف، وتتفاعل؛ حتى إذا شعر الناس بضرورة الخروج من النفق المظلم وجدوا أن ذلك لن يحدث إلَّا بعد تكاليف باهظة مع تضاؤل إمكاناته!

٣ ـ إذا نظرنا في أحوال العالم الإسلامي اليوم وجدنا من الظواهر العامة ما يدعو إلى اليأس ـ وإن كان المؤمن لا ييئس ـ ونلمح من تلك الظواهر ما يلي:

(أ) دول العالم الإسلامي التي تجاوزت الخمسين مصنفة جميعاً في دول العالم الثالث، وكثير منها يعيش تحت مستوى الفقر، والذين ينضوون تحت هذا الاسم يزدادون يوماً بعد يوم. أما المسلمون الذين يعدون أقليات في أوطانهم فإنهم يعانون من المضايقة وخطر الصهر والتذويب من قبل الأكثرية، ويعاني بعضهم من خطر الطرد من تلك الأوطان وإعادتهم إلى بلادهم التي وفدوا منها.

(ب) على المستوى الثقافي الشكلي الكمي فإن نسبة الأمية بين المسلمين البالغين تتراوح نسبتها بين ٥٠ ٪ و ٨٠ ٪ بمتوسط يقرب من ٥٨ ٪، على حين تقل نسبة الأمية في دول الشمال عن ٢ ٪. ولا تتعدى هذه النسبة ٤٥ ٪ في المتوسط في دول العالم الثالث بصفة عامة؛ وهذا يعني بوضوح أن أعلى نسبة للأمية بين البالغين في العالم هي من نصيب الدول الإسلامية المعاصرة. ومن مؤشرات الخطر أن نسبة طلاب المدارس (بين عمر خمسة أعوام وتسعة عشر عاماً) لا تتعدى ٣٧ ٪ من مجموع تعداد السكان في العالم الإسلامي المعاصر، على حين تتخطى هذه النسبة ٧٥ ٪ في دول الشمال، وتصل إلى ٤٨ ٪ في دول العالم الثالث بصفة عامة[١].

وهذا من الناحية الشكلية المحضة، فإذا تجاوزنا ذلك إلى البحث في أحوال من نسميهم (مثقفين) وجدنا مأساة المضمون تتكامل مع مأساة الشكل؛ حيث إن إنتاجية هؤلاء المثقفين وقدرتهم على رفع سقف المعرفة في بلادهم تقترب من

---

(١) انظر: قضية التخلف العلمي والتقني: ص ١١٩، وما بعدها.

الصفر، مما يجعل هجرة النابغين والناشطين ضربة لازب، إذا ما أرادوا أن يرتقوا بعلومهم وثقافتهم... وأسباب هذا الخلل كثيرة يأتي في مقدمتها خطل في مناهج التفكير المتبعة في معالجة المشكلات والأزمات.

(ج) الانحباس النهضوي:

إذا رجعنا قرناً إلى الوراء وجدنا أن الأفكار النهضوية التي نادى بها المصلحون في شتى ميادين الحياة ما زالت مطالب لنا حتى اليوم، ولوجدنا أننا نشكو من العلل عينها التي شكوا منها من الفقر والجهل والمرض والاستبداد والتفرق والأنانية والظلم والاستخفاف بالإنسان، إلى ما هنالك مما ينضح به قاموس التخلف؛ ولو أن علة واحدة من هذه العلل تسلطت على أمة من الأمم لكانت كافية للقعود بها عن النهوض والقدرة على المنافسة! ونحن في حالة الانحباس هذه لا نملك سوى التلاوم الدائم، كل شريحة من شرائح مجتمعاتنا تلقي اللوم على الشرائح الأخرى، وتبرىء نفسها؛ وقد يكون اللوم موجهاً إلى جيل بأكمله مع تبرئة جيل آخر على فلسفة: «مشكلاتنا صنعها الجيل السابق، وسوف يحلها الجيل اللاحق»!!. أما نحن فمهمتنا الرسم في الفراغ...

هذا الانحباس سببه الرئيس هو عدم القدرة على إدراك طبيعة المشكلة؛ إذ إن وجود أية مشكلة لا يؤدي بالضرورة إلى حلها حيث يملك أكثر الناس الجَلَد والقدرة على التعايش مع تلك المشكلات وتحمل لأوائها مهما تكن قاسية. والوعي بالمشكلات لا يكفي ما لم نتمكن من تجزئتها إلى أساسية وثانوية مثلاً؛ وهذا لا يتم إلّا عن طريق الفكر المتحفز الذي لا يعرف طعم الراحة حتى ينبلج الفجر المنتظر.

(د) أما على الصعيد النفسي فنلاحظ الأدواء التالية:

فقد الأمن والطمأنينة، زوال الإيمان بكثير من الثوابت، الخوف من العالم والانطواء، التخلي عن المواقف الإيجابية تجاه الواقع، ازدياد المواقف المبنية على ردود الأفعال، البَرَم بكل ما هو قائم ونقده دون أي تمييز، ضيق الأفق والحيرة واليأس من انسداد السبل، تدهور المناخ الفكري وانعدام الحوار[1]...

---

(١) انظر: اغتيال العقل: ص ١٠، وما بعدها.

(هـ) انعدام فاعلية المبادىء والمثل العليا:

لا تشكو أمتنا فقراً في المبادىء أو القيم حيث إن المبادىء التي جاء بها الإسلام سوف تظل قادرة على تلبية الأشواق الفطرية للإنسان، كما أنها ستظل قادرة على إقامة التوازن بين جوانب الحياة المختلفة، وبناء الشخصية العالمية والمواطن العالمي؛ ولكن المشكلة التي نعاني منها هي انخفاض مستوى فاعلية تلك المثل والمبادىء في تحريك طاقات المسلمين وجذبها نحوها؛ مما جعل واقع كثير من المسلمين لا يختلف كثيراً عن واقع الأمم التي حرمت نعمة الوحي والهداية؛ بل إنه كان أكثر سوءاً في بعض النواحي. ومن المعروف أن الأمة حين تأخذ في التراجع، وتكف مُثُلها عن الفعل تنسحب المضامين من كل أنشطتها وجوانب حياتها، وتظل الأشكال رموزاً على المنظومات العقدية والشعورية ليس أكثر؛ بل قد تؤدي إلى عكس ما أوجدت من أجله؛ فقد شرع الله ـ تعالى ـ الصيام من أجل تهذيب النفس وصحة الجسم وتذكر الفقير وتوفير بعض النفقات لمساعدته؛ والذي يحدث اليوم أن المسلم ينفق في رمضان ضعف ما ينفق في غيره، وترصد بعض الدول التي تلتزم بتأمين السلع الغذائية لشعوبها ميزانية خاصة لرمضان!!

والصلاة التي شرعت لتنهى عن الفحشاء والمنكر، ولتكون صلة بين العبد وربه لم تنه كثيراً منا عن المعاصي، ولكنها صارت تَعِلَّة لتعطيل مصالح الناس عند كثير من الموظفين. والجيوش التي أنفقنا عليها ألوف الملايين لم تحم أرضاً ولم تصن كرامة! وقس على هذه اللازمة ما شئت!.

والتفكير السديد النشط هو الذي يساعدنا على إيجاد المخرج من هذه الأزمات. ولا بد هنا من التنبيه إلى شيء هام هو العلاقة الانعكاسية بين المبادىء والواقع حيث يظن بعض الناس أن إلحاح بعض الكتاب المسلمين قد تجاوز الحد، وأعطى الدنيا وشؤونها من الاهتمام أكثر مما أعطاها الإسلام.

وهذا الظن صادر عن نية طيبة؛ ولكن الحقيقة أن الدافع لأولئك الكتاب على ذلك الضغط ـ الذي قد يبدو أنه غير متوازن ـ هو غيرتهم على دينهم؛ لأنهم يدركون أن هناك علاقة انعكاسية مطردة بين واقع النظم الاجتماعية وبين إطارها المرجعي ومستندها الفلسفي، فحين تصبح النظم الاجتماعية عاجزة عن إشباع

حاجات الناس وحفظ وجودهم المعنوي والمادي والإبقاء على قدر مناسب من الحيوية والرقي فإن النتيجة ستكون قطعاً هي الشك في المبادىء والقيم التي أفرزت تلك النظم؛ إذ إن النظم الاجتماعية تمثل خط الدفاع الأول عن القيم والمبادىء فإذا ما انهارت، أو ضمرت بدأ العطب يسري إلى المبادىء نفسها؛ وقد أدرك السلف هذا، وعبروا عنه تعبيراً دقيقاً حين قالوا: (المعاصي بريد الكفر)!

وحين تقوم النظم الاجتماعية المختلفة بوظائفها التي أُوجدت من أجلها فإن هذا سيعود على القيم التي تستند إليها بمزيد من التمكين والترسيخ؛ إذ إن فلسفة عصرنا يزداد اعتمادها على المقولة الذائعة: (دعونا نلمس). فإذا أمضى الناس وقتاً أطول مما ينبغي لقطف ثمار شجرة يئسوا منها، وجعلوها حطباً؛ وما نشاهده اليوم من انهيار الشيوعية دليل قاطع على صحة ما نقول.

٤ ـ التفكير من أجل اكتشاف السنن:

كان من جملة تسخير الله تعالى الكون لهذا الإنسان أن بث فيه سنناً تتصف بالاطراد والشمول والثبات[١]، وهذه السنن مبثوثة في الكون والأنفس والمجتمعات؛ والوقوف عليها لا يتهيأ لنا ونحن متكئون على الأرائك؛ وإنما يأتي ثمرة استقراء لجزئيات كثيرة بغية توزيعها على النواميس العليا التي تحكمها، ثم تأتي مرحلة الاستفادة منها، وذلك بعدم مصادمتها والأمل بحصول أحداث تخالفها... وإن وجود السنن رحمة من الله ـ تبارك وتعالى ـ للإنسان؛ إذ إنه تمكن بسببها من اختصار الكثير من الجهود التي كان عليه أن يبذلها لفهم الكون من حوله والتعامل معه. ولنتصور أن قانون إحراق النار أو قانون الجاذبية ـ مثلاً غير مطرد، فكيف ستكون الحال؟!

وتتجلى الرحمة أيضاً من خلال وجود السنن في أن التحول في أكثر الظواهر الاجتماعية يتم ببطء، وعمر الإنسان إذا ما قيس بعمر الحضارات قصير جداً، مما يجعل الإنسان يبصر مقدمات الحدث دون أن يراه، أو يبصر نتائجه دون أن يرى

---

(١) هناك دراسة قيمة للسنة للدكتور أحمد كنعان. انظر: ص ٥٣ منها.

مقدماته، وحينئذ فإن من السهولة بمكان أن يصاب المرء باضطراب الرؤية وضلال الأحكام؛ ولذا جاء الأمر الإلـهي بالضرب في الأرض:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾[١].

إن الهدف من السير في الأرض هو اكتشاف السنن ما دام الواقع المعاش لا يتيح للمرء أن يرى الصورة كاملة بكل أبعادها. والسير في الأرض ليس سيراً في المكان فقط؛ ولكنه أيضاً سير في الزمان حتى نرى قصة البشرية كاملة في رشدها وغيها، والعواقب التي آلت إليها.

إن السنة تجسِّر العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، وحين نكتشف سنة في مجال ما فإن ذلك يعني سهولة فهم الماضي والحاضر، كما يعني استشرافاً حسناً للمستقبل، مما يجعل المسلم يخرج من عالم التوقعات والتخمينات إلى عالم العلم الراسخ الذي يعتمد عليه في البناء والعمل. وحين نتجاهل وجود السنن التي تحكمنا، وتحكم الوجود من حولنا فإن أخطاراً كبيرة سوف تحيط بنا؛ فحين لا ندرك مثلاً أن السنة في التحول الاجتماعي هي التدرج، وليس الطفرة فإننا سوف نعتمد أساليب ووسائل تخالف الفطرة وسنة التدرج، وسيؤدي ذلك إلى الاصطدام بالسنة، وسنحصد عاقبة ذلك. وحين لا نتعلم ـ مثلاً من السنن التفريق بين ما هو كائن، وبين ما ينبغي أن يكون فإن النتائج ستكون سلسلة من المفاجآت والآلام والهزائم!. فإذا كان هناك من أمر يحتاج إلى جهد فكري مكثف فإنه سيكون اكتشاف السنن وإذا كان ثمة شيء يحتاج إلى انضباط نفسي عالي الوتيرة فإنه سيكون الموضوعية في التعامل مع السنن.

٥ ـ تجسيد القيم في أشكال وأساليب عملية:

حين تظفر أمة بقائد فذ يلهب حماسها، ويرفع درجة توترها الحيوي إلى أقصى مدى تكون قيمة الأشكال والأساليب التي تتجلى فيها المبادىء والقيم العليا

---

(١) سورة آل عمران. وانظر: مقدمة (أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله): ص ١٥.

أقل أهمية؛ حيث إن الإخلاص والحماسة يجعلان الأمة تتجاوز مشاكلها من خلال تحمل الأفراد، ومن خلال التضحية والعطاء السخي؛ ولكن ذلك لا يُرشح للاستمرار إلى فترة طويلة؛ حيث تتراجع العاطفة والتوثب الروحي؛ ليحل محله تيار من الأنشطة العقلية، وبالإضافة إلى هذا فإن اتساع القاعدة يجعل إمكانات التواصل والتأثر العاطفي أقل؛ مما يجعل الأمة محتاجة إلى بلورة مبادئها وقيمها في إجراءات يومية تجعل حضورها ملموساً؛ وهذه الإجراءات والأشكال تتم بلورتها من خلال عملية اجتهادية مستمرة تستهدف إيجاد وظائف محددة للمثل العليا، وإيجاد المحفزات التي تنشط تلك الوظائف إذا ما اعتراها الفتور، أو انخفضت درجة فاعليتها لسبب من الأسباب. ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك:

(أ) الشورى:

الشورى مبدأ من أهم المبادىء الإسلامية، وقد طبقه النبي ﷺ في مجالات كثيرة، كما طبقه الخلفاء الراشدون كذلك من بعده؛ وحين كان المجتمع ضيق الرقعة فإنه كان بالإمكان الاعتماد على الشورى العفوية المعتمدة على معرفة الخليفة بأهل الحل والعقد؛ وحين اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وتعقدت مصالح الناس، وتعددت جوانب الحياة كان لا بد من تطوير الصيغ الشورية بما يتناسب مع الأوضاع الجديدة؛ ولكن الذي حدث هو بقاء الشورى عفوية مع انخفاض مستوى الحكام في تقواهم وكفايتهم. وكان ذلك أحد أهم الأسباب التي جعلت الثورات على الخلفاء لا تكاد تتوقف حيث تؤمن الشورى ــ عادة ــ مصالح مختلف الأقاليم والأقطار. ومع عفوية الشورى فإنها كانت لا تكاد تتعدى الشكليات والفرعيات؛ أما القضايا الكبرى في حياة الأمة ــ كاختيار الخليفة مثلاً ــ فإنها ظلت منوطة بعدد قليل من الأشخاص تنقصهم في كثير من الأحيان الأمانة والكفاية.

ونظراً لضعف خبرتنا التاريخية فإن الإحساس بضرورة بلورة هذا المبدأ في أشكال منظمة ما زال ضعيفاً؛ والأضعف منه المقدرة الفنية على ابتكار الطرق الملائمة لأوضاعنا الخاصة؛ ولن نتمكن من عمل شيء في هذه السبيل إلّا بالتفكير الجاد المرتكز على قاعدة جيدة من المعلومات.

(ب) الوحـدة:

ظلت الوحدة على امتـداد التاريـخ الإسلامي المحـور الذي ينحـاز إليه أهـل السنة والجماعة، وقد ضحوا في سبيل وحدة الأمة بـأشياء كثيـرة استجابـة لما وجههم إليه الإسلام من النزوع إلى وحدة الكلمـة واعتبار الفـرقة عـذاباً يسلطه الله على من يشاء من عباده. وأدب الوصايا لدينا يعج بالحث على الأخذ بكـل ما من شـأنه رص الصفوف وتجنيس الرأي، وصار ذلك جزءاً من منظوماتنا الفكـرية والشعـورية. لكن على الـرغم من كل ذلـك فإن الفـرقة والاختـلاف نالا القسط الأوفـر من شكـايـات المسلمين على مـدى التاريـخ الإسـلامي كله؛ وكـان كثيـر من الغيـورين يسعى في معالجة ذلك الداء الوبيل بالاتجاه إلى توكيد مبـدأ الوحـدة من خلال سـوق نصوص الكتاب والسنة وأدبيات الوحدة والجماعة ذات الطول والعرض في تراثنـا؛ ولم يكن ذلك هو الحل، ولا ما يقاربه؛ حيث إن الوحدة مبدأ ثابت عنـد المسلم؛ ولكن كان المطلوب دراسات مـطولة وإعمـالاً مستمراً للفكـر في البحث عن الأسباب التي تؤدي إلى الشقـاق من الجهل والهـوى والاستبداد والـظلم، كما كـان المطلوب أن نـأخذ عينات من نماذج الانشقاقات الكبرى في تاريخنـا لدرسهـا واستخلاص العبـر منها. وكـان من جملة المطلوب كـذلك أن نتجـه إلى الأطر الـوحدويـة التي تتنـاسب مـع الـظروف المعقدة والمعـطيات الجغـرافيـة الجـديـدة بمـا يحقق شكـلاً من أشكـال التـوحـد، ويسمـح في الـوقت نفسـه بمـرونـة الحـركـة للشعـوب الإسـلاميـة وفق خصوصياتها والمراحل الحضارية التي تمر بها.

كما كان علينا أن نبحث العلاقة الدقيقة بين الوحدة والحرية، والوسـائل التي تجمع بين هذين المطلبين، دون أن يطغى أحدهما على الآخر، إذ إن الوحـدة حين تقعد عن إشباع حـاجات الأمـة في القوة والتعـاون والتكامـل وتحقيق الأمن والرفـاه تصبح قيداً يسعى الجميع للخلاص منه.

(ج) إغاثـة الملهـوف:

إغاثة الملهوف خلق من أخلاق العرب في الجاهليـة، وقد دعم الإسـلام هذا الخلق الكـريم تدعيمـاً لا نظيـر له حين جعـل إسعاف نفس بتخليصهـا من الهـلاك معادلاً لإحياء نفوس البشرية جميعاً:

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

ورغبة في الثواب العظيم الذي وعد الله به منجد المستغيث ظل هذا الخلق حياً فاعلاً في حياة المسلمين على المستوى الفردي إلى يوم الناس هذا، ولكن مجمل التطورات في العصور الحديثة قلل من أهمية الأعمال الفردية في هذا المجال؛ إذ إن الفيضانات والزلازل وموجات الجفاف، وما تتركه الحروب من فقر وتشريد تتطلب لعلاجها جهوداً جماعية ضخمة، كما تتطلب إمكانات مادية كبيرة. ومع هذا فإن المنظمات الإغاثية في العالم الإسلامي في منتهى الضعف، ولا تتناسب أحجامها مع ما يتطلبه واقع المسلمين البائس من العون والمساعدة.

إن كل ما ذكرناه من مجالات التوظيف للقيم، وما ذكرناه من الأزمات والمشكلات لا يمكن حله إلَّا من خلال تفكير منظم واع مدرك لأسباب تلك المشكلات وجذورها، يمده استقراء واسع لحاجات المسلمين المعاصرة من أجل استخلاص العبر من الماضي وتخفيف عناء الحاضر. إن الله تعالى ما أنزل من داء إلَّا أنزل له دواء، وإن بداية الطريق منهجية صحيحة لتفكير مجد صبور مرن بعيد عن الذاتية والانفعالية والارتجالية.

• • •

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

« تحسين التفكير »

إن على المسلم أن يعتقد اعتقاداً جازماً أنه ما من ظرف أو حالة أو موضوع إلاَّ يمكن إدخال شيء من الإصلاح عليه بإكثار ما فيه من خير وإيجابية، أو بتقليل ما فيه من شر وسلبيات. إن إدخال مثل هذا الاعتقاد في مركَّبنا العقلي ضروري جداً لمقاومة سلسلة الإحباطات التي يتعرض لها المسلم في حياته. وإني لأظن أن الخلط بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية هو أهم مصادر الشكوى من الزمان التي كانت، ولا زالت إحدى اللوازم التي لا نمل من تكرارها؛ حيث وردت أحاديث صحيحة تدل على تقهقر الأمة في أحوالها كلما تقدم الزمان[1]؛ وقد اختلف العلماء في تفسير كثير منها هل يكون الإدبار عاماً، أو على الأغلب، وهل المقصود التدهور العام، أو على مستوى بعينه، كالحكام والعلماء. ومهما قيل في تفسيرها فإن ذلك لا يعني سوى الإرادة الكونية؛ وما دل من الآثار الصحيحة على شيء منها صدقناه، ولكن مدار التكليف ليس على ذلك، وإنما على الإرادة الشرعية.

ثم إن الطائفة الظاهرة على الحق تمثل النموذج الذي يحمل شعلة الهداية المتوهجة على اختلاف الأمكنة والأزمنة، والتي تلتقي في شخصها الأصالة والمعاصرة على نحو فريد. كما أن المجدد القرني يمثل إمكانات التحسين كلما ساءت أحوال المسلمين لضعف تمسكهم بدينهم، أو انحدار معاشهم الدنيوي؛ حيث يُوجِدُ الوظائف المتجددة للمبادىء العليا؛ فيبدو الدين وأهله في حالة من الشباب الدائم.

---

(١) انظر: صحيح البخاري باب الفتن، وفتح الباري: ١٣/٥ ــ ٢٥.

وما أروع قوله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها، فله بذلك أجر»[1]. إنها إرادة العطاء وفعل الخير، وتحسين فرص العيش حتى عند النفخ في الصور، ووقوف البشرية على عتبة الآخرة!!.

وانطلاقاً من هذا فإنني أعتقد أننا مطالبون اليوم ـ أكثر من أي وقت مضى ـ بأن نقوم بمحاولة تحسين طرق التفكير لدينا، والاندفاع في هذه السبيل إلى أبعد مدى ممكن.

لماذا نفكر؟

التفكير أشق عمل يمكن أن يقوم به الإنسان؛ ومن ثم فإن الإنسان لا يلجأ إليه إلا عند الحاجة؛ وحين نقول: إن التفكير شاق فلسنا نعني ذلك النوع من التفكير الذي لا يخلو منه أحد؛ كالتفكير بتوصيل الأولاد إلى المدرسة، وكيفية الخلاص من الزحام، والاتصال بشخص ليس عنده هاتف...! إن هذا التفكير هو نوع من الهموم اليومية التي تتحول مع شيء من التكرار إلى عادات يمارسها الإنسان دون أن يجهد دماغه.

وإنما نعني بالتفكير ذلك الترديد للعقل في مشكلة ما ترديداً مركزاً كذاك الذي يمارسه العلماء والقادة في شأن من الشؤون المستعصية. ونستطيع أن نقول: إنه لا تفكير بدون مشكلات، وإذا ما قدر للعالم أن يقبض على حلول جميع مشكلاته فإن التفكير الجاد سينتهي عندئذ! ولكن هذا لن يكون أبداً في هذه الحياة.

لكن وجود مشكلة ما لا يعني بصورة آلية وجود التفكير النشط؛ إذ إن المعاناة البشرية في التعامل مع الطبيعة القاسية من حولها لم تكن معدومة في يوم من الأيام، ومع ذلك فإن التفكير كثيراً ما يكون معطلاً. إن الإحساس بالمشكلة هو الذي يدفع إلى التفكير؛ ومن ثم فإن من مهام بعض الناس تضليل أحاسيس الناس حتى لا يشعروا بالمشكلات؛ حيث ربطت تلك الفئات وجودها بوجود الأزمات، ومن الحيوي لها أن تستمر!!.

---

(١) انظر: تعليقاً جميلاً على هذا الحديث في «قبسات من الرسول»: ص ١٣.

وهنا تبرز مكانة المفكرين في الأمم؛ حيث إن أبرز صفات المفكر أنه يمتلك رؤية نقدية شاملة ينقل من خلالها تناقضات مجتمعه والصعوبات التي يعاني منها إلى حسِّ الناس وأعصابهم. فإذا ما حرمت أمة هذا النمط من الرجال، أو وجدت صعوبات عطلت وظائفهم التبصيرية فإن تأزماتها مرشحة للبقاء والتجذر والتوسع!.

وانطلاقاً من الإحساس بثقل التفكير فإن الإنسان يضن به كما يضن بماله؛ فهو لا يبذل منه إلّا بمقدار، وكذلك نحن مع المشكلات فإننا نعطيها من الجهد العقلي ما نعتقد أنه يتناسب مع حجمها. وموقفنا هذا منطقي؛ إذ إن من غير المناسب أن نبذل أوقاتنا وجهودنا في حل مشكلة لن يعود حلها علينا بفائدة تَتكافأ مع العناء الذي بذلناه في سبيل حلها.

كيف نحسِّن التفكير؟:

لا بد من القول ابتداء: إن قدراتنا العقلية على التحليل والتركيب وإدراك المترابطات متفاوتة، مما يجعل عمليات التحسين تؤدي إلى نجاحات متفاوتة؛ ولكن الذي يراه كثير من العلماء أن مستوى التربية الاجتماعية وثراء المناخ العام أكثر تحكماً في جدوى التفكير وفاعليته من تميز القدرات الخاصة، وهذا ما يجعل إمكانات التحسين أكبر مساحة وأسهل تحقيقاً.

القراءة هي البداية:

لحكمة بالغة كان أول ما نزل من القرآن الكريم:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾[1].

ودستورنا الخالد (القرآن) مشتق من القراءة، وأعظم اختراع اخترعته البشرية كان الكتابة؛ والكتابة غير ذات قيمة إذا لم تعقبها القراءة؛ فقد تكثفت خبرة الأجيال على اتساع أمداء الزمان والمكان، في الكتابة؛ فهي الجسر الذي يؤمِّن التواصل بين الأجيال؛ فإذا لم يتهيأ لنا أن نقرأ ما كُتِبَ حرمنا من نعمة تراكم المعرفة الذي

---

(١) سورة العلق.

يمكننا من تجاوز كينوناتنا الثقافية. إن القراءة تمكننا من توسيع مساحات الرؤية؛ حيث نرى كل نتائج الأعمال السابقة الإيجابية والسلبية؛ وذلك يمكننا من امتلاك (البصيرة) التي من لوازمها القدرة على خطو الخطوة المناسبة، والتي تمنحنا الحصانة من أن نلدغ من جحر واحد مرتين ومرات...

ماذا نقرأ؟

لو قدر للواحد منا أن يقرأ (في المتوسط) كل أسبوع كتاباً، وقدِّر له عمر مديد تمكن فيه من أن يقرأ ستين سنة لكان قد اطلع على ثلاثة آلاف كتاب، وهو رقم متواضع للغاية إذا ما قورن بمئات الألوف من الكتب التي تعج بها مكتبات العالم، والتي هي في تصاعد مستمر؛ هذا الوضع يجعل التدقيق في نوعية ما نقرأ جزءاً من حرصنا على الحياة نفسها!.

إننا حين نقرأ نستثمر العقل والوقت في القراءة، ولا بد أن يكون هذا الاستثمار مربحاً بقدر المستطاع لا سيما أن عالمنا الإسلامي يفيض بالكثير من المؤلفات التي لم يتعب أصحابها في إعدادها والإعداد لها؛ مما يجعل كثيراً منه لا يختلف عما يقال في مجالس التسلية والترويح عن النفس!!.

وقد كان علماؤنا الأقدمون يقولون: (العالم من عرف كل شيء عن شيء وشيئاً عن كل شيء)؛ وهذا هو بغيتنا في هذا الزمان، كما كان في كل زمان؛ إذ إن القراءة في كل ما هبَّ ودبَّ ستعني معرفة خاطفة سطحية، أو ستعني شذرات من العلم تفقد الترابط، وتفتقر إلى الانتظام في مفاهيم عامة؛ وهذا لا يختلف كثيراً عن الجهل!!. وفي مقابل هذا فإن أصحاب الاختصاصات (المغلقة) يفتقرون غالباً إلى الرؤية المجتمعية الشاملة؛ مما يجعل وعيهم بذواتهم ومجتمعاتهم معدوماً أو محدوداً، ويجعلهم ألعوبة في أيدي محترفي التجارة بالعلم وثماره، ودوائر تأثيره؛ ممن يمكن أن نسميهم بالشخصيات العامة. فمن المستحب إذن أن يخصص الواحد منا ٧٠٪ من قراءاته لمجال محدد يصبح إماماً فيه، يستطيع من خلاله رفع عتبة تخصصه، وإضافة شيء إلى التراكم المعرفي، ويخصص باقي الجهد للاطلاع على العلوم المختلفة.

ومن المعلوم أن في كل لون من ألوان المعرفة رواداً نابهين لهم إسهامات متميزة في تنهيج تلك العلوم، والدفع بها إلى الأمام، وعلى موائدهم يعيش الألوف من الباحثين الأقل موهبة وخبرة؛ فمن الخير إذن أن نقرأ لأولئك، ونغرف من النبع مباشرة؛ وليس من الصعب التعرف عليهم، فالمختصون في كل علم وفن يعرفونهم كما يعرفون أبناءهم!

وحين يختار المرء تخصصاً ما ليكون محور مطالعاته فإن عليه أن يختار كتاباً يعد مرجعاً في ذلك التخصص؛ وهذا يتم من خلال شهرة الكتاب أو الاطلاع على قوائم المراجع. وحين يشرع الإنسان في القراءة الواعية التي يريد أن يسهم من خلالها. في التخطيط للمعرفة فعليه أن يكون بين يديه دائماً قلم وورقة يسجل فيها المشكلات والقضايا التي يعتقد أن المؤلف لم يوفها حقها من البحث، أو التي يشعر أنه قادر على أن يُوجد لهابعض الحلول الإضافية. فإذا ما انتهى المرء من ذلك الكتاب صار إلى مرجع آخر في التخصص المختار، ويحسن أن يكون ذلك المرجع من الكتب التي تعرض وجهة نظر مختلفة؛ حتى لا يقع المرء ضحية لوجهة نظر واحدة، هي عند أهل الاختصاص موضع نقد وجدل ـ ولا يوجد مختص سُلِّم له بكلِّ ما يقوله ـ. فإذا ما انتهى منه صار إلى قراءة كل ما كتب حول الموضوع؛ ولكن تكون القراءة حينئذ سريعة مع إمكانية الإغضاء عن بعض أجزاء تلك الكتب؛ إذ المراد هو الوقوف على بعض المشكلات الجديدة أو الحلول المقترحة لها[1].

ولا بد من القراءة الناقدة لكل ذلك؛ فلا نسمح للجديد من الأفكار أن يتسرب إلى أذهاننا دون محاولة لاختبار صدقه وفحص دلالته. وهذا لن يكون ميسوراً للمبتدىء غالباً، ولكنه سيكون تهيئة للأرض البكر؛ كي يزرع فيها التفكير المستقل. وبعد مدة من الزمن نشعر أننا امتلكنا نوعاً من الحسِّ الغريزي الباطني الذي يمكننا من وزن الأفكار وتثمين الكتب التي نطلع عليها، والمرحلة المعرفية التي وصل إليها الكاتب، فمن خلال قراءة صفحة من كتاب نستطيع أن نعرف

---

(١) انظر: التفكير علم وفن: ص ١٣٧، وما بعدها.

المردود الثقافي الذي سيعود علينا من وراء قراءة ذلك الكتاب؛ وحينئذ نكون قد قبضنا على حاسة الاستشعار المعرفي التي ستساعدنا كثيراً في اختزال الأعداد الهائلة من الكتب، وتحديد ما نحتاجه منها في مشروعنا الثقافي والمعرفي. وتلك هي بداية امتلاك منهج خاص بنا في التفكير. وإذا ما شعرنا بضرورة العودة إلى قراءة كتاب قرأناه؛ فمن الأفضل أن نعود إليه بعد سنة أو أقل أو أكثر، وحيئنذ فسنقرؤه بعيون جديدة، وسنجد نتيجة لنمونا الثقافي أننا قادرون على تسليط بعض الأضواء الناقدة عليه أكثر من المرة الأولى، بل قد نشعر في بعض الحالات أننا قادرون على الإضافة إليه.

ما بين القراءة والتفكير:

جرت عادة الكثيرين منا أن يقوموا بالقراءة السريعة دون أن يسجلوا شيئاً في كراسة أو بطاقة، وكثير منا أولئك الذين لا يفكرون فيما يقرؤون؛ فتكون مهمتهم نقل ما في السطور إلى الصدور طبق الأصل دون أن يتركوا شيئاً من بصماتهم عليه؛ وفي هذا يقول أحد المفكرين: إذا كنت تقرأ لتوفر على نفسك التفكير، فقد يكون من الأحسن لك أن توقف القراءة تماماً؛ فالتدخين أقل من ذلك ضرراً. وهروباً من القراءة إلى التفكير فقأ (ديمو كريتس) عينيه حتى يتوقف عن القراءة، ومن ثم يستطيع أن يفكر(١).

إن القراءة لا تصنع مفكراً عظيماً، وليست هي البديل عن الفكر؛ وكما يقول (جون لوك): إن القراءة لا تمد العقل إلّا بمواد المعرفة، لكن التفكير هو الذي يجعل ما نقرؤه ملكاً لنا(٢). ومن هنا فإن بعض المفكرين كان يتجه إلى تغليب التفكير على القراءة، وبعضهم يتجه إلى تغليب القراءة؛ ولكن من المتفق عليه أنه لا بد من تخصيص وقت للقراءة ووقت للتفكير، ويمكن أن تغلب القراءة في البداية

---

(١) التفكير علم وفن. ولا يخلو هذا وذاك من المبالغة، ولكن نقلناهما من باب إظهار التوكيد على التفكير.

(٢) السابق: ص ١٣١.

حتى نهيء لعقولنا المادة التي ستقوم بتشكليها؛ إذ لا يمكن لطاحون أن تصنع شيئاً دون وجود شيء تطحنه. فإذا ما شعر المرء أنه صار يملك منهجاً معرفياً ورؤية واقعية ومستقلة أمكنه أن يخصص أكثر وقته للتفكير، وسيكون ذلك أجدى من كثرة القراءة. وبشكل عام فإذا قرأنا ساعة أمكن أن نخصص ثلث ساعة للتفكير فيما قرأناه، وسيكون وقت التفكير في هذه الحالة وقتاً (للبرمجة) لما قرأناه؛ حيث يصير الدماغ في هذه الحالة إلى ترتيب المعلومات التي نقلتها له العين في سياقات مفاهيمنا الخاصة، وتعزيز الملاحظات التي كوناها من قبل.

وعلينا أن نختار للتفكير الأوقات المناسبة، وأنسب الأوقات هي أوقات البكور[1]، حيث يكون الدماغ قد أخذ حاجته من الراحة أثناء النوم؛ على حين يكون التفكير أقل كفاءة أثناء الشعور بآلام بدنية؛ كما أن التفكير في أوقات النعاس يؤدي إلى اختلاط التفكير بالخيال. وحين نفكر فقد يقف الفكر عند عقبة كأداء تشمخ أمامه كالسد المنيع؛ وحينئذ فإن من الأفضل أن نترك التفكير، وننصرف إلى عمل آخر، لنترك فرصة لاختمار المعلومات مع الخواطر التي خطرت لنا في سبيل الحل. ومما يروى في هذا السياق أن (إبراهام لنكولن) كان حين تواجهه مشكلة استعصت على الحل يلجأ مع مساعديه إلى سرد الأقاصيص الشعبية بعيداً عن أجواء المشكلة الكؤود[2].

وحين نفعل ذلك فهذا يعني أننا نفكر تفكيراً مركزاً؛ إذ ليس التفكير المركز ـ كما هو شائع ـ أن يبقى العقل عاكفاً على شيء واحد، وحول فكرة واحدة، أو في مكان واحد، وإنما يعني تناول مشكلة أو هدف باستمرار، ووضعه نصب عيني الشخص، وهذا يعني إبقاء فكرنا متحرجاً نحو نهاية محددة؛ ومن ثم فإن أفضل تعريف للتفكير المركز أنه انتباه طويل أو مدَّعم[3].

لكن ينبغي أن نتأكد قبل الشروع في صرف الاهتمام الكلي إلى شيء والبدء

---

(١) في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما: «اللهم بارك لأمتي في بكورها».

(٢) التفكير في الدراسات النفسية: ص ٤١٧.

(٣) التفكير علم وفن: ص ٧٦.

في التفكير المركز فيه من أن ما نريد التفكير فيه يستحق فعلاً ذلك؛ لأهمية التوصل إلى شيء جديد فيه؛ فمن الخطل وإضاعة الوقت أن نركز على حل مشكلات لم توجد بعد عتبات علمية لحلها، ولا نملك أي مدخل نشعر معه أننا وضعنا أرجلنا على بداية الطريق.

ومما يساعد على التفكير المركز أن ندون الأفكار التي نعثر عليها، أو تخطر لنا حول ما نفكر فيه، ومن الضروري مراجعة تلك الأفكار التي نكتبها المرة تلو المرة، وذلك حتى نبقي على مسارات تفكيرنا الأصلي؛ حتى لا نبدأ باتجاه، وننتهي إلى اتجاه آخر[1].

إن مراجعة الأفكار التي سجلناها ستعني إيجاد روابط بينها، والتمهيد لتصنيف منثورها بشكل جيد، وإذا ما خطرت فلنحاول أن ننطقها، فالنطق خير من التفكير الصامت، فنحن حين ننطق ما نفكر فيه نجعله أكثر دقة وانسجاماً مع الأفكار الأخرى حول المشكلة، كما أن النطق يزيد حصيلتنا من المفردات اللغوية[1].

مباشرة الحل لمشكلةٍ ما:

كل ما سبق أن تحدثنا عنه مما يساعد في تحسين التفكير بشكل عام، ويساعد في بناء خلفية ثقافية جيدة تكون عوناً للمرء على التصور الصحيح للمشكلات، وإيجاد الحلول المناسبة لها. ومما يجدر ذكره هنا أن تاريخ التقدم البشري لا يعدو أن يكون حركة جدلية بين الطرح للمشكلات والحل لها، ومن خلال اندماج الإنسان مع الطروح والحلول يترقى في حركة حلزونية صاعدة. وإن حل أية مشكلة سيعني مواجهة مشكلة جديدة، وهذا ليس نوعاً من الارتكاس، ولا نوعاً من الدوران في حلقة مفرغة؛ لأن المشكلات التي تواجهنا تكون أقل صعوبة حيث نستفيد من الانتشار الأفقي للمعرفة في التعمق الرأسي في حلول الصعوبات التي تقف أمام المزيد من رقي الظروف والإمكانات المعاشية على ما نشاهده على هذه الأرض كل يوم.

---

(١) السابق: ص ٨١، وما بعدها.

بداية المواجهة:

إن وجود المشكلات أمر بدهي ما دام أكبر خصائص الحياة الدنيا أنها حياة ابتلاء واختبار. وبداية المواجهة هي الشعور بالمشكلة، وكثيراً ما يتوقف الوعي بمشكلة ما على الوعي بحياة آخرين خلت حيانهم منها؛ فإن الذين يعيشون في وطن ضرب الاستبداد فيه أطنابه من مئات السنين لا يستطيعون تقدير حجم معاناتهم إلّا من خلال الاحتكاك بمجتمعات سادت فيها الشورى والحرية. فإذا ما أدرك المرء فعلاً أنه يعيش في ظروف صعبة، أو أقل حسناً من ظروف غيره كان عليه أن يحدد المشكلة؛ وليس تحديد المشكلة بالأمر السهل؛ فإن شدة الإلف لشيء قد تجعله جزءاً من المنظومة الرمزية لفرد أو لأمة؛ مما يجعل نظرات الناس ومعاييرهم تجاه المشكلات وشدتها متفاوتة؛ فقد يعد بعضهم ظاهرة ما نعمة على حين يعدها آخرون نقمة؛ وهنا تبرز أهمية المقدمات النظرية لكل ثقافة، وأهمية الأطر المرجعية؛ ونظم الثوابت فيها.

ويظل تحديد المشكلات ـ على كل حال ـ في العلوم الطبيعية والتجريبية أقرب منالاً منه في العلوم الإنسانية؛ حيث إن الباحثين في مجالات العلوم الطبيعية يجدون أنفسهم في ظروف أفضل كلما تعمقوا في البحث، وحققوا شيئاً من التقدم الرأسي على حين أن الباحثين في المجالات الإنسانية يجدون عكس ذلك؛ ولذلك أسبابه المعروفة.

فإذا ما استطعنا تحديد مشكلة ما بشكل جيد كان علينا أن نصوغها صياغة جيدة تعكس فهمنا المحدد لها؛ ونحن نعتمد في عملية التصوير تلك على مجموعة الحقائق والصور الذهنية والمفاهيم والمبادىء التي تعلمناها؛ لتساعدنا في الصياغة للمشكلة وعرضها[1]؛ كما أننا نتكىء على حلول سابقة لمشكلات مشابهة عن طريق القياس. وهنا يتفاوت الناس تفاوتاً كبيراً في القدرة على تنظيم ما ذكرناه في نسق واحد بغية الوصول إلى الحل المتصور. ومما يساعدنا مساعدة كبيرة في

---

(١) التفكير في الدراسات النفسية: ص ٤١١.

صياغة المشكلات في المجالات الإنسانية محاولة الوقوف على الظروف المحيطة بنشأتها، ومعرفة جذورها بشكل جيد؛ حيث إن الظروف المحيطة بالنشأة تترك بصماتها في كثير من معالم الظاهرة، وتتحكم في مراحل تطورها ومنحنيات نموها؛ وما أعظم ما علمنا إياه قوله ـ سبحانه ـ :

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾(1).

ومن المفيد في صياغة المشكلة أن نحاول صياغتها في أشكال متعددة، وإني على يقين أننا سوف نزداد دقة عند كل صياغة جديدة نبدعها؛ وحين تصاغ المشكلة بصيغ شتى فإننا سنجد أنفسنا قادرين على اختيار الصياغة الأنسب. والمشكلة التي توصف بشكل دقيق مشكلة حُلَّت جزئياً.

والخطوة التالية هي تقسيم المشكلة إلى أجزاء رئيسية وثانوية، وهذه قضية هامة جداً؛ لأن التجزئة للمشكلة موضع الحل تدل أولاً على استيعابنا لها بشكل جيد؛ كما أنها تدل على اتصافنا بفضيلة المرونة الذهنية التي تجعلنا لا نتعامل مع الأشياء على أنها كتلة واحدة؛ وهي تمكننا كذلك من توفير بعض الجهود حيث إن بعض أجزاء المشكلة يكون وجوده متوقفاً أحياناً على وجود أجزاء أخرى فيها، فإذا ما أدركنا ذلك لم نبذل في حلها شيئاً من الجهد؛ لأنها سوف تنتهي حين ينتهي ما تعتمد عليه.

ومما يساعدنا كثيراً في صياغة المشكلة وتقسيمها طريقة التعلم التي كوَّنّا عن طريقها معارفنا ومفاهيمنا؛ فحين تكون قائمة على التلقين والحفظ فإن القدرة على الصياغة الدقيقة ستكون محدودة؛ وذلك راجع إلى قلة تدريب فكر المتعلم على الاستنباط والاستنتاج، وضعف قدرته على استخراج توافيق جديدة من خلال أكداس المعلومات التي اطلع عليها. أما حين تكون الطريقة التي اكتسبنا بها معارفنا قائمة على الحوار والمناقشة وقدح زناد الفكر وحصر الحلول المطروحة ومحاولة اكتشاف الخطأ إلخ... فإن القدرة على تحديد المشكلات وإبرازها بصورة دقيقة ستكون

---

(1) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.

أكبر بكثير. ولعل كثيراً من تعثر حلول المشكلات لدى العالم الإسلامي يعود إلى طريقة التعلم السائدة فيه.

كل ما ذكرناه من أفكار يتعلق بالخطوة الأولى نحو الحل؛ ولكن معرفة المشكلة وتقسيمها دون وضع الحلول المناسبة لها لن يفيد شيئاً، وإن كان ذلك ضرورياً في البداية.

وفي إطار ممارسة التفكير لحل مشكلة ما يمكن أن نذكر الوصايا والإجراءات التالية:

١ ـ إذا كان الإعداد لحل مشكلة أو اختيار موضوع للبحث يحتاج إلى الكثير من الصبر والتؤدة حتى لا تكون البداية غير مناسبة فإن الحماسة والاندفاع في مواصلة العمل أمر ضروري لإنجاز شيء ذي قيمة؛ إذ إن العقبات التي تعترض الطريق كثيرة وشاقة؛ وقد يتخذ الباحث قراراً بالعدول عن التفكير في تلك المشكلة، أو البحث، ولا بد حينئذ من اتخاذ قرار شجاع؛ إذ إن ما أنفقه من جهد ووقت في جمع المعلومات والإعداد للحل قد يمنعه من ذلك. وقد يكون من المناسب في بعض الأحيان أن نوقف التفكير في المشكلة إلى أن نتمكن من استكمال أدوات البحث، أو حتى نتيح فرصة لاختمار المعلومات وتفاعلها مع تركيبنا العقلي حيث يتم هناك الإنتاج الداخلي. وعلى كل حال فإن كل واحد من هذين القرارين سيكون أكثر حكمة من بذل الجهد في معالجة لا نشعر بالرضا عنها.

٢ ـ يعود أكثر التشتت العقلي والتباطؤ في العمل إلى عدم القناعة بجدوى المشكلة التي نحلها، أو لاعتقادنا أن هناك مشكلة أولى بالعناية منها؛ ومن ثم فإن امتلاك القناعة أمر جوهري لاستمرار العمل. فإذا ما اتخذنا قراراً بالمضي فلا بد من العمل بحماسة وصبر وعزم.

٣ ـ كثير من المشكلات التي نمر بها على صعيد الفرد، أو على صعيد الأمة مرَّ بها غيرنا ممن هم أكثر تقدماً منا؛ ومع الاعتقاد بأن لكل مشكلة ظروف نشأة وظروف استمرار مما يمنحها خصوصية الحل؛ إلَّا أن معرفتنا بالأساليب التي اتبعت عند الآخرين في معالجتها سوف تساعدنا في حل مشكلاتنا؛ حيث تصبح

المشكلة أكثر إضاءة؛ كما أننا سنستوعب إمكانات عدة تفيدنا في تركيب حل مناسب. وإن كل العظماء من العلماء لم يبدؤوا من فراغ، ولكنهم استطاعوا أن يستوعبوا، ويهضموا كل الحلول والملاحظات التي أدلى بها من سبقهم من العلماء والباحثين؛ ولولا ذلك لما كان هناك تراكم معرفي. وقد سئل (نيوتن) عن إنجازاته الضخمة فقال: قد وقفت على أكتاف العمالقة الذين جاؤوا قبلي(١). وتنظيم المعلومات في الحاسب الآلي اليوم أتاح لنا بصورة مدهشة الاطلاع على الآراء السابقة بمنتهى اليسر والسهولة.

٤ ـ قد يكون حل المشكلة التي نريد حلها متوقفاً على حل مشكلة أخرى؛ مما يجعل عملنا فيها يشبه عمل من يريد بناء طابق خامس ولم يبن الطابق الأول!. وإدراك ذلك في الأمور الإنسانية أكثر تعقيداً منه في أمور الطبيعة والمشكلات العلمية البحتة؛ فإذا أردنا ـ على سبيل المثال ـ أن نحل مشكلة كساد سوق الحوار والنقد البنّاء في أكثر بلدان عالمنا الإسلامي وجب علينا أن نبحث في حل مشكلة الحرية التي لا يمكن للمرء بدون حلها أن يقول الحقيقة كاملة، والتي تجعل الناقد في خطر، وأن نبحث في المفاهيم الخاطئة التي تجعل من نقد الأفكار نقداً لصاحبها، مما يجعل المرء يبتعد عن النقد حرصاً على التماسك الاجتماعي والأسري...

٥ ـ قد تكون هناك آراء سابقة حول المشكلة، وهذه الآراء قد تكون خاطئة فتشكل عاملاً من عوامل الإعاقة أمامنا، وربما تُسقط بعض الإمكانات المتاحة للحل. وتاريخ التقدم العلمي نوع من الجهاد ضد التفسيرات الخاطئة؛ فإذا ما أردنا أن ننطلق أحراراً فعلينا ألا نخضع لكل ما يقال، وإنما نخضعه للدرس والتمحيص. وما أشد ضرر المقولات الشائعة على المفكرين، تلك المقولات التي صدرت نتيجة استقراء قاصر، أو تلك التي كثِّفت في كلمات قليلة؛ حتى يسهل حفظها وتداولها. وقلما تخلو مشكلة من المشكلات الكبرى من مجموعة من المقولات الشائعة حولها. إن اعتقادنا بأننا قد نكون أكثر تجربة، وأكثر خبرة من كثير من

---

(١) التفكير علم وفن: ص ٢٧١.

السابقين ـ لا سيما في المجالات التطبيقية ـ سيرفع من معنوياتنا في مواجهة الأقوال المسبَّقة.

٦ ـ من الحيوي للباحث أن يتحلى بفضيلة المرونة(١) الذهنية؛ لأن كثرة التفكير في مسألة ما لا تعني دائماً الوصول إلى حل مرض؛ لأن لكل جيل من الأجيال سقفاً معرفياً لا يستطيع أن يتجاوزه؛ فالناس يفكرون في الطيران من قرون بعيدة، ربما من أول ما شاهدوا الطائر يخترق كل الحواجز؛ ولكن تحقيق ذلك لم يتم إلَّا بعد تكامل علوم وتجارب مع مواد بعينها هيأت ولادة الطائرة. وهكذا فقد يكون أفضل نصر لقائد معركة هو الانسحاب بقواته سالمة، كما فعل سيف الله خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ في موقعة مؤتة؛ وقد يكون الحل الأمثل هو التضحية بجزء من الجيش لحماية الباقي، وقد يكون، وقد يكون....

إن المفكر الذي تسيطر عليه مقولة: (إما هذا وإما هذا) لن يخرج غالباً بشيء، ولن يستطيع الاستمرار في التفكير، وإنما سيأخذ في النهاية إجازة مفتوحة!

٧ ـ هناك خطر ينبغي أن يتجنبه الباحث، وهو عدم استغراق كل الاحتمالات باتجاه أو طريق ما، أي: الانتقال من بضعة احتمالات في اتجاه معين إلى احتمالات أخرى في اتجاه آخر، إلى احتمالات جديدة تصل باتجاه ثالث. إن هذا الأسلوب ضار بعملية الإنتاج الفكري. ومما يعالج هذا أن يقوم الباحث برسم خطة منظمة للإنتاج، وأن يكون واضحاً في استبعاد اتجاهٍ مّا في سبيل الآخر؛ ومن الممكن أن يسجل ملاحظة يحتفظ بها أن اتجاهاً ما جدير أو غير جدير بإعادة النظر فيه مرة أخرى(٢).

٨ ـ إذا كانت المشكلة موضع التفكير تتطلب تفكيراً جماعياً، فلا بد حتى نصل إلى الحل الأمثل أن تكون القناعة بأهمية المشكلة متجانسة، أو متقاربة، ولا بد أن يكون إلمامهم بها كذلك؛ كما أنه من المفضل أن يكون هناك تقارب في مستواهم الفكري والثقافي، وإلَّا كان التفكير فردياً أكثر كفاءة وجدوى. ولعل هذا

---

(١) تعد المرونة والطلاقة والأصالة والقدرة على تفصيل المجملات وإكمال النواقص الأركان الأساسية للتفكير المبدع. انظر: تنمية الإبداع والتفكير الإبداعي: ص ٢٠ ـ ٢٥.

(٢) التفكير في الدراسات النفسية: ص ٤١٧.

أحد أسباب تأخر اللجان المشكلة لبحث بعض الأمور في الإنجاز، أو في ضعفه.

إصـدار الحكـم:

كل ما قلناه من قبل عبارة عن مقدمات وخطوات من أجل الوصـول إلى حكم نـاضج أو رأي سـديد، ولا يشتـرط حتى يكون الحـل ناجحـاً أن يتوصـل إلى حـل دائماً؛ إذ إن ولادة أي حل قد تحتاج ـ كما قدمنا ـ إلى مقدمـات وظروف ومـراحل لا يملكهـا البـاحث أو المفكـر؛ ولـذا فـإنـه قـد يكـون من قبيـل الحلول النـاجحـة ـ بمعيـار ما ـ الـوقوف على جـذور المشكلة، أو إعادة صيـاغتها، أو إسقـاط بعض الفرضيات القائمة في حلها، أو طرح فرضيات جديدة لحلها، أو تقسيمها إلى أجزاء رئيسة وأخرى ثـانويـة؛ وقد يتخـذ الحل صـورة إيجاد وظـائف جـديـدة لمبـدأ من المبادىء العليا، أو قيمة من القيم، أو إيجاد أدوات جديدة لها لـم تكن من قبل. إن كل هذا عبارة عن ضروب من الحلول؛ وكمالها مقترن باستنفاد كل وسائل الحل وإمكاناته.

ومهما يكن من أمر فإن الأناة في إصدار الحكم والصياغة الدقيقـة له أمـر في غاية الأهمية؛ وقد لـوحظ أن الإنسان البـدائي أقل صبـراً على البحث والملاحـظة، وأكثر مسارعة إلى إصدار الأحكام العامة الكبيرة. أما المتحضر فهو أكثر صبـراً على الملاحظة، وأكثر حذراً في الإقدام على أحكام لم تستـوف مقدمـاتها، ومـا تحتاجـه من الملاحظة والتجربة. وليس أعون على ذلك من صيـاغة الحـل في فترات زمنيـة متعددة؛ لأن ذلك سيعني ـ عند توفر الاهتمام ـ اشتغال الدمـاغ بالحـل خلال تلك الفترات، وهذا سيؤدي إلى المزيد من النضج والكمال.

ولا ينبغي أن ننسى أمراً هامـاً هو أن كثيـراً من المعطيـات التي نمتلكها لحـل ما قد تكون غير يقينية؛ مما يجعل الحكم في النهايـة ظنياً؛ وهنـا لا بد للبـاحث من صياغة الحل بطريقة تشعر بذلك؛ فليس من العلم في شيء أن نـولد نتـائج قـطعية من مقدمات ظنية، أو نسوقهـا سياق القـطعيات وهي مستقـاة من ظنون وتخمينـات؛ وهـذا ليس ضعفاً في الحـل أو حطاً من قـدر النتـائج؛ بـل إن ذلـك يمنـح الحـل إمكانات الإضافة في صيغته وتطبيقاته والتوليد منه، وتلك من ميزات الحل الناجح.

● ● ●

«التَّفْكِيرُ العِلْمِيُّ»

عرف بعضهم التفكير العلمي بأنه «مجموعة من المبادىء التي توجه العلماء عند البحث عن المعرفة الجديدة». ويميل آخرون إلى النظر إلى عملية التفكير العلمي على أنها: «مجموعة من الخطوات المتسلسلة التي تقود إلى حل المشكلة.». وعرف بعض الباحثين التفكير العلمي تعريفاً إجرائياً شاملاً حين قال: «هو كل نشاط عقلي هادف مرن يتصرف بشكل منظم في محاولة لحل المشكلات ودراسة وتفسير الظواهر المختلفة، والتنبؤ بها والحكم عليها باستخدام منهج معين يتناولها بالملاحظة الدقيقة والتحليل، وقد يخضعها للتجريب في محاولة للتوصل إلى قوانين ونظريات»(٢).

ويمكن أن نوجز أهم صفات التفكير العلمي فيما يلي:

١ ــ **التفكير العلمي نشاط مقصود، وليس نشاطاً تلقائياً**؛ فهو يستهدف حل المشكلات التي تعترض طريق الإنسان، كما يستهدف دراسة الظواهر المختلفة وفهمها من أجل تفسيرها واستنباط القوانين والنظريات التي تحكمها.

٢ ــ **وهو نشاط منظم؛ وليس نشاطاً مفككاً**؛ ومعنى التنظيم هنا هو عدم ترك الأفكار تسير حرة طليقة، وإنما ترتب بطريقة محددة، ومنظمة عن وعي. وحين يمتلك المرء خطوطاً واضحة يعالج من خلالها الظواهر المختلفة، يقال إنه امتلك منهجاً علمياً؛ وامتلاك المنهج أشبه بامتلاك مفتاح منجم من الذهب! ويتّبع المنهج العلمي الخطوات التالية:

---

(١) الجامعة والتدريس الجامعي: ص ٢٥٠.

(٢) السابق: ص ٢٥٦.

(أ) ملاحظة منظمة للظواهر الطبيعية التي يراد بحثها.

(ب) مرحلة التجريب حيث توضع الظواهر المختلفة في ظروف يمكن التحكم فيها، وتكون الظروف متنوعة قدر الإمكان حتى يمكن رؤية كل الاحتمالات.

(ج) الاستعانة بتلك القوانين الجزئية المتعددة التي تم الوصول إليها في المرحلة التجريبية، كما استعان (نيوتن) بكل القوانين التي وصل إليها (جاليلو) من قبل، وذلك حتى يُثبت قانون الجاذبية.

(د) كثيراً ما يلجأ العلم بعد الوصول إلى النظرية العامة إلى الاستنباط العقلي حيث يتخذ من النظرية نقطة ارتكاز، ويستخلص منها بطرق منطقية ورياضية نتائج محددة.

٣ ــ **يتصف التفكير العلمي بالدقة والضبط،** ويتجلى ذلك في العبارات التي يصاغ فيها ذلك التفكير، والتي تأخذ شكل الصيغ الكمية، كما تتجلى الدقة في ملاحظة الإنسان الفاحصة للموقف من جميع نواحيه، ودراسة سائر احتمالاته والظروف التي تؤثر فيه.

٤ ــ **البحث عن الأسباب**: لحل أية مشكلة تعترضنا لا بد من معرفة أسبابها؛ فالظواهر الطبيعية، أو الاجتماعية لا تحدث بدون أسباب، وإذا استطعنا اكتشاف العلاقة التي تربط النتائج بالأسباب في الظواهر التي يتكرر حدوثها، نكون قد توصلنا إلى قانون علمي يمكن أن نتسلح به لحل أية مشكلة تسببها لنا تلك الظاهرة. إن معرفة الأسباب تمثل مفتاح الحل.

٥ ــ **التراكم**: أتاح اختراع الإنسان للكتابة نقل الخبرات البشرية عبر أمداء الزمان والمكان، وصار الجيل اللاحق بمثابة من يركب على ظهر عملاق؛ فهو يرى ما يراه العملاق، وما لا يراه. والمعرفة العلمية أشبه ببناء مشيد من طوابق عدة مع فارق أساسي، هو أن سكان هذا البناء ينتقلون باستمرار إلى الطابق الأعلى الذي يبنونه، ويتركون الطوابق السفلى لتمثل الأسس والمنطلقات. والقرآن الكريم علمنا البحث عن الأسباب، وعلمنا ضرورة الاستفادة من خبرات السابقين حتى نكون أقرب إلى الكمال فقال ــ سبحانه ــ :

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾[1].

ومعرفة بداية الخلق تعني بداية خلق كل مخلوق على أي مستوى كان؛ ومعرفة الخلق تعني معرفة أسباب النشأة وظروفها والعوامل المؤثرة فيها. والقصص القرآني ـ في مجمله ـ يستهدف إحداث التراكمية لدينا، كما يفعل ذلك القصص في الحديث النبوي؛ فهما يحكيان لنا قصص الأنبياء مع أقوامهم في مسارات الهداية، وبيان عاقبة كل منهم. ويأمرنا القرآن الكريم بالاعتبار:

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾[2].

أي: قيسوا أحوالكم بأحوالهم؛ فالسنن التي تحكمهم، وتحكمكم واحدة؛ ولن يكون الاعتبار إلَّا بعد هضم تجارب السابقين وخبراتهم حتى نفهم علل تقدمهم وتأخرهم، فنضيف كل ذلك إلى خبراتنا.

٦ ـ **الشمول**: إن العلم عبارة عن معرفة مرتبة، أو هو مجموعة من القوانين والقواعد التي تحكم ظاهرة ما. وهذه القوانين (هي بالمصطلح القرآني) سنن يجب أن تكون من الشمول بحيث لا يمكن تأطيرها في زمان أو مكان محدد؛ فحين نرى تفاحة تسقط فإن ذلك يتعدى في المعرفة التفاحة؛ لنطبق قانون الجاذبية على كل جسم، وعند كل الناس من أولهم إلى آخرهم، وبعبارة أخرى: إن العلم لا يكون علماً حتى يكون عالمياً، وما لم يكن كذلك فهو ظنون أو أوهام!.

٧ ـ **اليقين**: إن الحقيقة العلمية قابلة لأن تنقل إلى كل الناس الذين تتوفر لديهم القدرة العقلية والمعرفية على فهمها، وهذه الصفة هي التي تجعل الحقيقة العلمية يقينية، واليقين المعتبر هو اليقين الموضوعي الذي يرتكز على أدلة منطقية مقنعة لأي عقل. والمقصود أن البرهان العلمي يقنع كل من يستطيع فهمه في ضوء حالة العلم في عصر معين؛ فالارتباط بين اليقين، وبين البراهين ارتباط أبدي، يقول ـ جل وعلا ـ :

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.

(٢) سورة الحشر.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[2].

وقال ـ سبحانه ـ:

﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[3].

إن عدوي العلم هما الظن والهوى، فتوليد القطعيات من المقدمات الظنية ضعف في العلم، وسيطرة الأهواء على كيفية استخلاص النتائج والأحكام ضعف في الإخلاص والنزاهة[4].

٨ ـ **اليقين الذاتي**: وهو حالة تعتري الشخص يشعر من خلالها أن فلاناً موجود في دار فلان، أو أن كارثة حاقت ببني فلان، دون أن يكون له أي مستند علمي خارج عن كيانه. وهذا اليقين لا قيمة له في البحث العلمي. وتأكيداً لهذا المبدأ ذهب أكثر الفقهاء إلى أنه ليس للقاضي أن يقضي بعلمه، وإنما بالبينات، مع أن علم القاضي قد يكون مستنداً لرؤية أو سماع؛ وذلك احتياطاً لمنع اختلاط الأهواء والظنون والمعرفة الشخصية والشعور الذاتي بالأدلة والحجج؛ حتى إن الأحناف الذين أجازوا للقاضي أن يقضي بعلمه تراجع متأخروهم عن ذلك، ورأوا منعه نظراً لفساد الزمان. ويؤيد بعض الفقهاء هذا بأن النبي ﷺ كان يعلم من أمر المنافقين ما يبيح دماءهم وأموالهم، ولم يحكم فيهم بعلمه[5].

● ● ●

(١) سورة النساء: الآية ١٥٧.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١١٩.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ٤.

(٤) انظر حول سمات التفكير العلمي: التفكير العلمي: ص ٤ ـ ٥٧، والجامعة والتدريس الجامعي: ص ٢٥١، وما بعدها، ومجلة دراسات عربية العدد الثالث، عام ١٩٨٩.

(٥) انظر القاضي والبينة: ص ٤٧٦.

«التَّفْكِيرُ المَوْضُوعِيُّ»

لا بـد من القول ابتـداء: إن (الموضـوعية) تمثـل إحدى أهم سمـات التفكير العلمي؛ حيث إنها ذات أثر فعال في جميع عملياته، حتى إن التفكيـر العلمي تجاه بعض المواقف يكون هو التفكير الموضوعي ذاته. ومن هنا فإني أعتقد أنـه لا يمكن أن ندرك جذور مشكلة ما، أو صياغتها صياغة صحيحة، ثم عرضها، ثم السعي إلى حلهـا ما لم نتحـلَّ بهذه الفضيلة! ولست أبعـد في النجعة، ولا أخـطىء الـرمية إذا مـا قلت: إن فقدنـا للموضـوعية في التعـامـل مـع الأفكـار والمـواقف والأشخـاص والأشيـاء كان من أكبـر العوامـل التي أدت بنـا إلى التخلف والتفكـك والتنـازع في تـاريخنا المـديد. وسـوف ينجلي صدق مـا نقول ـ بحـول الله تعـالى ـ من خـلال صفحات هذا البحث.

وعلى الرغم من خطورة هذه القضية وأهميتها فإني لم أجد من أفردها بالبحث والتمحيص ورد كثير من أصولها ومظاهرها إلى المبـادىء العليا التي أكـرمنا الله بهـا ـ وهـذا في حدود علمي ـ فكـان هذا البحث محـاولة حثيثـة في سبيـل بلورة هـذا الموضوع؛ وأسأل الله ـ تعالى ـ العون والسداد.

وبإمكاننا أن نعرف التفكير الموضوعي بأنه: «مجموعـة الأساليب والخـطوات والأدوات التي تمكننا من الوقـوف على الحقيقة، والتعـامل معهـا على ما هي عليـه بعيـداً عن الذاتيـة والمؤثرات الخـارجيـة». ولا يغيب عن البـال أن الـذين يـدعـون التحلي بالتفكير الموضوعي كثيرون؛ بل قلما نجد من يعتـرف أنه غيـر موضـوعي؛ وهذا على مستوى الأفراد والجماعـات والدول والشعـوب. ولا ريب أن الموضـوعية ليست امتلاك منهج يجهـد الإنسان نفسـه للحصول عليـه، ثم يسترخي مـطمئناً لمـا أنجـزه!! إن الموضـوعية علم وإخـلاص، قـدرة وإرادة، فهم وتقـوى. وقـد يمتلك

المرء ناصية الفهم والعلم والقدرة، لكن التحلي بالإخلاص والإرادة يحتاج إلى جهاد طويل لا يتوقف إلاَّ عند مفارقة هذه الحياة. وهذا الجهاد من أصعب ما يعانيه المرء وأشقه؛ حيث يعيش في عالم تسيطر عليه الأهواء والنزعات، وحيث يجد المسلم نفسه يضحي دون أدنى مردود مادي أو أدبي يعود عليه! إن امتلاك زمام التفكير الموضوعي ليس بالأمر المذلَّل؛ فقد نستنفد الكثير من الطاقات دون أن نشعر أننا اجتزنا هذه العقبة بنجاح!.

وقد رأيت أن أتحدث عن البناء التاريخي للموضوعية في الإسلام أولاً ثم أعقبه بالحديث عن بناء المجال النظري، ثم عن تجليات الموضوعية في الفكر الإسلامي ثم يتلوه الحديث عن بعض المظاهر التي تنافي الموضوعية في تراثنا وواقعنا، ثم نختم الكتاب بالحديث عن بعض الأسس التي تساعدنا في بناء التفكير الموضوعي؛ وعلى الله قصد السبيل.

• • •

الفَصْلُ الثَانِي

في

بِنَاءُ ٱلقُرْآنِ ٱلكَرِيمِ
الخَلْفِيَّةُ ٱلتَّارِيخِيَّةُ لِلمَوْضُوعِيَّةِ

«القرآن الكريم يبني الخلفية التاريخية للموضوعية»

تتمثل رحمة الله تعالى للعالمين في ذلك التتابع العجيب لرسالات السماء من أجل هداية الخلق، وتعريفهم بوظائفهم في هذه الحياة؛ وحتى ينسجم الشكل مع المضمون فإن الخطوط العريضة في دعوات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ظلت واحدة، من توحيد الله ـ تعالى ـ وعبادته والإحسان إلى الخلق وكف الأذى وإعمار الأرض إلخ. . . وقد شكل ذلك التجانس سياقاً عاماً وبعداً تاريخياً فريداً لكل من أكرمه الله بالانتفاع بهدي الأنبياء. ومن ثم فإن الذي يؤمن بمحمد ﷺ لا يكون قد آمن بنبي فحسب، لكنه يكون قد وضع نفسه في السياق العام لتاريخ البشرية. . . وفي هذا يقول الله ـ تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ . . . ﴾[1].

وقد عني القرآن الكريم بأن يوجز لنا أنشطة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في تبليغ الرسالات، كما عني ببيان مواقف أقوامهم منهم، والحوارات التي تمت بينهم؛ وذلك حتى يكوِّن ذلك جذور الأحكام والتعليمات الخاصة بهذه الأمة. وهذه قضية مهمة في تجذير المستند الفلسفي للأحكام والإجراءات التكليفية من النواحي المنطقية والعرفية والنفسية. وحين نرى أن التاريخ في جوهره ليس أكثر من جملة من المبادرات الفذة استتبعت عدداً كبيراً من الاقتداءات ندرك أهمية مثل هذه الخلفية! ونحن هنا نسوق جملة من الأمثلة التي توضح الخلفية التاريخية التي

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

سردها القرآن الكريم، وهو يقوم ببناء التفكير الموضوعي لدى المسلم. ونحن لا نعمد هنا إلى الاستقصاء، وإنما إلى مجرد التمثيل. ولا بد من الإشارة هنا أن تلك النماذج الهادية قد تكون بياناً من رسول، كما قد تكون عتباً على تصرف أمة من الأمم السالفة، وقد تكون حكاية لحوار وجدال بين أطراف شتى . . .

١ ــ معرفة حدود الذات:

إن من أهم مفردات الموضوعية أن يدرك الإنسان أبعاد أية مشكلة أو موقف يريد أن يتعامل معه التعامل الصحيح؛ لكن الأهم من ذلك أن يدرك المرء أبعاد ذاته؛ إذ الجهل في هذا وخيم العواقب؛ حيث يؤدي في بعض الأحيان إلى الكبر والغرور والتهور، وقد يؤدي في أحيان أخرى إلى نكران الذات وعدم الاستفادة من إمكاناتها المقدورة لها. وفي هذا السياق نجد القرآن الكريم يخبرنا عن حنو نوح ــ عليه السلام ــ على ولده فيسأل الله ــ تعالى ــ نجاته من الغرق:

﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1].

وهنا يأتي التنبيه له من الله تعالى بالكف عن سؤال أمور لا يعرف حقيقة حالها، أخطأ هي أم صواب:

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾.

وتأتي الإنابة السريعة إلى الله تعالى والاعتصام به من تكرار ذلك:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2].

إن هذا تعليم لهذه الأمة بأن يعرف كل منها حدود ذاته وقدر نفسه، وإذا ما أخطأ، أو قصر فإن طريق الأوبة نيرة لاحبة!

وحين أخبر الله تعالى الملائكة الكرام أنه جاعل في الأرض خليفة استفهم

(١) سورة هود.

(٢) سورة هود: الآية ٤٦، ٤٧.

بعض الملائكة على سبيل التعجب والاستعلام: كيف يستخلف الله بني آدم، وفيهم من يفسد في الأرض. وحين أدركوا أنهم قد تجاوزوا حدودهم بذلك قالوا:

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾[1].

أي ننزهك يا الله عن النقص، ونحن لا نعلم إلَّا ما علمتنا إياه.

ولما سأل بعض أحبار يهود النبي ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى جملة ذكر الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ أن جرأة يهود مألوفة معروفة؛ وقد كانوا من قبل قد سألوا ما هو أشنع حين قالوا:

﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[2].

وكان أن أخذتهم الصاعقة بظلمهم وبغيهم.

فقد عزى الله نبيه ﷺ وسلاه حين أنبأه أن ظاهرة (التوقح) وتجاوز القدر في المسألة مسألة تاريخية، لكنها ممقوتة يستحق عليها صاحبها العقاب حتى تعود البشرية إلى رشدها.

٢ ـ التثبت:

من ثوابت الموضوعية التثبت من حقيقة ما يصادفه المرء في حياته قبل أن يتخذ موقفاً تجاهه؛ وقد ركز القرآن الكريم على هذا الجانب حتى لا يقع المسلم في سلسلة من الأخطاء نتيجة الفهم الخاطىء، أو القاصر؛ وقد عرض القرآن الكريم هذا الموضوع بأساليب شتى حتى يصبح حقيقة راسخة؛ فهؤلاء فتية الكهف الذين ربط الله على قلوبهم يقولون:

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾[3].

وهذا يوسف يقول:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١٥٣.

(٣) سورة الكهف: الآية ١٥.

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾[1].

وإذا كان الله تعالى يريد من عباده أن يتبينوا فإنه يساعدهم على ذلك؛ فهو يرسل رسله بالآيات البينة التي تقنع المطلع عليها، وتجعله على بيِّنة من أمره؛ وفي هذا يقول القرآن الكريم:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾[2].

وهذا نبي الله سليمان ــ عليه السلام ــ يتفقد الطير، فلا يرى الهدهد، وحين علم أنه غاب دون إذن منه قال:

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾[3].

وقد جاء الهدهد بأخبار بلقيس ملكة سبأ، وشرح له بعض أحوالهم؛ ليكون ذلك مسوغاً لغيابه؛ لكن سليمان لم يقنع بتلك الحجة التي كان يطالب بها، وإنما قال:

﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[4].

إنه امتحان للحجة، وتعليم للناس أن يميزوا بين حجة وأخرى.

ويعرض الكتاب العزيز في صورة أخرى توبيخ الذين يجادلون في أمور لا علم لهم بها؛ كما فعل اليهود والنصارى حين كان كل منهم يحاول جعل إبراهيم ــ عليه السلام ــ منسوباً إلى ملته؛ فقال سبحانه:

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٤٠.

(٢) سورة المؤمنون.

(٣) سورة النمل.

(٤) سورة النمل.

(٥) سورة آل عمران.

٣ ـ نبـذ الآبائيـة:

كثيراً ما يكون تراث الآباء سبباً في تعـطيل العقـل والاستفادة من خيـر طارف يخالف ما كان عليه السـابقون، ومن ثم فـإن الإنسان مكلف بـامتلاك الميـزان الذي يمكنه من تقويم تركة أسلافه، وإنزالها في المنزلة اللائقة بهـا، لئلا يقـدس ما كـان عارياً عن كل مقومات البقاء سوى ميزة القدم! وقد ضرب لنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ المثل المنير في موالاة الله ـ تعـالى ـ والحق الذي آتـاه والانسلاخ عمـا ساد في مجتمعه من ضلال؛ وفي هذا يقول الله ـ تعالى ـ :

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾(١).

لقـد عـانى الأنبيـاء ـ عليهم الصـلاة والسـلام ـ على اتسـاع أمـداء الـزمـان والمكـان من مشكلة تقديس أقـوال الآباء والأجـداد وإيثارهم على الهـدى؛ ومن ثم فإن الرسل الكرام شنوها حرباً لا هوادة فيها ضد صنمية ميـراث السابقين حتى تتهيـأ عقول الناس لقبول الدعوات السماوية الجديـدة التي تخالف جُلَّ ما كـان يسود في مجتمعـاتهم من خـرافـات وأسـاطيـر ممـا تنـاقلوه كـابـراً عن كـابـر دون أدنى نـظر أو تمحيص.

٤ ـ إنصاف الناس وعدم هضم حقوقهم:

عنـدما ينشب الخـلاف، وتثور العـداوات يصبح كثيـر من الناس عـاجـزاً عن الإبصار بعينين؛ فهو لا يرى إلَّا المثالب والمسـاوىء، وحين تهبُّ رياح المـودة فإن كثيرين أيضاً لا يبصرون إلَّا بعين الرضا؛ ومن هنا جاءت دعوة شعيب لقومه واضحة صريحة للخلاص من هذه النقيصة حين نصح قومه:

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾(٢).

---

(١) سورة التوبة.

(٢) سورة هود.

٥ ـ النظـرة التفصيليـة:

من أكبر الأخطاء التي تنافي الموضـوعية إصـدار الأحكام العـامة في القضـايا الإنسانية حيث يتشابك عدد من العوامل في إيجاد الظاهرة الـواحدة، وحيث يصبح الربط بين ظاهرةٍ ما وبين ظواهر أخرى معقداً غاية التعقيـد؛ مما يستـدعي الأناة في إصـدار الأحكـام، وتفصيـل مـا يحتـاج إلى تفصيـل. وفي هـذا الصـدد يقـول الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾[1].

فقـد وجد الكفـر في بيت نبيين من الأنبياء الكـرام، وخـرج الإيمـان من بيت أعدى أعداء الله؛ وفي ذلك تبصرة لأولي الألباب حتى لا يحكموا بالإيمان أو الكفـر لأهل بلدة أو قبيلة أو بيت بصورة عامة.

ويحكي لنـا القرآن الكـريم قول بعض علمـاء بني إسرائيـل الذين كـانـوا في جيش طالوت حين قالوا:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾[2].

فالنصر لا يتوقف على عدد وحده أو عدة وحـدها أو الإخـلاص وحده، ولكن هنـاك عوامـل عدة تسهم في تحقيقـه؛ وفي هذا دفـع للمؤمنين كي يحاولـوا تحقيق ما يمكن من تلك العوامل حتى يفوزوا بالغلبة.

---

(١) سورة التحريم.

(٢) سورة البقرة.

٦ ـ نقد الذات :

إن نقد الذات يمثل إحدى قمم الموضوعية، فهو إقرار ببشرية بني آدم التي لا تستطيع أن تخرج من دوائر الجهل والقصور والخطأ ـ إلاَّ من عصم الله ـ؛ وفي هذا السياق يحدثنا الله تعالى عن أبينا آدم وأمنا حواء حين أكلا من الشجرة، وبدت لهما سوآتهما، وعرفا الوقوع في المخالفة؛ فإنهما أسرعا إلى الإنابة قائلين:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

والتوبة لا تكون إلاَّ بعد اكتشاف خطأ؛ واكتشاف الخطأ لا يكون إلاَّ بعد صحوة عقل، أو صحوة ضمير، وكل منهما أمارة النضج والرقي! وهذه السنَّة التي سنَّها أبونا آدم لنا ستظل خميرة يستنبت فيها الصالحون من أبنائه صنوفاً من الأوبات والمراجعات!

وهذا موسى ـ عليه السلام ـ يعترف بخطئه حين قتل القبطي نصرة للإسرائيلي، ويقول:

﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾[2].

وهذا يونس يعلن بكلمات ملؤها الضراعة والثناء على الله ـ سبحانه وتعالى:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[3].

وهذه بلقيس ملكة سبأ تعلن توبتها من عبادة الشمس قائلة:

﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

إن نقد الذات سيظل مقياساً دقيقاً للوعي بالذات وللوعي بالماضي والحاضر، والأمة التي تحرم منه تحرم من خير كثير!

---

(١) سورة الأعراف.

(٢) سورة القصص.

(٣) سورة الأنبياء.
وقد ورد في الحديث: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلاَّ استجيب له».

٧ ـ المرونـة الذهنيـة :

إن الإحاطة بموضوع ما وجذوره وأسبابه وعواقبه ووجوه ارتباطه مع موضوعات أخرى تجعل المرء يتحلى بفضيلة المرونة الذهنية، التي تُوجِد للإنسان مساحات للحركة يوازن فيها بين الخير والشر وأنواع الخير وأنواع الشر؛ فيحاول من خلالها النفاذ إلى تحقيق خير الخيرين، ودفع شر الشرين، كما يحدد بها علاقته بذلك الموضوع، وما يمكن تجاوزه منه، وما لا يمكن. وإليك بعض النماذج القرآنية التي تؤسس هذه السمة الحميدة:

(أ) ذهب موسى ـ عليه السلام ـ لمناجاة ربه، وترك أخاه هارون خليفة في قومه، وقد قام السامري بما قام به من صياغة عجل لبني إسرائيل حتى يعبدوه من دون الله، وقام هارون بنصحهم وموعظتهم، لكنهم لم يقبلوا منه، وحين عاد موسى قال:

﴿ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾(1).

فقد خاف هارون أن تتفرق كلمة بني إسرائيل إن تركهم، ولحق بموسى فينقسموا إلى قسمين: قسم يقيم على عبادة العجل، وقسم يلحق به. هذا الفهم من هارون ـ عليه السلام ـ كان نتيجة موازنة بين اللحاق بأخيه والتبرؤ مما فعل بنو إسرائيل، وبين خوف الفرقة بين بني إسرائيل وتشتت شملهم، فآثر الإقامة معهم، والعجلُ يُعبد على مرأى منه على الفرقة والشتات.

(ب) في الرحلة التعليمية التي قام بها موسى ـ عليه السلام ـ مع الخضر قام الخضر بقتل غلام وخرق سفينة المساكين، وقد اعترض على ذلك موسى؛ لما في عمله من إتلاف النفس والمال؛ فأجابه الخضر بقوله:

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ

(1) سورة طه.

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾[1].

قد علمنا الخضر ـ عليه السلام ـ كيف نوازن بين الإبقاء على سفينة معيبة، وبين ذهابها بالكلية؛ ولا ريب أن بقاءها معيبة أخف شراً؛ كما علمنا أن موت نفس واحدة أخف شراً من هلاك نفسين[2].

(ج) قال الله تعالى:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾[3].

حين نزلت هذه الآيات فرح المؤمنون لأنها تحمل البشرى بعودة الكرَّة للروم على الفرس، وكانوا يحبون ذلك؛ لأن الروم أهل كتاب، كما أن المسلمين كذلك؛ كما كانت قريش تتمنى أن يظهر الفرس؛ لأنهم مثلهم[4]. ومع أن الروم مشركون في نظر المسلمين إلَّا أن هناك بعض نقاط اللقاء؛ فقد أباح الإسلام ذبائحهم ونكاح نسائهم، ولم يكن ذلك جائزاً بالنسبة لعباد الأوثان من الفرس وأشباههم. إن فرح المؤمنين يدل على تفرقتهم بين الشر الكبير والشر الصغير، وهم بفرحهم بانتصار الشر الصغير على الشر الكبير يعبرون عن رؤية مرنة يحتاجها المسلم في كل زمان ومكان.

هذا البناء للخلفية التاريخية كان بمثابة التمهيد للعقل المسلم حتى يشعر أنه حين يؤمر بسلوك دروب الموضوعية والواقعية والإنصاف، فإنما يؤمر بالسير في طريق لاحبة خطا فيها من قبلُ الأنبياء والمرسلون ومن معهم من خيار بني البشر،

---

(١) سورة الكهف.

(٢) ورد في حديث أخرجه الشيخان: أن الرسول ﷺ قال: «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما».

(٣) سورة الروم.

(٤) تفسير القرطبي: ١٤/١.

ليشكل ذلك جزءاً من النظام الشعوري وجزءاً من المحك المرجعي للمسلم فيما بعد. وقد آتت هذه اللفتات أكلها؛ فلم تمضِ مدة يسيرة على البعثة المحمدية حتى هبت رياح التغيير الجذري على العقلية العربية وعقلية الشعوب التي دخلت في الإسلام بعد؛ وكتبت صفحات خالدات في هذا الفصل من حياة الفكر على ما سنشاهده في صفحات قادمة من هذا البحث بحول الله تعالى.

• • •

الفَصل الثَالِث

في

بِنَاءُ ٱلمجَالُ ٱلنَّظَريّ لِلمَوْضُوعِيَّة

« بِنَاءُ ٱلمجَالِ ٱلنَّظَرِيِّ لِلمَوْضُوعِيَّةِ »

تتسم الجوانب المختلفة للإنسان بالمرونة، كما تتسم بالتعقيد والتشابك، ومصدر المرونة أن أواسط جلّ القضايا الإنسانية ذات تغييرات متصلة؛ مما يجعل رسم الحدود الفاصلة فيها غير دقيق؛ فنلجأ إلى رسم حدود لفظية أو تقديرية أو افتراضية أو تحكمية؛ حتى نتمكن من التعامل معها؛ فالحدود الفاصلة بين الكرم والتبذير، وبين التهور والشجاعة، وبين الجبن والحذر، وبين الثبات والتصلب، وبين المرونة والتذبذب هي في أكثر الأمر من قبيل ما ذكرنا . وبمقتضى المرونة فإن علينا أن نترفق في إصدار الأحكام؛ وذلك بالبعد عن التعميم، والمقولات الصارمة.

والتعقيد يفرض علينا الحذر والأناة حيث لا تتبدى لنا الحقائق والنواميس المتصلة بالإنسان دفعة واحدة، وإنما على مراحل متتابعة وفق ما نبذل من جهد ووقت في استكشافها، وسوف تفنى الإنسانية، وقد تركت وراءها جملة من الحقائق التي لم تتوصل فيها إلى الكلمة الأخيرة. إن سبل البحث تضيق وتلتوي كلما سرنا قدماً في البحث في المجالات الإنسانية عامة، والنفسية خاصة. على حين يجد الباحثون عكس ذلك في العلوم الطبيعية؛ حيث إن الانتشار المعرفي الرأسي والأفقي يمد كل منهما في سلطان الآخر، ويتعاونان على اختزال المسافات بين النظرية والتطبيق! .

هذا وذاك يستدعي بناء فضاء نظري واسع المدى يسمح للمرونة الإنسانية واختلاف ظروف البشر أن تأخذ كل أبعادها؛ لكنها في النهاية تقف عند حدود واضحة المعالم، تفصل بين القيم وأضدادها، وتوقف الإنسان على مراشد الحق التي ليس بعدها إلّا الضلال! .

وبإمكاننا أن نسمي ذلك الفضاء بالقاعدة القيمية، أو الخلفية الثقافية، أو المزاج العام؛ إنه التربة الصالحة للاستنبات، أو الرحم التي تتخلق فيها الموضوعية، وتتغذى مما فيها، وتحتكم إليها. . .

وأهمية القاعدة القيمية هذه تنبع من أنها المستند الأساسي لكل الأنظمة والمبادىء والقوانين والطرق التي تمكن الإنسان، أو تصير به إلى أن يفكر تفكيراً موضوعياً. وإذا ما انهارت تلك القاعدة صارت القوانين والأنظمة. . عبارة عن حدود لفظية سكونية عمياء يمكن تجاوزها وتأويلها وكسرها من قبل بني البشر. كما تنبع أهميتها من أنها تمثل الإطار المرجعي كلما أريد بناء إجراءات أو تنظيمات جديدة في هذا المجال، أو استحداث وظائف جديدة لمبادىء الموضوعية. وحين يتفكك مجتمع، أو تنهار السلطة الزمنية فيه فإن هذا الفضاء النظري يقوم ببعض وظائفهما في عصمة المجتمع من الانزلاق نحو البربرية!.

وبما أن كثيراً من الأشياء لا يتضح إلَّا بمعرفة أضداده، فإن لنا أن نتصور ماذا تكون الحال لو أن النبي ﷺ سمح للناس ببناء الأحكام على الظنون، وإجراء العقوبات على الشبه، وماذا يحدث لو أن التفاضل بين الناس في الإسلام كان لا يقوم على التقوى، ولكن على الأنساب، وماذا يحدث لو أن الإنسان أُخذ بذنوب أجداده أو أحفاده، وماذا يحدث لو أن التكليف كان فوق الوسع، وماذا يحدث لو أنه أقر التعيين في الوظائف العليا على أساس القرابة، أو لمن يدفع أكثر!!!.

لو أن شيئاً من ذلك كان جزءاً من الخلفية الثقافية للموضوعية إذن لكان الخطأ جنينياً، ولاستحال معه الإصلاح، إلَّا أن يهدم البناء كله، ويوضع له أساس جديد، وإذن لتبدت مظاهر في مرحلة الانطلاق تشبه تلك التي نعاني منها في مراحل الانهيار والانحطاط، وإذن لانعدمت منظومة قيمية ورمزية في غاية الأهمية!!.

وانطلاقاً من كل ما سبق رأيت أن أسوق جملة من نصوص الكتاب والسنة التي أسهمت في بناء المجال النظري للتفكير الموضوعي الذي تروحت الأمة بنسماته دهراً من الزمان، وما زال يمثل بمنطلقاته ورموزه مصدراً ثراً من مصادر الموضوعية لنا وللعالم؛ ولن أتوسع كثيراً في التعليق والتوضيح؛ حتى لا أحول دون ألق تلك النصوص في حسِّ القارىء وإدراكه.

١ ـ البعد عن الظن :

يعد البعد عن الظن والتخمين أهم خطوة على طريق الموضوعية، وهي الخطوة التي إن زلَّت فيها القدم لم يستقم ما بعدها من خطوات أبداً؛ حيث إن الأساس الواهي يجعل البناء القائم عليه في حكم المنهار مهما كان شامخاً؛ بل إن كلفة إزالته ستكون باهظة كلما شمخ وعلا! ومن هنا جاءت النصوص الكثيرة التي تحوط حسَّ المسلم من كل جوانبه بغية ترشيد الخطوة الأولى، وإحكام الأساس قبل الخوض في اتخاذ المواقف وتحليل الأخبار واستخلاص النتائج؛ ولا ينبغي أن يساورنا الشك أن مناهج العلم الحديث أخذت هذه الفضيلة عن المنهج الإسلامي الذي أرساه القرآن الكريم. ويمكن بلورة هذه القضية في النقاط التالية:

(أ) طالب القرآن الكريم أهل الكتاب وكفار قريش بالكف عن الجدل فيما لا علم لهم به، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)﴾(١).

فقد زعم اليهود أن إبراهيم كان يهودياً، وزعم النصارى أنه كان نصرانياً مع أنه كان قبل موسى وعيسى بمئات السنين؛ فكيف يكون تابعاً لملة جاءت بعده؟

وذكر المفسرون أن النضر بن الحارث كان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، فأنزل الله فيه، وفي أضرابه من الجهلة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) سورة الحج.

(ب) قرر القرآن الكريم في مواضع عدة عدم صلاحية الظنون في بناء المعلومات، وشنع على أولئك الذين يركنون إليها؛ حيث إن الظن متأرجح بين اليقين والشك؛ بل إن من الظنون ما يكون أوهاماً! وحين نسوق الظنون لاتخاذ مواقف جادة والحكم في مسائل كبرى فإن ذلك يكون مجازفة خطيرة تنتج أوخم العواقب. وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الموضوع بتعابير مختلفة؛ فهو تارة ينهى المؤمنين عن اتباع الظن، كقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(١).

وتارة يقرر لهم أن الظن غير ذي قيمة في استكشاف الحقائق كقوله ـ سبحانه ـ:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾(٢).

وتارة ينعى على الكفار اعتمادهم على الظن في مواضع لا ينفع فيها إلاَّ العلم اليقيني، كما في نعيه على الذين زعموا أنهم قتلوا عيسى ـ عليه السلام ـ حيث قال ـ سبحانه ـ:

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾(٣).

وكقوله:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾(٤).

(ج) حث القرآن الكريم المسلمين على التحلي بفضيلة التثبت قبل الإقدام على أي أمر، ولا ريب أن الإقدام على أمر دون تثبت لن يكون مبنياً على القطع، لكن

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٢.

(٢) سورة يونس.

(٣) سورة النساء.

(٤) سورة الأنعام.

على الظنون، وقد يكون مبنياً على حسن الظن بالناقل دون اختبار شخصي لما يقوله، كما في قوله ــ سبحانه ــ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾[1].

وكقوله ــ سبحانه ــ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾[2].

إنه توجيه كريم للمؤمنين إذا هم غزوا في سبيل الله ألا يعجلوا في القتل حتى يتبين لهم المؤمن من الكافر.

(د) أمر الله ــ تعالى ــ المؤمنين أن يستعملوا عقولهم في المجالات التي يمكنها أن تتوصل فيها إلى الحقيقة؛ فالغيبيات التي لم يروها، ولم يأتهم بها خبر صادق لن يكون الكلام فيها أكثر من اللغو والعبث، ولن يكون أكثر من الأوهام والظنون. وفي عدم زج العقل في موضوعات لا يملك أدنى مقدمات لها تكريم له، كما أن في ذلك حفظاً للمنهج من أن يخرج عن الإطار العلمي الصحيح. ولا يخفى أن إنكار علماء الغرب في بداية عصر النهضة الحديثة لكل ما هو وراء المادة لم يكن أكثر من رد فعل على زج كثير من رجالات الكنائس وعلماء اللاهوت النصارى للدين في قضايا ليست من مجاله؛ فكذلك زج العقل في غير دوائره إهانة له وحط من قدره. وفي هذا يقول ــ سبحانه ــ :

﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ

---

(١) سورة الحجرات.

(٢) سورة النساء.

﴿ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩ ﴾[1].

ولا ريب أنهم لم يشهدوا خلق الملائكة، ولم يروهم. وحين أراد الوليد بن المغيرة أن يسلم قال له رجل: تركت دين آبائك، وزعمت أنهم في النار؟! فقال له الوليد: خشيت عذاب الله!. فضمن له الرجل إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله عز وجل! فأعطاه بعض الذي ضمن له، ثم بخل، ومنعه الباقي[2]؛ فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥ ﴾[3].

إن أحداً لا يتحمل العذاب عن أحد، ولو دفع له أجر ذلك؛ واعتقاد ذلك ليس مما يدرك بالعقل.

(هـ) يعلمنا النبي ﷺ الموضوعية حين يشنع على أولئك الذين يحدثون الناس بكل ما سمعوه دون نظر شخصي في ذلك المسموع؛ ولا ريب أن كثرة نقل الأخبار والأقوال مظنة للوهم والنسيان، كما أنها مظنة للتزيد وشوب الهوى؛ ومن ثم قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»[4]. كما ذم أيضاً أولئك الذين يروون أخباراً لا سند لها، ولا يعرف من هو قائلها؛ وذلك توسلاً بها إلى مآرب شخصية، حين قال: «بئس مطية الرجل زعموا»[5]. ولفظة (زعموا) إنما تستخدم عند عدم وثوق الناقل من صحة ما ينقل. وكم حقق الأعداء من مآرب عن طريق بث الشائعات بين المسلمين حيث يتلقفها كثيرون من عشاق (زعموا) لنشرها وتعميمها!!.

٢ ـ التجرد من الأهواء:

لا ريب أن البعد عن الظنون أسهل من الناحية الفنيَّة والموضوعية من البعد

---

(١) سورة الزخرف.

(٢) البحر المحيط: ٨/١٦٦.

(٣) سورة النجم.

(٤) رواه مسلم: انظر صحيح مسلم: ١/١٠.

(٥) الأدب المفرد: ص ٢٥٩، والنهاية: ٢/٣٠٣.

عن الأهواء، حتى إن كثيراً من العلماء يرون أن التجرد من الهوى والشؤون الخاصة في بحث القضايا الإنسانية عامة غير ممكن في كثير من الأحيان؛ وإدراك الإنسان لاختلاط هواه بآرائه قد يكون غير متيسر للإنسان نفسه لدقة المسالك والمسارب في هذا الشأن. لكن نعمة الهداية تجعل سيطرة الإنسان على أهواء نفسه أكثر إمكاناً، وحلية التقوى تزيد في البصيرة، كما قال ـ سبحانه ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[1] .

ومهما يكن من أمر فلا مناص من جهاد دائم للنفس في ذات الله بغية التجرد له عن الأهواء والمطامع والشهوات. . وباب الأهواء باب واسع ينتظم كثيراً من ألوان الزيغ عن الموضوعية؛ لكن سنعرض تحت هذه الفقرة إلى ما نعده اللباب تاركين ألواناً أخرى لعرضها تحت عناوين أخرى بغية المزيد من الوضوح. وحين نقلب النظر في القرآن الكريم نجد ملامح عرضه لهذه القضية على الوجه التالي:

(أ) نص الكتاب العزيز في مواضع غير قليلة منه على أن المعرضين عن الإسلام ما أعرضوا عن علم، ولا عن قناعات لكن اتباعاً للهوى، وخضوعاً للشهوات والميول الذاتية التي لا تقوم على منطق أو برهان؛ وفي هذا يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[2] .

لقد كشف لهم القرآن الكريم تناقضهم حين بين لهم أنهم لا يرضون أن يشاركهم عبيدهم ومماليكهم في أرزاقهم وأنهم ليسوا سواء مع مماليكم؛ فهم

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٩.

(٢) سورة الروم: الآيتان ٢٨، ٢٩.

لا يخافونهم كما يخافون الأحرار أمثالهم، ومع هذا كله فهم يجعلون لله المنفرد بالخلق والأمر شركاء يشركونهم مع الله في التقرب والمخافة. ثم بين القرآن الكريم أن المسألة مسألة أهواء، لا تخضع للمنطق والبرهان؛ وماذا تصنع لمن اتبع هواه، واستسلم له؟!.

ويحدثنا القرآن الكريم مرة أخرى عن رضوخ المشركين لأهوائهم حين يصور لنا أنهم في اتباع أهوائهم أشبه بالعبّاد، فأهواؤهم آلهتهم؛ وهم إذ يفعلون ذلك ليسوا جهلة؛ لكنهم يفعلون ذلك عن علم؛ وهذا أوغل في الشناعة والانحراف.. قال سبحانه:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[١].

وفي هذا تقرير قاعدة ثابتة، هي أن العلم لا يؤدي إلى الهداية لا سيما إذا سيطر الهوى عليه، والعلم لن يؤدي اليوم بصورة مؤكدة، ولا مطلقة إلى سيادة السلام والتقدم ـ كما يتوهم بعضهم ـ لأن النزعة التجارية والعنصرية تجهض فاعليته في هذا الاتجاه.

(ب) وجّه القرآن الكريم النبي ﷺ ناهياً إياه عن الركون إلى بعض ما يقوله أهل الأهواء، ومبيناً له أن عمل ذلك يجرده من نصرة الله وعونه:

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾[٢].

وقال ـ سبحانه ـ:

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[٣].

ونهاه في موطن آخر عن أن يدافع عن الذين يخضعون لأهوائهم، أو يجادل

---

(١) سورة الجاثية.

(٢) سورة البقرة.

(٣) سورة الأنعام.

عنهم؛ لأن في ذلك تعزيزاً لهم وتعميماً لفسادهم، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾(1).

(ج) أمر الله تعالى المؤمنين بإقامة موازين العدل، وإن خالف ذلك ميولهم؛ إذ إن الهوى عدو مبين للعدل والإنصاف، فقال ـ سبحانه ـ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾(2).

قال ابن كثير: أي لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شؤونكم، بل الزموا العدل على كل حال(3).

(د) بين القرآن الكريم في بعض المواطن أن الولاء ينبغي أن يكون باستمرار للمنهج المنزل مهما كان مخالفاً للهوى، وأن ما ظاهره في نظر البشر الشرُّ قد لا يكون كذلك، وما ظاهره الخير قد لا يكون كذلك؛ وذلك حتى يتهم المؤمن نفسه في كل موقف، ويبحث عن شرعية مواقفه مخافة أن ينزلق في متاهات الأهواء والشهوات. وفي هذا يقول القرآن الكريم:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾(4).

وقال سبحانه حاثاً على حسن العشرة للنساء، وإن بدا منهن ما يكره:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ

---

(1) سورة النساء.

(2) سورة النساء.

(3) تفسير ابن كثير: ١/٥٦٥.

(4) سورة البقرة.

﴿ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾[1].

وفي النهاية فإنه يمكن أن يقال: إن أسوأ ما يفسد الدين والدنيا، والأفراد والجماعات شيئان الهوى والجهل، أو الشبهات والشهوات؛ والله وحده العاصم من ذلك.

٣ ــ الانسجام الذاتي:

من أهم مرتكزات الموضوعية الانسجام الذاتي، وهو مطلب ضروري لحياة مستقرة آمنة مثمرة، وهذا الانسجام ينبغي أن يتجلى في اتساق أقوال المرء مع معتقداته، وفي أفعاله مع أقواله. وهذا الانسجام من سمات الإنسانية الفاضلة، بل من سمات الرجولة الحقة. ولخطورة هذه الفضيلة في حياة البشر كتب الله ــ تعالى ــ العصمة لأنبيائه؛ فهم معصومون من الكذب؛ لأنه يخالف انسجام القول مع المعتقد، وعصمهم من المعاصي؛ لأنها تعني تنافر السلوك مع الأقوال؛ إذ هم دعاة الفضيلة، وسدنة الكمال الإنساني. وحين تفقد الأمة الانسجام الذاتي تتعقد حياتها، وتفقد المبادىء والقيم العليا لديها فاعليتها؛ فالكلمة الطيبة تصبح غير ذات قيمة؛ إذ إن صاحبها لا يعبر بها عن معتقداته، أو إنه يفرغها من زخمها بعمل ما ينافيها! والأعمال الفاضلة كأعمال البر والخير والإحسان لا تمسي موضع جذب لاهتمام المجتمع ونشاطاته؛ لأنها معلولة بعلل تنزع منها معناها الإنساني النبيل، وهكذا... والخلاصة أن الإنسان حين يفقد انسجامه الذاتي يخوض حرباً أهلية هو ساحتها، وأدواتها، ومحاربوها؛ والنتيجة تدمير الفرد والجماعة، وتحويل المجتمع إلى ركام من البشر، ليس أمامه إلاَّ السقوط في البربرية! ومن هنا أشاد الإسلام بهذه الفضيلة واستخدم أقسى عبارات الإنكار والتوبيخ لأولئك الذين يخرجون عليها! ويمكن أن نجتلي معالم ذلك في النقاط التالية:

(أ) زعم اليهود أنهم أولياء الله وأحباؤه والمصطفون من خلقه؛ وهذا يرتب عليهم الاستبشار بلقاء الله تعالى، لكن واقع الحال يشهد بخلاف ذلك، فهم أجبن

---

(١) سورة النساء.

الناس عند اللقاء، وأشد الناس جشعاً، وأكلاً لأموال الناس بالباطل؛ ومن ثم وصف القرآن الكريم هذه الصورة القاتمة؛ فتحدث عن جبنهم عند اللقاء بقوله:

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾[1].

ووصف جشعهم وحرصهم على الدنيا بقوله:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[2].

ومن هنا أمر الله نبيه ﷺ أن يبين لهم كذبهم وتناقض أحوالهم حين قال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾[3].

(ب) يمثل النفاق ظاهرة مَرَضية خالصة حيث يقوم أمره كله على التنافر بين الأقوال والعقائد وبين الأقوال[4] والأعمال؛ ومن ثم فإن آيات كثيرة فضحت هذه الظاهرة، بل إن هناك سورة تحمل اسمهم، وتذكر دائماً بهم وتفضح مخازيهم. ولا ريب أن تناقض القول مع المعتقد أشد بشاعة من مخالفة العمل للقول؛ لأن حسن الكلام والإقرار بالإسلام لا يفيدان شيئاً مع ذهاب الإيمان؛ ومن ثم جعل القرآن الكريم جزاء هذا اللون من التناقض الصارخ أشد العذاب حيث يقول:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[5].

وحاصر القرآن الكريم هذه الظاهرة محاصرة منقطعة النظير؛ حتى تتشكل لدى الأمة ثقافة واعية بهذا الصنف من البشر الذي تصطرع في نفسه وسلوكه

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٤.

(٢) سورة النساء: الآيتان ١٦٠، ١٦١.

(٣) سورة الجمعة.

(٤) هذا النوع يسمى النفاق العملي وهو موجود عند المنافقين وبعض المسلمين، والذي يميز المنافق عن المسلم هو النوع الأول.

(٥) سورة النساء.

سياسات الطموح والممكن، والمظهر والمخبر؛ هذا الصنف الذي يملأ الزمان والمكان!

ولعل في اهتمام القرآن الكريم بذكر أوصافهم والإعراض عن أسمائهم إشارة خفية إلى أن هذا النوع من البشر يتجدد وجوده، ويتسمى بأسماء مختلفة، فأراد من عدم ذكر الأسماء أن يلفت نظر الناس إلى الخصائص المميزة له مع غض الطرف عن أسمائهم ومحدداتهم.

(ج) حين بدرت بوادر من بعض المسلمين تنافي الانسجام المتوقع توفره في حياتهم لفت نظرهم القرآن الكريم إلى ذلك بعبارة قاسية؛ حتى لا يتكرر الخطأ، فقد ذكر المفسرون أن بعض المسلمين كانوا يقولون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا أموالنا وأنفسنا؛ فدلهم الله على الجهاد، فلما ابتلوا به يوم أحد فروا، فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾[1].

(د) ركزت تعاليم الإسلام على فضيلة الصدق الذي يعني: «مطابقة الكلام لاعتقاد متكلمه»[2]. وقد حثت آيات كريمة كثيرة وأحاديث نبوية مستفيضة على ضرورة اقتران الإيمان بالعمل الصالح؛ حتى يتحقق الانسجام المطلوب، كما وردت نصوص كثيرة تحذر من الكذب وارتكاب المعاصي، وهي على درجة من الشيوع والذيوع تجعل ذكرها من باب التعريف بالمعروف.

٤ ــ المسؤولية:

تمثل المسؤولية دعامة من دعامات الموضوعية، حيث يتحمل الإنسان مسؤولية ما قام به من عمل في حدود شروط موضوعية معينة؛ وله ثمرة جهده

---

(١) سورة المنافقون. وانظر: أسباب النزول للواحدي: ص ٤٥٤، وتفسير الطبري: ٢٨/ ٥٥.

(٢) هذا التعريف أولى من تعريفه بأنه: مطابقة الكلام للواقع.

الخاص، وهذه الثمار محفوظة له على المستوى الأخلاقي والتشريعي، وهذا وذاك لا يقتصران على الدنيا أو الآخرة؛ وإنما هو تقرير عام يلازم وجود الإنسان من لحظة التكليف إلى ما لا نهاية. إن الموضوعية تتبدى في تحديد المسؤولية بشكل جيد فيما لو تصورنا تحمل الإنسان لأخطاء الأجيال السابقة، أو جواز أن يقطف غيره ثمرة جهده وهكذا... ويمكن أن نبلور هذا الجانب من جوانب الموضوعية في النقاط التالية:

(أ) يولد المرء بريئاً من الإثم والخطيئة حتى لو كان وجوده ثمرة لقاء خاطىء بين رجل وامرأة. وليست هذه البراءة مقررة على المستوى الفردي، بل إن بني آدم جميعاً برآء مما فعله أبوهم آدم حين أكل من الشجرة؛ فالقرآن الكريم يقرر لنا أن ذلك الخطأ كان طارئاً:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾(1).

إنه نسيان وليس انحرافاً في الطبيعة. وقد محيت عنه تلك الخطيئة، كما محيت عن زوجه:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾(2).

ولم يقف الأمر عند التوبة، بل تجاوزها إلى الاجتباء والاصطفاء:

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾(3).

ومن هنا فإن الإنسان ليس بحاجة إلى فداء ولا إلى مخلِّص؛ فهو بريء الذمة إلى أن يشغلها بكسبه الذاتي!

(ب) كما يولد المرء بريئاً من تبعات أعمال آبائه وأجداده ــ وإن كان يمكن أن يلحقه بعض الضرر الدنيوي ــ فإنه لا يسوغ له أن يحمِّل تبعات أخطائه لآبائه وأجداده؛ فإن نعمة الهداية، ونعمة العقل تمكِّنان المرء من قرار الاختيار الصحيح.

---

(1) سورة طه.

(2) سورة البقرة.

(3) سورة طه.

فمهما كانت المثيرات الخارجية قوية عنيفة فإن شيئاً ما لا يقع قبل اتخاذ قرار منا نحن بالقيام بعمل في اتجاه معين؛ ويوم القيامة يقف إبليس خطيباً؛ ليعلن في ضحاياه هذه الحقيقة:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[1].

ويؤكد القرآن الكريم في موضع آخر أن سبب ضلالهم لم يكن القهر، وإنما التقليد الأعمى للآباء والأجداد:

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)﴾[2].

ويؤكد في موضع ثالث تحديد المسؤولية الشخصية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾[3].

وفي الحديث الشريف: «لا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه»[4]. وفيه أيضاً: «لا يجني والد على ولده، ولا مولود على والده»[5]. ولا يقتصر الأمر على انعدام تحمل المسؤولية بين الأبناء والآباء، بل إن هذا مبدأ عام لا يستثنى منه أحد؛ فكل أمة تمضي بأعمالها:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾[6].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٢) سورة الصافات.

(٣) سورة لقمان: الآية ٣٣.

(٤) سنن النسائي: ٧/١٢٧.

(٥) سنن ابن ماجه: ٢/٨٩٠.

(٦) سورة البقرة.

والأصل في المسؤولية أن تكون فردية:

﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

لكن هذه المسؤولية تمتد في بعض الأحيان؛ لتختلط بالمسؤولية الاجتماعية، وإن كان لكل منهما شروطها وحدودها الموضوعية، كما قال ـ سبحانه ـ:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[2].

(ج) لا معنى للمسؤولية دون ربطها بالجزاء، لأن هذا ينبه المسلم إذا ما لقي أزمة أو انتكاسة ما في الدنيا إلى مراجعة الأسباب التي سببتها، فربما كانت معصية وقع فيها، أو غفلة أو تقصيراً فرط منه. وحين يفعل المسلم ذلك فإنه يكون موضوعياً في فهم واقعه ومشكلاته؛ وذلك خير من إلقاء أسباب واقعة على القدر، أو على الأعداء أو سوء الحظ... وفي هذا المعنى يقول ـ سبحانه ـ:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾[3].

وحين أصاب المسلمين ما أصابهم يوم أحد استغربوا كيف يهزمون وهم جند الله وعبيده، فأنزل الله ـ تعالى ـ قوله:

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الطور.

(٢) سورة المائدة.

(٣) سورة النساء.

(٤) سورة آل عمران.

ولمّا كانت النفس البشرية ميالة إلى إلقاء عيوبها وأخطائها على غيرها، وكان دأب الإنسان دوماً البحث عن ضحية يُسقط عليها أنواع قصوره جاء الوعد الشديد لمن يفعل ذلك؛ كما قال ـ سبحانه ـ :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾[1].

وقـال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾[2].

وهكذا يهيِّـىء الإسلام للفرد والمجتمع أن يدرك مسؤولياته، ويعي نتائجها، ويكون مستعداً لقبول تلك النتائج، ثم التحليل الدقيق لأسبابها؛ وهذا كله ترشيد للفكر؛ حتى لا يدخل في متاهات العطالة والعقم، أي: حتى لا يخرج عن دائرة الموضوعية.

٥ ــ مراعاة التكاليف الشرعية للطاقات البشرية:

لم يكتفِ الإسلام بمطالبة الناس أن يكونوا موضوعيين؛ لكنه علمهم في أخص ما جاء به كيف تكون الموضوعية حيث راعت أحكام الشريعة الغراء الطبيعة البشرية، وما مُتع به الإنسان من طاقات وإمكانات؛ فكأنها ألقت بذلك بالمسلم مكتوفاً في أجواء الموضوعية؛ فشكلت لديه الحس الموضوعي والمزاج المعتدل المتوسط البعيد عن الغلو والتقصير. ويمكن أن نشخص ذلك في المفردتين التاليتين:

(أ) ليس في الإسلام ما يصعب اعتقاده أو القيام به؛ وتكاليف الإسلام ـ بصورة عامة ـ لا تخرج عن دائرة استطاعة الإنسان؛ كما قال ـ سبحانه ـ :

---

(١) سورة النساء.

(٢) سورة الأحزاب.

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[١].

وتقديراً للظروف المختلفة التي يمر بها بنو الإنسان كان في الشريعة الغراء مبدأ من أعظم مبادئها، هو مبدأ (رفع الحرج) حيث قال ـ جل ذكره:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٢].

ومظاهر رفع الحرج في الشريعة أكثر من أن تحدد في نماذج حيث إن المبدأ قابل للتوظيف في أشكال وإجراءات غير متناهية بحسب ظروف المسلم، ومن أمثلة رفع الحرج المشهورة: قصر الصلاة وجمعها في السفر، وجواز التيمم في ظروف معينة، وجواز الإفطار في رمضان للمريض والمسافر، ومنع الحائض والنفساء من الصيام والصلاة، ورفع القلم عن المجنون والنائم والطفل، والعذر بالجهل ـ في مواضع كثيرة ـ ، والإباحة للمظلوم أن يدعو على ظالمه، ويذكره بما فيه من السوء؛ لأنه لا بد للمصدور أن ينفث، كما قال سبحانه:

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾[٣].

ومن ذلك عدم المؤاخذة بما لا يستطيعه الإنسان من العدل بين نسائه في المحبة والأنس والاستمتاع، كما قال ـ سبحانه ـ :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾[٤].

وفوق كل ذلك هناك مساحات العفو، أو ما يسمى بـ (الفراغ القانوني) حيث إن ما كان يتغير باختلاف الزمان والمكان جاء مجملاً؛ حتى يتاح للمجتهد مجال يتحرك فيه، كالصور التشخيصية للعدل والشورى وأنظمة الحكم والإدارة. . .

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٣) سورة النساء: الآية ١٤٨.

(٤) سورة النساء: الآية ١٢٩.

وما كان لا يتأثر بحركة الزمان واختلاف المكان جاء مفصلاً، وذلك كالعقائد والعبادات الشعائرية.

وبعد كل ما مضى من أحكام التيسير والتخفيف فإن الله عز وجل ترك باب التوبة مفتوحاً إلى اللحظات الأخيرة في حياة الإنسان؛ فمهما فعل الإنسان من المناكر وجد نفسه قريباً من الله إذا ما تاب وأناب!!

(ب) عدَّت الشريعة الغراء الغلو في الدين والإفراط في التنسك تشويهاً لجمال الدين وإخلالاً بتوازنه وإعناتاً للخلق، وذاك لا يختلف كثيراً عن التفلت من الدين وأحكامه السمحة؛ حيث إن المتقدم على الصف كالمتأخر عنه كل منهما يؤدي إلى اعوجاجه، ولذا كان تحريم الحلال كتحليل الحرام. والعلة في ذلك أن في الغلو تحريفاً لمفهوم الدين يخرجه عن أن يكون مستطاعاً لعامة الناس إلى أن يكون في دائرة استطاعة بعضهم، وهذا قد يعني نوعاً من الصدِّ عنه! وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب لما أحدثوه من عدم التزوج واتخاذ الصوامع والانقطاع عن الأخذ بالأسباب، فقال:

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾(١).

وقد وجه الله تعالى المؤمنين إلى عدم الإكثار من سؤال النبي ﷺ؛ حتى لا يسألوه عن تكاليف تشق عليهم؛ فيندموا على السؤال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾(٢).

وورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه قالوا: وكيف يذل المؤمن نفسه؟! قال: يتعرض من البلاء ما لا يطيق»(٣).

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٧.

(٢) سورة المائدة.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٢/ ١٣٩.

وسلوك النبي ﷺ الشخصي، وموقفه من إيغال بعض أصحابه في التنسك والعبادة أدَّيا إلى تكوين مُناخ عام يؤثر في إيجاد علاقة متّزنة بين مطالب الدين والدنيا، والروح والجسد؛ فعن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات، فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً»[1].

ودخل رسول الله ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل زينب، فإذا فترت تعلقت به. فقال النبي ﷺ: لا. حلوه، ليصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد»[2].

وقد تجاوز الأمر ذلك إلى أن النبي ﷺ كان يترخص في بعض شؤونه حتى يدفع الغلو عن حسِّ المسلم أينما كان؛ فقد روي أنه قبَّل إحدى نسائه وهو صائم، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنهم كرهوا ذلك، وتنزهوا عنه؛ فبلغه ذلك فقام خطيباً، فقال: ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه، فكرهوه، وتنزهوا عنه؟! فوالله لأنا أعلم بالله، وأشدهم له خشية[3].

إن هذه النصوص ـ وهي غيض من فيض ـ تدلنا على مدى توكيد الشارع على إبقاء تكاليف الإسلام في نطاق طاقات البشر أينما كانوا بغية تكوين المناخ الموضوعي الذي يكوِّن المزاج العام للمسلمين.

٦ ـ البعد عن الذاتية:

الخلط بين الذات والموضوع، بين الأشخاص والمناهج قضية قديمة جديدة، عانت منها البشرية، وما زالت تعاني، وحين جاء الإسلام كانت الحقيقة في الجزيرة العربية موزعة على أرصدة الزعماء والأثرياء والأوثان والأشباح... وأما المنهج الذي يمكن أن يشكل محكاً مرجعياً يفصل بين الذات والموضوع فقد كان عبارة عن أعراف قبلية غير مكتوبة، ولا هي عامة، ولا واضحة؛ ومن هنا فإن المعركة

---

(١) صحيح مسلم: ٢/٥٩١.

(٢) أخرجه البخاري. انظر: صحيح البخاري: ٢/١٢٣.

(٣) انظر: صحيح مسلم: ٤/١٨٢٩.

التي خاضها الإسلام من أجل سيادة المنهج والحقائق البينة على الأشخاص كانت على درجة عظيمة من السعة والتوتر. وبما أن النبي ﷺ يتمتع بدرجة عالية من السمو والاستقامة والتضحية فإن إمكانات الخلط بين ذاته، والمنهج الذي جاء به كانت واردة؛ ولذا كانت هناك حياطة عظيمة في ذلك؛ وهذا مع العلم بأن النبي معصوم عن فعل المحرمات؛ فهو مندمج في المنهج وممثل له، ومرجع لتفسيره؛ لكن الحذر كان من الأجيال القادمة...

ويمكننا أن نجلو هنا النقاط التالية:

(أ) كانت الخطوة الأولى في البعد عن الذاتية هي وضوح المنهج على مستوى القيم والمبادىء والأنظمة والإجراءات (فيما لا يخضع لاختلاف الزمان والمكان)؛ وذلك لأنه لا بد من معايير يتعامل على أساسها الناس، وحين يخفت صوت المنهج، أو تشوه صورته فإن البديل جاهز، وهو (المقاييس الذاتية) المبنية على عبادة الناس لأنفسهم، أو لبعضهم بعضاً..

وكان أكثر ما يحتاج إلى تحديد هو (القيم المعيارية) التي تمثل المركز، وترسي قواعد التفاضل بين الناس. وليس ذلك فحسب، وإنما ترتيب القيم نفسها في نسق الكمال؛ حيث كان كل أولئك ضائع المعالم في الجاهلية. وفي هذا الصدد يقول ـ سبحانه ـ:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾[١].

فقد ذكر بعض المفسرين أن العباس ـ رضي الله عنه ـ قال حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني؛ فنزلت الآية الكريمة[٢].

إن أعلى القيم وأساسها هو الإيمان، فإذا ما فقد عند شخص لم يعد هناك

---

(١) سورة التوبة.

(٢) فتح القدير: ٢/٣٤٦.

مجالات للمفاضلة بينه وبين غيره ممن آمن. أما المعيار الذي يتفاضل على أساسه المسلمون فهو التقوى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

وفي الحديث: «أنتم ولد آدم طفَّ الصاع لم تملؤوه، ليس لأحد على أحد فضل إلَّا بدين أو عمل صالح، حسب الرجل أن يكون فاحشاً بذياً بخيلاً جباناً»[2].

أما ما يحوزه الناس من الجاه والشرف والنفوذ والمال... فلا وزن له في الآخرة إلَّا إذا استخدم في عمل صالح. وبهذا تخلخل السلم الاجتماعي الذي وضعه العرب في الجاهلية على أساس من الأنساب والمظاهر الكاذبة الجوفاء، وبدأ عهد حضاري جديد ذو معايير عالمية خالدة!

(ب) لما كان الإسلام يهدف إلى سيادة الحقيقة، وإعلاء المنهج بعيداً عن كل ما يحدُّ من عالميته من الاعتبارات الشخصية بذل النبي ﷺ جهوداً مكثفة؛ حتى يستقر في حسِّ المسلم وفهمه أن المنهج فوق كل اعتبار آخر، وأن النبي ﷺ نفسه ليس مستثنى من ذلك؛ كما رسم الحدود الدقيقة الفاصلة بين ما ينسجم من ماضي العرب مع الرسالة الجديدة، وما يتنافر معها، وكان ذلك في الحقيقة تعميقاً لعموم الرسالة وعالميتها.

فعلى الصعيد الأول نجد أن النبي ﷺ رسخ في أذهان الناس أنه من عبيد الله ـ تعالى ـ، كلفه الله بحمل الرسالة الخاتمة للعالمين، ونجد في هذا فيضاً من النصوص والمواقف التي تشرح هذه الحقيقة؛ فمن ذلك قول الله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٢) مشكل الآثار: ٤/٣٦٥.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

فالارتباط الأساسي بالله عز وجل والوحي الذي أنزله. ومن هنا فإن من لم يفقه هذا ارتد عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ؛ أما سيد الراشدين أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقد قال: «أيها الناس من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات».

وقال سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾(١).

وقد عاتب القرآن الكريم النبي على بعض اجتهاداته، كانصرافه عن ابن أم مكتوم وقبوله فداء الأسرى يوم بدر إمعاناً في تقرير هذه الحقيقة. ومما ورد في هذا السياق قوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى»(٢). وجاء رجل إلى النبي، فقال: «يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا! فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله عبدُ الله ورسوله؛ والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»(٣). وقال ﷺ: «إنما أنا بشر فما حدثتكم من الله فهو حق، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أصيب وأخطىء»(٤).

وقد آتت هذه التوجيهات الكريمة أكلها، فلم توجد ـ كما أعلم ـ فرقة من الفرق الإسلامية التي جاءت بعد وفاة النبي ﷺ تدعو إلى عبادته وتقديسه تقديساً يخرجه عن أطوار العبودية لله، مع أنَّ التاريخ يعجُّ بعبادة الأشخاص من دون الله!!.

أما على الصعيد الثاني فقد أثنى النبي ﷺ على بعض القيم التي كانت في الجاهلية ما دامت تنسجم مع دعوته؛ وذلك إحقاقاً للحق قبل كل شيء، وإن كان على ذلك الحق أعداؤه الألداء، ومن أجل أن تمثل تلك القيم رأس الجسر الذي سيعبر عليه إلى تغيير ما كان عند الجاهليين من مناكر. ونجد في هذا الجانب كثيراً

(١) سورة البقرة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٤/٣٢٣.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٣/٨٨.

(٤) أخرجه البزار في مسنده: ص ٢٧.

من النصوص التي ترسخ هذه المفهومات، نذكر قبساً منها على سبيل التمثيل؛ فمن ذلك أن النبي ﷺ حضر حلفاً في الجاهلية حضرته قبائل من قريش، وجرى فيه التعاهد على ألا يجدوا في مكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلَّا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُرد عليه مظلمته. وقد قال النبي ﷺ بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب لي به حمر النَعَم، ولو أُدعى إلى مثله في الإسلام لأجبت»(١).

وجاء المسلمون بسفّانة بنت حاتم الطائي في السبي، والتقت بالنبي ﷺ وذكرت له من أخلاق أبيها ونبله، فقال لها: يا جارية هذه صفة المؤمنيَن حقاً؛ لو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه!. خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله ــ تعالى ــ يحب مكارم الأخلاق(٢).

فالكرم قيمة أعلى الإسلام منها، وجعلها أحد معايير القرب من الله تعالى؛ ولذا أوصى بإكرام سفانة؛ لكننا نجد في النص نفسه امتناعه من الترحم على حاتم لأن ذلك لا يكون إلَّا على المسلم! إنها الدقة المتناهية في الفصل بين ما أضفى عليه الإسلام صفة الشرعية، وبين ما أنكره.

وكانت العصبية القبلية من أكبر المشكلات التي واجهتها الدعوة الإسلامية؛ إذ كانت فلسفة (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) هي القانون الأعلى الذي يحكم الحياة القبلية؛ لكن النبي ﷺ جعل نصرته، وهو ظالم منعه من الظلم؛ مما كسر من شوكة تلك القاعدة. والعصبية للقبيلة جزء من العصبية للنفس؛ لأن الذي يمدح قبيلته إنما يمدح في الحقيقة نفسه؛ ومن ثم اشتدت تعبيرات الكراهية لهذا اللون من الخروج عن الموضوعية؛ فمنها قوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ: «من تعزى بعزى الجاهلية فأعضوه بهن أبيه، ولا تكنوا»(٣).

وقال: «من قاتل تحت راية عِمِّيَّة يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبية،

(١) سيرة ابن هشام: ١/١٤١.
(٢) البداية والنهاية: ٢/١٩٨.
(٣) مسند أحمد: ٥/١٣٦.

أو ينصر عصبة، فقُتل فقتلته جاهلية»[1].

وتوكيداً لرابطة الحق الجديدة قام النبي ﷺ على الصفا، ونادى يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار؛ فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلاّ أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»[2].

وأنزل الله ـ تعالى ـ في أحد أعمام النبي سورة توبيخ وإنذار تتلى إلى يوم القيامة:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾.

وذلك ليعلم الناس قاطبة أن المنهج فوق الأشخاص، وأنه بعيد عن كل الشوائب التي تنافي طبيعته الخاصة.

ومن هنا نعلم الانتكاسات الخطيرة لهذا المنهج على يد بعض الفرق التي وضعت النصوص، وقبلت الواهي، وأولت التأويلات البعيدة من أجل رفع بعض الأشخاص إلى مصاف الأنبياء، في المقام والتشريع؛ لكن لا بد للرشد والتنور أن يكشف الزيف يوماً!

٧ ـ احترام الاختصاص:

إن من الموضوعية بمكان أن يعرف الفضل لأهله، وأن يعترف بالتقدم لكل من تبحر في معرفة حقيقة من الحقائق سواء أكانت شرعية أم كونية أم تاريخية. ومن المعلوم أنه لولا تقسيم العمل، لما أمكن أن نرى التقدم العلمي الذي أنجزته البشرية اليوم على هذه الصورة؛ فلا خيار أمام من يريد التقدم الرأسي في علم من العلوم سوى أن يخصص أكثر جهده ووقته له. والمكافأة المعنوية التي تنتظر ذلك

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٢/٥٨٥.

(٢) الرحيق المختوم: ص ٩١.

المتخصص هي تلقي أقواله واجتهاداته في تخصصه بالكثير من الإصغاء والتقدير والقبول. والإسلام حين يوجهنا إلى التسليم لأهل الاختصاص فيما يجمعون عليه، إنما يغرس فينا مكرمة الإذعان للحقيقة، ولمن نظن أنه أكثر إدراكاً لها منا، وهذا من الموضوعية التي تعبدنا الله ـ تعالى ـ بها. ويمكن أن نلاحظ في هذه القضية ما يلي:

(أ) الحث على استقاء المعلومات من مصادرها الموثوقة، وتحكيم أهل الاختصاص عند التنازع، أو انبهام الأمور؛ فحين أنكر مشركو قريش بشرية محمد ﷺ، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلا بعث إلينا ملكاً أنزل الله ـ تعالى ـ قوله:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾[1].

أرشدهم إلى سؤال العلماء بالتوراة والإنجيل عن بشرية الأنبياء؛ ليعلموا أن ذلك سنة في الرسل، وأن ذلك لا ينافي جلال الله وعظمته[2].

وحث الله المؤمنين على الاحتكام إلى الكتاب والسنة عند الخلاف والتنازع؛ لأنهما يمثلان المرجع المختص في تفسير كل ما يحكم حياة المسلمين من مبادىء، ونظم، فقال:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾[3].

ونوّه الله ـ تعالى ـ بقدر العلماء في غير موضع من كتابه؛ لأن ذلك جزء من عاجل مثوبتهم، وحتى يلتصق الناس بهم، ويأخذوا عنهم؛ لأن ذلك التصاق بالحقيقة نفسها، فقال سبحانه:

---

(١) سورة النحل.

(٢) انظر تفسير القرطبي: ١٠/١٠٨.

(٣) سورة النساء.

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾[1].

(ب) إذا كان التسليم لأهل الاختصاص من الموضوعية، فإن من الموضوعية أيضاً أن يفتي العالم في حدود علمه، وألا يدعي علم ما لم يعلم؛ لأن في ذلك تضليلاً للناس، وصرفاً عن الحقيقة التي ينبغي أن يعلموها؛ وفي هذا يوجه القرآن الكريم النبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ إلى الكشف عن دوائر معرفته؛ حتى يعلّم الناس مجالات معرفتهم، فلا يتجاوزها حيث يقول:

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[2].

وقال ــ سبحانه ــ :

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾[3].

إن مشكلة ادعاء المعرفة من أكبر المشكلات التي يواجهها الناس، وهو شيء غير الاجتهاد في المنطلق والنتائج؛ فالمجتهد عن أهلية يتردد بين الأجر والأجرين، والمدعي مسؤول عن نتائج ادعائه؛ وفي الحديث: «أيما طبيب تطبب على قوم لا يُعرف له تطبب قبل ذلك، فأعنت فهو ضامن»[4].

وليس لذلك من حل إلّا ارتقاء الوعي العام الذي يحاصر المدعين في أضيق الزوايا، ويلجئهم إلى أضيق الطرق!.

٨ ــ الدقة:

تعد الدقة مظهراً مهماً من مظاهر الموضوعية؛ حيث إنها تمثل خلاصة الوعي

---

(١) سورة الزمر.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٠.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٨٨.

(٤) سنن أبي داوود: ٤/١٩٥.

الموضوعي بقضية ما؛ والإنسان كلما ترقى في سلم الحضارة صار أكثر دقة، والعلم نفسه يزداد اعتماده على اللغة الكمية يوماً بعد يوم، بل إن علاج المشكلات الاجتماعية يحتاج في كثير من الأحيان إلى معلومات إحصائية تكشف عن حجم المشكلة، وما سبق من محاولات لحلها.

إن تصور أية قضية لا يتم إلاَّ وفق توصيف دقيق لها، وإذا تصورناها على ما هي عليه كنا موضوعيين، وأمكننا أن ننتقل على هدى إلى اتخاذ الموقف الموضوعي منها. ومن هنا غرست تعاليم الإسلام كلها في نفس المسلم كل ما يجعله دقيقاً في كل حركة في حياته إذا ما هو نفذ إلى ما وراء الظاهر؛ فالعبادات التي هي في الأصل تعبير عن الخضوع للخالق ـ جل وعلا ـ أحيطت بإجراءات صارمة في كثير من الأحيان؛ حتى تمسي الدقة جِبِلَّة في المسلم لا ينفك عنها!.

فالصلاة موقوتة بأوقات محددة، ومثلها الزكاة، فهي ذات أنصبة محددة، وهي أيضاً ـ في أكثر الأمر ـ محدودة بحولان الحول، والصيام كذلك، ولو أن مسلماً صام عشرين ساعة، ثم أفطر قبل الغروب بدقائق لما صح صيامه، وهكذا... ولا ريب أن الدقة في العبادة ـ والتي عمادها الروح ـ إنما كانت لتعليم المسلم الدقة؛ ولغرس الحسِّ الجماعي لدى المسلمين، أما في شؤون الحياة العامة فإن الدقة ضرورية جداً لقطع دابر المنازعات بين الناس وضرورية لفقه الخطوة المناسبة إقداماً وإحجاماً. وفي هذا الصدد نجد أن أطول آية في كتاب الله هي آية (المداينة) تلك التي تعلمنا ضبط ضرورة من ضرورات الحياة، وهي (الدَّين)، وفي هذا يقول ـ سبحانه ـ:

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾(١).

فلا ينبغي للمسلم أن يسأم من كتابة الدين سواء أكان صغيراً أم كبيراً إلى وقت حلول وقت وفائه؛ وذلك للتقليل من الاعتماد على الذاكرة، ولقطع الطريق على جحود الجاحدين، احتياطاً لما قد يعرض للمستدين من الموت؛ فلا يموت الحق معه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

ويرشدنا القرآن الكريم مرة أخرى إلى تحري الدقة في المعاملات المالية حين يقول في إجراء تسليم اليتامى أموالهم بعد أنس الرشد منهم:

﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾(١).

ويعدُّ الإحصاء اليوم الخطوة الأولى على طريق الحلول الناجعة، ومقياساً دقيقاً لحضارة الأمة، ومظهراً من مظاهر الدقة والموضوعية، وهنا نجد أن النبي ﷺ اعتمد الإحصاء منذ الأيام الأولى لدعوته، فقد ورد في الحديث أنه قال: «أحصوا لي كل من تلفظ بالإسلام. فقال بعض الصحابة: يا رسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟!. فقال: إنكم تدرون لعلكم تبتلون! قال الراوي فابتلينا حتى جعل الرجل منا ما يصلي إلَّا سراً»(٢).

إن أشياء كثيرة تعتمد على معرفة عدد الصحابة من الحرب والسلم، وقد تكون مقياساً لنجاحات الدعوة المحمدية في مرحلة من المراحل.

٩ ـ الإنصاف:

يمثل الإنصاف معلماً بارزاً من معالم الموضوعية؛ حيث إنه يعني نوعاً من الانسجام مع طبائع البشر وأحوالهم، وهي أحوال مركبة من الهداية والعماية، والخير والشر، والحق والباطل، والصحة والمرض، وإن بين الخير المحض ـ على المستوى النظري ـ وبين الشرِّ المحض أوساطاً ذات تغيرات متصلة، ويصعب إصدار أحكام صارمة عليها، إنها أشبه ما تكون بألوان متداخلة في لوحة زيتية، لا تدري على وجه التحديد متى ينتهي أحدها ليبدأ الآخر. والإنصاف سوف يعني إدراك ما بين الألوان المتضادة من ألوان، وهي كثيرة جداً. ذلك؛ لأن أحوال البشر وأفكارهم وأمزجتهم على درجة عالية جداً من التعقيد والتنوع؛ وإن المنصف هو الذي يدرك هذه الحقيقة إدراكاً مناسباً، ثم يملك القدرة على التعامل معها كما ينبغي. ولعلنا نلمس سمات الإنصاف في المفردات التالية:

---

(١) سورة النساء: الآية ٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/١٣١، ١٣٢.

(أ) إذا كان وضع البشر على ما وصفنا فإن الإسلام يعلمنا أن من الخطأ البين إصدار حكم واحد على قبيلة أو أهل ملة أو بلدة؛ لأن ذلك التعميم سوف ينطوي على ظلم واضح؛ فلا يمكن أن تكون العدوانية أو الخيانة أو البخل صفة ملازمة لقبيل كبير من البشر؛ وفي هذا الصدد يقول ـ تعالى ـ :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾[1].

ويقول ـ سبحانه ـ :

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾[2].

إن في أهل الكتاب الأمناء، وأهل الخيانة، ومنهم التقي بحسب تعاليم دياناتهم، ومنهم الخارج عن كل الرسالات. وهذه النظرة تبقي هامشاً بين أهل الملل المختلفة للحوار، وتتيح للمسلم نظرة تفصيلية تنجيه من براثن التعميم.

ويعلمنا القرآن الكريم رفض التعميم مرة أخرى حين يضرب الأمثال لأهل الهداية والغواية؛ إذ إن من المعلوم أن أول من يتأثر بدعوات الأنبياء هم أهلوهم الأقربون، ومن المعلوم كذلك أن الذين يدرجون في بيوت الكفر والطغيان يكونون بعيدين عن الهداية؛ لكن هذا لا يمثل قاعدة مطردة يطمأن إليها فهناك مثل يخرم هذه القاعدة للكفار ومثل آخر للمؤمنين ضربهما الله تعالى لنا إذ يقول:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ . . . ﴾[3] الآيتين.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧٥.

(٢) سورة آل عمران: وانظر: ١١٤، ١١٥.

(٣) سورة التحريم: الآيات ١٠ ـ ١٢.

ويقول الرسول ﷺ: «إن أعظم الناس جرماً إنسان يهجو القبيلة من أسرها، ورجل تنفّى من أبيه»[1].

وما أكثر ما هُجيت قبائل تملأ السهل والجبل، ونُعتت بصفات تقضي العادة بعدم توفرها في القبيلة الصغيرة فضلاً عن الكبيرة!!.

(ب) الاعتراف للآخرين بما يملكون من خصائص تميزهم عن غيرهم، وهذا الاعتراف لا يولد إلاّ من رؤية شاملة للحياة، ذلك؛ لأن النقد ليس بيان المثالب والعيوب، لكنه أيضاً الكشف عن مساحات الخير والجمال. وهذا ليس بالأمر السهل؛ إذ إنه يقتضي معرفة الحالة العامة ومركز الآخرين فيها؛ فالتميز أمر نسبي ومعتبر بظروف وأحوال معينة؛ فما قد يكون سيئاً في ظرف قد يكون مقبولاً في ظرف آخر، بل قد يكون الخيار الوحيد! وفي هذا الصدد نجد في الحديث الشريف: «إنما بعثت لأتمم حُسْن الأخلاق»[2] إنصافاً متفرداً لواقع العرب قبل الإسلام؛ فهو لن ينسخ كل ما هو قائم، ولن يبدأ من الصفر، لكنه سوف يتم بناء الأخلاق الكريمة ذات الجذور والبنيات في المجتمع العربي. وحين نقارن هذا بما يدعيه كثير من الحركات الإصلاحية التي تقوم هنا وهناك يظهر الفرق الجلي حيث نجد تلك الحركات تدعي مبررة وجودها بأن الواقع الذي ولدت فيه كان خراباً يباباً وهي شمسه وقمره وعافيته!!.

والعجيب أن الحديث يوحي إلينا أن دور الرسالة المحمدية كان الإتمام والتكميل مع أن الذي قامت به على صعيد القيم كان إلى جانب نسخ كثير من الأخلاق تبديل الإطار المرجعي لتلك المكارم، فقد صار الوحي هو المستند الفلسفي لها، وكان من قبل حب الثناء والخوف من الهجاء والخضوع لعادات القبيلة؛ ولم يكن ذلك بالأمر اليسير؛ إذ إن جعل الأخلاق جزءاً من عقيدة الإنسان يعني إعطاءها قوة الاستمرار، وقوة النفاذ ونبل المقصد، والاستغناء عن حراسة المجتمع... لكن هكذا النبوة دائماً حقائقها أكبر من شعاراتها!.

---

(١) معنى الحديث في سنن ابن ماجه: ٢/١٢٣٧.
(٢) الموطأ: ٢/٩٠٤.

ويعلمنا الإسلام الإنصاف مرة أخرى حين بين الكثير من حيثيات التفاضل بين الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ ؛ حتى ينال كلٌّ عاجل مثوبته بالتنويه بما تحلى به ؛ وهذا هو القرآن الكريم يقول:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾(١).

ويزيد النبي ﷺ هذه القضية وضوحاً حين يبرز خصائص بعض أصحابه، وما يتفردون به من محامد إذ يقول: «إن أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته؛ لا يبقين في المسجد باب إلَّا سُدَّ إلَّا باب أبي بكر»(٢).

وقال في صلابة عمر وشدته في الحق: «يا ابن الخطاب ــ والذي نفسي بيده ــ ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلَّا سلك فجاً غير فجك»(٣). وقال في علي: «من كنت مولاه فعلي مولاه»(٤). وحين رأى شدة رمي سعد يوم أحد واستبساله أثنى عليه بعبارة فذة إذ قال: «إرم سعد فداك أبي وأمي»(٥). ونحو هذا كثير.

وبيان مناقب الناس يعود إلى الإنصاف أولاً، وإلى ترسيخ تلك القيم عند أصحابها حين يعرفون أن الناس لمحوها فيهم، وقدروها؛ وهو بعد هذا وذاك اطلاع للأمة على ما عندها من رجال إذا ما أرادت تقليد المسؤوليات!.

(ج) ينقل الإسلام الناس نقلة واسعة؛ ليضعهم في قمة الإنصاف لبعضهم بعضاً حين يرشد المسلم إلى أن ينظر إلى الناس بالمنظار عينه الذي يحب أن ينظروا إليه به؛ لأن المشاعر الإنسانية واحدة، وحاجات البشر النفسية والاجتماعية

---

(١) سورة الحديد: الآية ١٠.

(٢) رواه البخاري. انظر فتح الباري: ٧/١٢.

(٣) السابق: ٧/٤١.

(٤) السابق: ٧/٧٤.

(٥) السابق: ٧/٨٤.

واحدة، أو تكاد؛ ومن ثم فإن الإنصاف أن نسلك المسالك التي تؤمن تلك الحاجات للجميع. فالناس لا يحبون من يتكبر عليهم، ولا الذي يهضم حقوقهم، ولا الذي يستأثر بالمنافع العامة دونهم؛ وحين ندرك هذه الحقائق وغيرها مما هو على شاكلتها نستطيع أن نتبادل علاقات إيجابية بناءة تؤدي إلى ترابط المجتمع وتعاونه، وتخفف من المشكلات الناجمة عن المعاشرة والاحتكاك.

وفي هذا يقول النبي ﷺ: «. . . فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة فلتأته منيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»(١).

ويتجاوز الإسلام ذلك إلى دائرة الإحسان والمروءة والشهامة حين يقول النبي ﷺ: «إذا جاء خادم أحدكم بطعامه فليقعده معه، أو ليناوله منه فإنه هو الذي ولي حرَّه ودخانه»(٢).

إن هذا التوجيه يلمس أعمق المشاعر الإنسانية وأرقها؛ فلا يسوغ ـ مهما كانت الفوارق الاجتماعية ـ أن يأكل بعض الناس الطعام، ويعاني آخرون من مؤنة طبخه وتحضيره!! فهل بعد هذا من نبل ترنو إليه الأبصار؟!

١٠ ـ التعامل مع الحقيقة:

يمثل التعامل مع الحقائق جزءاً هاماً من الموضوعية، بل إنه يمثل الجزء الأهم، لأن إدراك الحقائق على ما هي عليه قد يكون ميسوراً في كثير من الأحيان؛ لكن التعامل مع الحقائق بموضوعية لا يكون إلَّا معقداً، حيث إنه يحتاج إلى علم وخبرة، ويحتاج إلى مرونة وتجرد عن الهوى، ويتطلب في بعض الأحيان تجاوز القشور والغوص نحو الجوهر، كما يتطلب ترتيباً للأولويات وفقهاً للموازنات؛ وكل ذلك ضروري لنا حتى نكون موضوعيين، وحتى نوجد لأنفسنا مجالات للحركة مهما كانت الظروف قاسية وقاهرة. وإليك ما يوضح هذه المفردات:

---

(١) صحيح مسلم: ٣/١٤٧٣.

(٢) مسند أحمد: ١/٣٨٨، ٤٤٦.

(أ) يوجهنا الإسلام إلى عدم الوقوف عند الصور والأسماء والأوصاف غير المؤثرة في النتائج؛ وذلك لأن عدم تجاوز ذلك سيعني خروجاً عن الموضوعية المطلوبة، كما سيعني السطحية والشكلية المضللة؛ فلون قميص الطالب، أو اتجاهه نحو جهة معينة أثناء أداء الامتحان أو انتسابه إلى حي معين كل أولئك لا يؤثر في الدرجة التي حازها في الامتحان؛ ومن هنا وجب أن تُحيَّد عند الحديث عن الأسباب المؤثرة في نجاح الطالب أو رسوبه. وهذه بدهية لدى العقلاء إلَّا أننا عند التطبيقات الدقيقة قد تزيغ أبصارنا. ولذا فإن الإسلام وضع لنا المقدمات النظرية العاصمة من ذلك؛ وفي هذا يقول الله ــ سبحانه ــ في المنافقين:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[1].

قد كان كثير من المنافقين من ذوي الهيئات فإذا ما رآهم الناظر أعجب بحسنهم ونضارتهم، وكان رئيسهم ابن سلول جسيماً فصيحاً ذلق اللسان؛ فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله، وكذلك كان أصحابه إذا حضروا مجلس النبي أعجب الناس بهياكلهم[2]. لكن قضية الإسلام ليست منوطة بذلاقة لسان، ولا جمال مظهر؛ ومن ثم فإن على السامع أن يتريَّث قبل أن يؤخذ ببريق الألفاظ؛ ومن هنا جاء الحديث الشريف: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[3].

إن جوهر المسلم كامن في قلبه وسلوكه وما عدا ذلك فلا كسب للمرء فيه، ومن ثم فلا وزن له عند الله عز وجل. وورد في الحديث: «ليستحلن طائفة من أمتي الخمر باسم يسمونها إياه»[4].

إن تسمية الخمر بالشراب، أو الأشربة الروحية، أو المكيفات كل أولئك

(١) سورة المنافقون: الآية ٤.

(٢) صفوة التفاسير: ٣/ ٣٨٥.

(٣) رواه مسلم. انظر: صحيحه: ٤/ ١٩٨٧.

(٤) رواه ابن ماجه برقم ٣٣٨٥، والنسائي: ٢/ ٣٣٠.

لا يغير من واقع الأمر شيئاً ما دام التحريم ليس من أجل الاسم! إن النفاذ إلى الجوهر نوع من احترام الحقيقة، ونوع من الالتصاق بها. وجاء في الحديث الصحيح: «يسب بنو آدم الدهر؛ وأنا الدهر بيدي الليل والنهار»[1].

إن سب الدهر لا معنى له؛ لأنه عبارة عن ظرف زمني، ونسبة شيء من الأفعال إلى الزمان كفر؛ إن الله خالق الزمان والمكان، وإن على المؤمن ألّا يلقي باللوم على الأيام والليالي؛ لكن بدلاً من ذلك يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، فإذا فعل ذلك يكون قد وضع الأمور في نصابها.

وبسبب الغفلة عن هذه الحقيقة سفهت في أيامنا هذه جماعات وحركات ومذاهب، وعُدَّ كل ما عندها باطلاً انطلاقاً من اسمها، أو مؤاخذة لها ببعض أعمال من ينتسب إليها. وليس هذا من الموضوعية؛ لأن التقويم لا يتم بناءً على الأسماء والمصطلحات، لكن بالنفاذ إلى الحقائق وتحكيم المعايير الشرعية والعقلية.

(ب) كما يأمرنا القرآن الكريم ونحن نتعامل مع الحقائق أن نتجاوز الظاهر إلى ما وراءه فإنه يأمرنا في بعض المواقف أن نصحح النظر إلى الظاهر نفسه حيث يكون في بعض الأحيان خادعاً، أو يكون بحاجة إلى مزيد تأمل؛ حتى لا نخرج بانطباعات خاطئة؛ وفي هذا يقول القرآن الكريم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾[2].

حين رأى قوم عاد السحاب معترضاً في أفق السماء متجهاً نحو أوديتهم استبشروا به، وقالوا: هذا السحاب يأتينا بالمطر، لكن نبيهم هوداً ـ عليه السلام ـ صحح لهم الرؤية، وقال: ليس الأمر كما زعمتم، بل هو ما استعجلتم به من العذاب ريح تدمر كل شيء أتت عليه!! وقد أثمرت هذه العظة حالة من الحذر والتبصر عند نبينا ﷺ؛ فقد قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف

(١) رواه البخاري في صحيحه. وانظر: الفتح ١٠/٧٨.
(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٤.

في وجهه. قلتُ: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية؟! فقال: يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟! عذب قوم بالريح، ورأى قوم العذاب، فقالوا: «هذا عارض ممطرنا»(١).

ونحو من هذا في تصحيح الرؤية قول الله ــ عز وجل ــ:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾(٢).

إن كثيراً من الأعمال ظاهرها النفع لأصحابها؛ لكنها في الحقيقة سراب؛ لأنه لم يرد به وجه الله تعالى!

(ج) إعطاء الحقيقة ما يتناسب مع حجمها من الاهتمام والعناية ضرب من ضروب الموضوعية المعاشة على الصعيد العملي؛ لكن بعض الغشاوة ينتاب مواقفنا في بعض الأحيان. وحين نتصفح الكتاب العزيز والسنّة المطهرة نجد أن هناك قضايا رئيسة احتلت مساحات واسعة منهما كقضية التوحيد والإيمان باليوم الآخر ونعيم الجنة وعذاب النار وقصص الرسل في التبشر والإنذار. ونجد هناك من القضايا ما لم يذكر إلَّا مرة واحدة في القرآن الكريم كالغيبة مثلاً، ونجد منها ما لم يذكر إلَّا مرات قليلة كالسرقة؛ وبعض المحرمات لم يذكر في القرآن الكريم كلبس الرجال للذهب والحرير. ولا يعني هذا عدم اهتمام الإسلام بصيانة أموال الناس مثلاً؛ وإنما كان ذلك؛ لأن هذه السلوكيات تابعة لإيمان الإنسان ومعتقده؛ والجرائم على اختلاف أنواعها إنما تنحسر في المجتمعات على مقدار ما يتمدد الإيمان في قلوب الناس؛ ومن ثم كانت العناية بالأصل. ومما يشبه هذا القضايا الصريحة المحكمة التي عرض لها القرآن الكريم، فإنها أصول ترد إليها المتشابهات، كما قال ــ سبحانه ــ:

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح: ٨/٥٧٨.

(٢) سورة النور: الآية ٣٩.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾(1).

فالآيات الدالة على عبودية عيسى ـ عليه السلام ـ وبشريته كثيرة في القرآن وصريحة؛ لكن بعض النصارى أعرضوا عنها، واحتجوا بقوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾(2).

للاستدلال على أن عيسى ابن الله، أو هو جزء منه.

إن ردّ الفروع إلى الأصول، والمعمّيات إلى الواضحات هو ما يفعله العقلاء في كل زمان ومكان؛ لكن إذا تهيأ التجرد عن الهوى!

(د) قد تكون الحقيقة مرة، وحينئذٍ فإن الإنسان قد يصرف التفكير عنها، أو قد يتجاهلها لكن ذلك لا يغير من طبيعتها، وهو قد يؤجل مواجهتها، لكنه لا يستطيع إلغاءها أو التخفيف من وطأتها؛ ومن ثم فإن القرآن الكريم يغرس في حسِّ المسلم ضرورة مواجهة الحقائق بشجاعة وثبات؛ فذاك جزء من الموضوعية التي لا يليق بالمسلم الانحراف عنها، وفي هذا يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾(3).

فبين سبحانه لأولئك الذين تخلفوا عن الحديبية أنهم سيدعون لملاقاة أقوام أشداء ـ وهم بنو حنيفة ـ ؛ وذلك حتى لا تتكون لديهم رؤية عمشاء للمعركة المقبلة، ويظنوا أن ما يطمعون فيه من الغنائم قريب المأخذ رخيص الثمن. ويبين الله لأولئك الذين دخلوا في دينه، وحملوا اسم (المؤمنين) أن الابتلاء سنّة الله في المؤمنين حتى تتمايز صفوف الصادقين من الكاذبين، وحتى يعلم المسلمون ما سيلاقيهم من المصائب والمحن؛ فيوطنوا أنفسهم له؛ يقول ـ سبحانه ـ :

---

(1) سورة آل عمران: الآية ٦.

(2) سورة النساء: الآية ١٧١.

(3) سورة الفتح: الآية ١٦.

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾[1].

وكان من عادته ﷺ أنه إذا أراد غزوة ورّى بغيرها حتى لا تطير أخباره إلى العدو؛ لكن في غزوة تبوك كان الأمر مختلفاً، فالطريق طويلة وعرة، والحر شديد، والعدو جموع هائلة من الرومان، وذلك كله يقتضي إعلام الناس بما هم قادمون عليه، ولو كان شاقاً؛ حتى يأخذوا أهبتهم، ولا يتكون لديهم انطباع خاطىء؛ فيقعوا في التلاوم والندامة. إن مواجهة الحقائق بشجاعة ووضوح أصبح اليوم أحد أمارات التقدم والرقي، كما أن تجاهلها وطمسها صار أمارة على التخلف والخمول!

(هـ) تشتبك المصالح والمفاسد في واقع الإنسان، ويجد المسلم في كثير من الأحيان قلة الخيارات المتاحة، وصعوبتها؛ وهنا لا بد من موازنة دقيقة، كيما يدفع شر الشرين، ويحقق خير الخيرين[2].

وحين يمتلك المسلم هذا النوع من الفقه فإن هذا يعني أنه قادر على التكيف والحركة مهما كانت المساحات التي أمامه ضيقة. إن من الموضوعية ألّا نقف مكتوفي الأيدي كلما واجهتنا مشكلة؛ لأن ذلك سيعني ألّا نتقدم، بل ألّا نملك القدرة على الاستمرار! ومن هنا جاء بناء فقه الموازنات الذي أثمر مئات الأحكام التفصيلية على يد علماء المسلمين فيما بعد. وفي هذا يقول الله ــ تعالى ــ :

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[3].

فقد أكره المشركون عمار بن ياسر على قول كلمة الكفر، فأتى رسولَ الله ﷺ

---

(١) سورة العنكبوت.

(٢) إن إقامة القصاص على الجاني فيه تكثير لعدد القتلى والأرامل والأيتام في النظرة العاجلة؛ لكن ثبت أن إمضاء القصاص يقلل عدد الجنايات في المجتمع فكان في القصاص أخف الضررين. انظر: قواعد الأحكام: ١٢/١.

(٣) سورة النحل: الآية ١٠٦.

وهو يبكي، فقال له: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان. قال: فإن عادوا فعد[1].

قد نزلت الآية الكريمة في رجل وجد نفسه مخيَّراً بين أن يُقتل، وبين أن يقول كلمة شنيعة لا يؤمن بها، فاختار الثانية، فقال له النبي: فإن عادوا فعد. فأشعر أن ذلك ناموس عام، وليس خاصاً بشخص بعينه، أو حادثة معينة.

وذكر الله تعالى لنا في موضع آخر أن في الخمر والميسر شيئاً من النفع، فقال:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[2].

فحرم الخمر والميسر ترجيحاً للضرر الكبير الذي فيهما على النفع اليسير لبعض الناس. ويقول ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ﴾[3].

إن الله تعالى لم يأذن للمسلمين بدخول مكة، ولم يسلطهم على المشركين؛ لأن فيها مسلمين مختلطين بالمشركين، لا يعرفهم المسلمون، وهذا يؤدي إلى قتل المسلمين. ولا يخفى أن في فتح مكة آنذاك مصلحة ظاهرة، فقدم دفع الضرر على جلب المصلحة، ولم يأذن الله بدخول مكة.

ونجد فقه الموازنات ظاهراً في مسلكه ﷺ وهو يرسي قواعد الحركة للدعاة، وقواعد الدولة للأمة، حيث المتغيرات الكثيرة الناتجة عن اختلاف الزمان والمكان والأفهام، والتي تتطلب الموازنة بصورة دائمة. ومن ذلك قوله ـ عليه الصلاة

---

(١) صفوة التفاسير: ٢/١٤٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٣) سورة الفتح: الآية ٢٥.

السلام ـ لعائشة: «لولا حداثة قومكِ بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام»[1].

لقد امتنع من إدخال الحِجْر في البيت، وإعادة بنائه على قواعد إبراهيم خوفاً من تغير قلوب قريش؛ لانفراد النبي ﷺ بتلك المفخرة دونهم، وإيمانُهم ما زال غضاً. وهذا من أدلة القاعدة الفقهية: «درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح».

وكان من خلقه ﷺ إكرام بعض من لا يستحق الإكرام لمكانته في قومه؛ فيحسن إليه، ويبشُّ له تألفاً لقومه؛ فقد روي أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «كيف ترى جُعيلاً؟ قال: فقلت: مسكين كشكله من الناس! قال: فكيف ترى فلاناً؟ قلت: فسيد من السادات! قال: فجعيل خير من ملء الأرض من فلان! قال: قلت: يا رسول ففلان هكذا، وأنت تصنع به ما تصنع؟! فقال: إنه رأس قومه؛ فأنا أتألفهم به»[2]. ولو أردنا أن نستقصي ما ورد في هذا لسودنا صفحات كثيرة.

(و) إن من جملة التعامل مع الحقائق ترتيب الأولويات في القضايا التي تحتاج إلى معالجة، وهذا الترتيب نابع من إدراك عميق لطبيعة القضايا وإمكانات المعالجين والظرف العام الذي تجري فيه المعالجة؛ فإذا ما اختل فهم واحد من هذه العناصر حرم المعالجون من بركات فقه الأولويات! وإن هناك كثيراً من الكلام الذي يمكن أن يقال، لكننا لا نعرض هنا إلَّا لما يبني الفضاء النظري للموضوعية.

وإن من النصوص التي أرست قواعد هذا الأصل قوله ـ تعالى ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٠٥ ﴾[3].

قد كادت نفوس بعض المسلمين تذهب حسرةً على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام، فقيل لهم: عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشي بها في طرق الهداية،

---

(١) صحيح البخاري: ٢/٢٨٧.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٣/٣٢.

(٣) سورة المائدة.

ولا يضركم الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين[1].

إن البداية الصحيحة في عملية الهداية هي الاهتمام بالنفس من أجل تشكيل نواة للقدوة في الإحسان والإصلاح، فإذا ما تحقق للإنسان ذلك، أوجله نهض؛ ليبشر، وينذر، ويصلح من يلوذ به من الأقرباء والجوار. وقد أمر الله نبيه ﷺ بذلك حين قال:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[2].

وقد قام النبي ﷺ امتثالاً لذلك بدعوة بني عبد مناف، ودعا عمه العباس وعمته صفية وابنته فاطمة إلى أن يشتروا أنفسهم، وأعلمهم أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً[3].

وحين جاء رجل إلى النبي يسأل عن أحق الناس بصحبته ومودته قال له: «أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك»[4].

وحين استشاره أبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ فيمن يرى التصدق عليه ببيرحاء كانت له قال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إني أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[5].

هذا وإن كثيراً من الأولويات لا يأخذ صفة الثبات والجمود، فلكل شخص أولوياته، كما أن لكل بلد، وكل أمة أولوياتها؛ وقد جاء أشخاص كثيرون إلى النبي ﷺ يسألونه عن أحب الأعمال إلى الله، أو عن الصفات التي تجعل المسلم أكثر خيراً، وكان الجواب مختلفاً في كثير من الأحيان بحسب حال السائل؛ فقد قال

---

(١) انظر: الكشاف: ١/٣٦٨.
(٢) سورة الشعراء.
(٣) انظر: فتح الباري: ٨/٥٠١.
(٤) صحيح البخاري: ٨/٢.
(٥) صحيح مسلم: ٢/٦٩٣، ٦٩٤.

لرجل حين سأله أي الإسلام خير؟: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت، وعلى من لم تعرف»[١].

وسأله آخر: أي الإسلام أفضل؟ فقال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٢].

وقال لثالث حين سأله عن أفضل الأعمال: «إيمان بالله ورسوله قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[٣].

وفي سياق آخر يأتيه رجل يستأذنه في الجهاد، فقال: ألك أبوان؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد[٤].

إن هذه الأولويات تكون على مختلف المستويات؛ فحين يغزو الأعداء أرض قوم فإن دفعهم يكون هو أفضل الأعمال، وحين تجتاح الناس مجاعة مهلكة فإن إطعام الطعام يكون أفضل من نوافل الحج والعمرة والصيام وهكذا[٥]...

إن ترتيب الأولويات على مستوى الأمة ليس بالأمر الهيِّن لا سيما حين يشعر الناس أنهم يدورون في حلقة مفرغة، لا يرون فيها منفذاً للخروج؛ لكن أهل الخبرة التاريخية والحس الشرعي والوعي الاجتماعي يستطيعون وضع كثير من النقاط على الحروف، وإن كنا نسلم أن بعض الحروف ليس له نقاط!!

ولعلنا نكون بهذا قد أعطينا فكرة واضحة عن المنطلقات النظرية للتفكير الموضوعي، وهذه المنطلقات ما زالت فعّالة حية تؤتي أكلها كلما وجد العقل الناضج والقلب المتجرد عن الهوى! وعلى الله قصد السبيل.

● ● ●

(١) صحيح البخاري: ١/١٦.
(٢) السابق...
(٣) السابق: ١/٢٣.
(٤) السابق: ٨/٣.
(٥) انظر: مدراج السالكين: ١/٨٥ ــ ٩٠.

الفصل الرابع

في

تجلّيات الموضوعيّة عند علماء المسلمين
معالم وإجراءات

تجليّات الموضوعيّة عند علماء المسلمين
معالم وإجراءات

الموضوعية مصطلح يستخدم اليوم بكثرة في الكتابات المنوعة، وهذا المصطلح وإن اتفق على كثير من مضامينه إلَّا أن جوانب منه تظل موضع نزاع بين الباحثين، وهذا النزاع لا يتوقع أن نشهد له نهاية في يوم من الأيام؛ إذ إن (الموضوعية) جزء من منهج علمي عام، وهذا المنهج لا يمكن فصله عن معتقدات الباحثين، ومجموعات الصور الذهنية لديهم؛ ومن هنا فإن بالإمكان أن يقف باحثان نزيهان على طرفي نقيض تجاه مسألة من المسائل مع اعتقاد كل منهما اعتقاداً جازماً أنه موضوعي في موقفه، وأن المقابل له على الطرف الآخر بعيد عن الموضوعية!

إن الذي لا يقيم وزناً للوحي يعدُّ دراسة الأسانيد؛ وتصنيف الرواة ضرباً من العبث، وإن الذي يؤمن بأن الإنسان لا يستغني عن الوحي؛ لأنه غير قادر على الاستبصار الصحيح لجميع مصالحه يرى كثيراً من أساليب البحث العلمي عند الغربيين مشوشة ومضللة وهكذا. . .

ومن هنا فإن أساساً هاماً من أسس (الموضوعية)، وهو الإطار العام للتصور عن الإنسان والكون والحياة مختلف بيننا وبين غيرنا، مما يجعل لتصور الموضوعية عند هذا الفريق، أو ذاك بعض الخصوصية التي تميزه عن تصورات أخرى. ومع أن في الموضوعية جوانب ثابتة تتوارث التواصي بها الأجيال في كل مكان كالبعد عن الهوى والتعصب للرأي وإنصاف الخصم إلَّا أن هناك تفصيلات دقيقة، بل جوانب كاملة ــ كتلك المتعلقة بمناهج البحث ــ هي مثار خلاف وتباين بين الأمم، وبين الأجيال في الأمة الواحدة.

وقد شاهدنا من خلال الفضاء النظري الذي أرساه الإسلام للموضوعية أن

كثيراً من ضوابط الموضوعية وأدبياتها ليست من صنع الإنسان، لكنها من تعليم الله - تعالى - له؛ ومن ثم فإن المسلمين مهما تفرقت بهم السبل فإن ثوابت هذه القضية تظل واضحة محفوظة في جملة ما تعهد الله بحفظه من الوحي. لكن المشكلة في نظري هي مشكلة الآخرين الذين يضعون بأنفسهم ضوابط الموضوعية؛ ليلتزموا بها! ولست أدري من أين يمتلك الإنسان الحكمة والإرادة لوضع القيود التي يقيد بها نفسه وعقله، ثم من أين يمتلك الطاقة للحركة بتلك القيود من دون أن يرى أي مردود مادي أو معنوي يعود عليه من جراء الرسف بها!! بل إنه قد يعود عليه بالضرر في الموازين المادية البحتة!

إن الذين يدَّعون الموضوعية لا يحصَون عدداً، وإن الذين يتهمونهم بالخروج عنها لا يقلون عنهم عدداً. والسبب أن هذا الأمر لديهم فقد إطاره المرجعي، وكثيراً من الثوابت التي تمنحه الاستقرار والتعميم!

وما سنتحدث عنه هنا من إجراءات وتطبيقات عملية تتسم بالموضوعية كان ثمرة مباشرة للنصوص الكريمة التي عرضناها عند الحديث عن الفضاء النظري، ونتيجة لما شاهده الناس من سلوك نبي الإسلام ﷺ وسلوك كبار أصحابه الذين اهتدوا بهديه. ولسنا نزعم هنا أن جميع علماء المسلمين كانوا موضوعيين؛ لأن ذلك غير ممكن على الصعيد العملي؛ لكن الأسس والقواعد التي انبثقت عن تلك التعاليم الربانية كانت على درجة كافية من الوضوح والشمول لجعل الموضوعية سمة بارزة في حياة سلف هذه الأمة، ومن تبعهم بإحسان. وسنتحدث هنا عن أهم المعالم التي تمثلت فيها الموضوعية عند المسلمين من خلال العناوين التالية:

١ - الموضوعية ومناهج البحث العلمي:

لكل حضارة من الحضارات تصور كوني للعالم، أي: نظرة يُفهم وفقاً لها كل شيء، ويقوَّم. والتصور السائد في حضارة ما هو الذي يحدد معالمها، ويشكل اللحمة بين عناصر معارفها، ويملي منهجيتها، ويوجه تربيتها. وهذا التصور يشكِّل

إطار الاستزادة من المعرفة، والمقياس الذي تقاس به[1]. وهذا التصور هو الذي يمنح لتلك الحضارة خصوصيتها، ولونها المميز، ويحدد لها مناهج البحث وأدواته، وهو الذي يوجد تركيبها العقلي الخاص بها، إنه باختصار وجودها المعنوي، وشخصيتها الاعتبارية.

ومن هنا فإننا لا نستغرب أن نرى الاشتراك بين الأمم في بعض مناهج البحث إلى جانب التفرد، والاتفاق إلى جانب الاختلاف؛ وهذا يستمد مشروعية وجوده من الفلسفة النظرية التي يستند إليها. فكيف تجلت الموضوعية عند المسلمين في هذا الجانب من السلوك المعرفي؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في الصفحات التالية.

يمكن تعريف المنهج بأنه: «فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين». أو هو: «الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته؛ حتى يصل إلى نتيجة معلومة»[2]. أو هو: «مجموعة العمليات العقلية الاستدلالية التي تستخدم في حل مشكلات العلم، وبناء العلم نفسه في مرحلةٍ ما من تاريخه»[3].

وهذه التعريفات كلها متقاربة، وهي جميعاً تشير إلى ناموس عام مهيمن على قوانين جزئية عقلية وعلمية تستخدم جميعاً في الوصول إلى الحقيقة، وتمكن من شرحها والبرهنة عليها.

وتتولد المناهج في كل حضارة، وفي كل مرحلة كبرى من تاريخ الحضارة نتيجة عوامل عدة، منها: المشكلات التي تواجه الأمة، والنظرة الكونية لها، ومنها: النجاحات التي تحققها المعرفة على الأصعدة المختلفة. وهذه المناهج ليست ثابتة

---

(١) العلم في منظوره الجديد: ص ١٥.

(٢) مناهج البحث العلمي: ص ٤، ٥.

(٣) مجلة عالم الفكر العدد الأول ١٩٨٩.

ثباتاً مطلقاً، وإنما من خلال تراكم الخبرات المختلفة يجري نوع من التطوير لتلك المناهج، يُبقي على خير ما فيها، ويتخلص مما ثبت قصوره وعقمه. وقد يكون التطوير عبارة عن تحول الضغط من عنصر من عناصر المنهج إلى عنصر آخر، كما حدث بالنسبة للكيمياء، فقد كانت تعتمد على التجارب، ثم صار اعتمادها على الرياضيات أكثر، ولكنها لم تستغنِ عن التجريب، وإنما قل الاعتماد عليه.

ويعود تطوير المناهج إلى العلاقة بين العلوم، وبين مناهجها حيث يؤدي وصول العلم إلى مرحلةٍ ما إلى ضرورة التفكير بتطوير المنهج الذي دفعه إلى تلك المرحلة، نظراً لقصوره عن مزيد من الدفع.

(أ) أنواع مناهج البحث:

تعود أنواع مناهج البحث العلمي إلى ثلاثة مناهج أساسية، هي: المنهج التجريبي، والمنهج الاستردادي، والمنهج الاستدلالي[1].

ولا يعنينا كثيراً التعريف بهذه المناهج قدر ما يعنينا بيان أمرين:

الأول: هو أن الموضوعية قد تكتسب بعض الخصوصية نظراً لانبثاقها من أصول خاصة.

والثاني: الكشف عن بعض مظاهر الموضوعية لدى علماء المسلمين، كما في المنهج الاستردادي.

(ب) المنهج الاستدلالي:

هو المنهج الذي نسير فيه من مبدأ إلى قضايا تنتج عنه بالضرورة دون الصيرورة إلى تجربة. وهذا المنهج هو منهج العلوم الرياضية بشكل خاص. وقد كان العرب قبل الإسلام أمة أمية لا عهد لها بالدرس ومناهج البحث، وأكثر الخبرات التي يكتسبها الجيل الواحد منهم ينتقل إلى الجيل الذي بعده عن طريق

---

(١) انظر في التعريف: مناهج البحث العلمي: ص ٢١ وما بعدها، والمنطق الحديث ومناهج البحث: ص ٢٤٤ وما بعدها.

الرواية والمشافهة، وحين نزل القرآن الكريم، وأكرمهم الله بحمل الرسالة وجدوا أنفسهم في مناخ جديد مختلف عما ألفوه تمام الاختلاف، هذا المناخ وضعهم في سبل المعرفة والبحث والاجتهاد، وتواصلوا من خلال حركة الفتوحات الضخمة مع شعوب وأمم كانت أعرق في الحضارة وأعتق عهداً بالعلم، ومن خلال حركة ترددية بين نصوص الكتاب والسنّة والمشكلات الجديدة التي تواجههم نمت لديهم مجموعات من القواعد والمفاهيم التي تضبط الاستدلال، وتخصب الخيال المجرد، وتلك القواعد هي ما سمي بعلم (أصول الفقه)؛ هذا العلم الذي سبق إلى التأليف فيه عربي صميم هو الإمام الشافعي (ت ٢٠٤) حين أنجز كتاب (الرسالة)، وحين ألف كتاب (القياس)(١).

وقد تبلور كثير من قواعد الاستدلال قبل حركة الترجمة التي نشطت في أواخر القرن الثاني وبدايات القرن الثالث في زمان المأمون. وحين اطلع المسلمون على بعض تراث اليونان، وعلى رأسه منطق أرسطو تفاعلوا معه، وأخذوا منه باعتدال، وبشطط في بعض الأحيان.

وقد كان المنطق اليوناني الذي يمثل أرسطو بطله الأول يسيطر على عقول الناس ومسار معارفهم لمدة تزيد على عشرة قرون من الزمان. وكان المنطق القديم يطلق على العلم الذي يدرس أشكال التفكير، أي: العلاقات التي تعبر عنها اللغة بصرف النظر عن الموضوعات التي تنصب عليها عمليات التفكير(٢).

كان منطق أرسطو بعيداً جداً عن التجارب، ومعالجة الواقع ومواجهة الطبيعة، وكان المدرسيون من أتباع أرسطو ساخطين على الرياضة والتجربة في آن واحد ظناً منهم أن استخدام الطريقة المنطقية يكفي وحده في معرفة القواعد التي تخضع لها الأشياء(٣).

---

(١) انظر: مقدمة الرسالة للشافعي بقلم الشيخ أحمد محمد شاكر: ص ١٣.
(٢) المنطق الحديث ومناهج البحث: ص ٧.
(٣) الموسوعة العربية الميسرة: ص ١١٧.

ومن الطريف أن أرسطو كان يعتقد أن أسنان الرجل أكثر من أسنان المرأة! ولو أنه كلف زوجته أن تفتح فمها لأدرك خطأ مقولته! لكن ذلك خروج عن القياس إلى التجربة، وهو ما لا يروقه!

ولم تستطع أوروبا أن تنهض إلاَّ بعد أن تحررت من أغلال أرسطو التي ظلت ترسف فيها قروناً طويلة. فماذا كان موقف المسلمين من منهج البحث الاستدلالي الأرسطاليسي؟

ذكرنا من قبل أن التصور الكوني لدى كل أمة يحدد أشياء كثيرة في حياتها، ومن جملة ذلك مناهج البحث عن المعرفة، ومقاييس الاستزادة منها؛ وقد أدرك المسلمون أن وظيفة المسلم في الحياة هي القيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض الذي يتضمن إلى جانب العبودية لله إعمار الأرض، وذلك بالكشف عن السنن التي تحكم وجود الأشياء والعلاقات التي تتبادلها فيما بينها. والعبودية لله ــ تعالى ــ تقضي بفهم الأوامر والنواهي، ومعرفة مقاصد الشريعة وفقه الواقع من أجل تنزيل الأحكام عليه؛ وهذا كله يتطلب منهجاً جديداً في الاستدلال غير منهج أرسطو؛ إذ إن المسلم المجتهد مكلف بالاستنباط من نصوص الكتاب والسنّة بصورة رئيسة مما يساعده على القيام بمهمة الاستخلاف؛ ومن ثم فإن منطقه ليس صورياً ولا شكلياً؛ ومن هنا أيضاً وقف كثير من علماء المسلمين ممثلين في مدرسة الأثر موقف المتشكك من منطق أرسطو منذ البداية، ورأوا أن في الاعتماد على القياس الفطري إلى جانب الاعتماد على دلالات اللغة ما يكفي لإيجاد منهج مُجْدٍ للبحث يؤمن حركة تشريعية منضبطة مرنة حية.

ويمكننا بعد هذا أن نقول إن علماء المسلمين تجاوزوا المنطق اليوناني في جانبين مُهِمَّيْنِ:

الأول: الاعتماد على القياس الفطري، وتحديد مجالاته، وعلاقته بالنص.

والثاني: إرساء منهج للتجريب يساعد على مواجهة الطبيعة والكشف عن السنن الكونية بغية إعمار الأرض واستنباط خيراتها.

وفي الجانب الأول فإن مجتهدي المسلمين اعتمدوا على تفجير طاقات العربية من أجل فهم النصوص مع الإحاطة بظروف ورودها؛ وذلك بغية العمل بالنص على وضع يفهم من النص ذاته. وقلبوا النص على كل الوجوه التي يمكن أن تنتج شيئاً جديداً، كما قاموا بأكبر عمل في تاريخ البشرية حين جمعوا بين النصوص المختلفة الكثيرة، وخلصوا إلى أحكام محددة تستنبط منها في ضوء الروح العام للشريعة! وأفاضوا في البحث في دلالات الألفاظ من حيث وضوحها وإبهامها، وقسموا الألفاظ الواضحة إلى أقسام، كالظاهر والنص والمفسر والمحكم، وقسموا المبهم إلى أقسام كالمشكل والمجمل والخفي والمتشابه. كما بحثوا في طرق دلالة الألفاظ على الأحكام، وتحدثوا في هذا السياق عن عبارة النص وإشارته، كما تحدثوا عن دلالة النص، وحالات إفادتها القطع، وحالات إفادتها الظن، كما تحدثوا عن مفهوم الموافقة والمخالفة، وقوة إلزامهما في مجالات التشريع. وهناك بحوث أخرى متصلة بهذا الموضوع(١).

وقد اتسمت أبحاثهم في هذا الشأن بجدية نادرة المثال، ولقحت عقول علماء المسلمين هذه المباحث وصقلتها على مدار مئات السنين!!

والأمر الثاني الخطير في منهج الاستدلال عند علماء المسلمين يقوم على القياس الفطري الذي لا يعني أكثر من مدِّ سلطان النص بعد إدراك علة الحكم المستفادة منه ليشمل بحكمه كل ما توفرت فيه علة النص الأصلي وظروف تطبيقه. وهذا النوع من القياس قياس فطري يتعامل على أساسه الناس في كل يوم، ويستخدمونه في شتى مجالات الحياة. وهذا القياس يعتمد على نوع من الاستقراء من أجل تعميم أحكام النصوص، وهو قائم على مبدأين اثنين:

الأول: قانون العلية، أي: أن لكل معلول علة، ولكل أثر مؤثراً.

والثاني: قانون التناسق والنظام في العالم، أي: أن المظاهر الجزئية للكون

---

(١) انظر في هذا الموضوع: (تفسير النصوص في الفقه الإسلامي).

وإن اختلفت أشكالها ترتبط بعلل كلية من شأنها أن تبث التناسق والانسجام فيما بينها[1].

إن الذي دفع علماء المسلمين إلى هذا المسلك في منهج الاستدلال أن عندهم نصوصاً تعبدهم الله ـ تعالى ـ بالعمل بها، وليس عند اليونان ولا الغربيين اليوم مثل تلك النصوص؛ مما جعل منهجهم متفرداً. ولم يكتفِ علماء المسلمين باختطاط منهج في الاستدلال خارج عن تعاليم أرسطو بل إن بعضهم وجه سهام النقد إلى ذلك المنطق! حقاً إن بعض من ينتسب إلى الإسلام، وينتسب إنتاجه العلمي إلى الحضارة الإسلامية قد افتتنوا بتعاليم أرسطو؛ حتى لقبوه بالمعلم الأول؛ كما أن بعضهم تبنى كثيراً من فلسفته؛ حتى سمي أحدهم ـ وهو الفارابي ـ بالمعلم الثاني؛ لكن ذلك لم يكن يمثل سوى الشذوذ الذي يؤكد القاعدة.

نجد شيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً يتقدم على علماء عصر النهضة والعصر الحديث بقرون عدة في نقد منطق أرسطو، وتفريغ كثير منه من مضامينه. وكان من جملة ما أشار إليه في هذا أنه طالما صرح بأن (المنطق اليوناني) لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد[2].

وردَّ ابن تيمية قول المناطقة: «إن التصورات غير البدهية لا تنال إلَّا بالحد» بأحد عشر دليلاً دافعاً[3].

ثم ردَّ قولهم إن الحد يفيد العلم بالتصورات بتسعة ردود[4]، وقولهم: «إن التصديقات لا تنال إلَّا بالقياس»، وقولهم: «إن الاستدلال لا بد فيه من مقدمتين»[5].

---

(١) انظر كبرى اليقينيات الكونية: ص ٤٤، ٤٥.

(٢) الرد على المنطقيين: ص ٣.

(٣) السابق: ص ٧ ـ ١٤.

(٤) السابق: ص ١٤، ٨٧.

(٥) السابق: ص ٨٨ ـ ٢٤٦.

ولخَّص رأيه في المنطق اليوناني بقوله: «فإذا كانت صناعتهم بين معلوم لا يحتاج إلى القياس المنطقي، وبين ما لا يمكنهم أن يستعملوا فيه القياس المنطقي كان عديم الفائدة»[1].

ومن الجدير بالذكر أن كثيراً مما قاله المسلمون في منطق أرسطو انتهى إليه علماء عصر النهضة؛ لكن حاز المسلمون قصب السبق بقرون من الزمان[2].

أما المنهج الثاني الذي خرج به علماء المسلمين على منطق أرسطو فهو المنهج التجريبي، إن المسلمين شعروا أن مهمتهم في هذه الأرض هي هداية الخلق، وتبليغ الدعوة إلى الناس جميعاً، وإزالة كل ما يعترض سبيل هذه الرسالة، وتسليح الحق بالقوة التي تحميه؛ حتى يكون له سلطان نافذ. وهذا كله جعل المسلم يفكر تفكيراً واقعياً، كما جعله يتجه بحواره إلى الطبيعة، يعمر الأرض، ويكشف عن كنوزها. والعجيب أن هذه المعاني لم تجعل المسلم يتجاوز منطق أرسطو الذي كان يبتعد عن التربية المهنية والصناعية، وإنما جعلته يتجاوز جذور الذات العربية، التي كانت تنفر من الصنائع!!

وقد حاول أكثر الباحثين الغربيين أن يغضوا الطرف عن ابتداع المسلمين للمنهج التجريبي في البحث، وإهالة التراب عليه، لكن بعض المنصفين منهم وقف في وجه ذلك التيار الضخم ليعيد الحق إلى نصابه، كما فعل (برانتل) حين قال: «إن روجيه بيكون أخذ كل النتائج المنسوبة إليه في العلوم الطبيعية عن العرب». وكما فعل بعض المختصين من أمثال (فيديمان) و (شرام) حين استطاعا توضيح مكانة العلماء المسلمين في تأسيس قانون التجربة والنظرية، وأثرهم الواضح في (روجيه بيكون) و (ليونارد دافينشي).

وأبرز هؤلاء عناية المسلمين بشيء آخر غير التجربة، وهو (النظرية) التي

---

(١) نقض المنطق: ص ١٦٨.

(٢) انظر: المنطق الحديث ومناهج البحث: ص ٣٧ وما بعدها.

يجب أن تسبق التجربة، حيث جعلوا التجربة واسطة وأداة تستعمل أثناء البحث[1].

ولسنا نريد أن نفيض في هذا الموضوع حيث إن كثيراً من الدراسات في المدة الأخيرة اهتم بكشف اللثام عن هذه المسألة.

إن المسلمين كانوا موضوعيين حقاً حين أوجدوا منهجاً للاستدلال، ومنهجاً للتجربة يتناسبان مع خصوصية عقيدتهم ورسالتهم ونظرتهم لمصادر المعرفة.

(ج) الموقف من الخبر، أو (المنهج الاستردادي):

وضع علماء المسلمين ـ نظراً لخصوصية نظرهم إلى مصادر التلقي ـ قاعدة في البحث العلمي تقول: «إذا كنت ناقلاً فالصحة، وإذا كنت مدعياً فالدليل». وقد ذكرنا شيئاً من منهج المسملين في الاستدلال. وأما قضية النقل، والموقف من المنقول فإنما عني المسلمون بهذا الجانب من مناهج البحث؛ لأن التحقق من صدق الخبر تترتب عليه نتائج تصوغ فكر المسلم وسلوكه؛ فالنبي ﷺ مكلف بتبليغ الرسالة، وهو في سلوكه معصوم من فعل ما يخالف ما أمره الله ـ تعالى ـ بتبليغه للناس؛ كما أن من مقتضيات الرسالة أن يأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر؛ ومن ثم فإن أقواله وأفعاله وإقراراته لما يرى، ويسمع من أعمال الناس تعد مصدراً من مصادر التشريع ـ في الجملة ـ لدينا؛ ولذا فإن علينا أن نتأكد بكل وسيلة ممكنة من صحة ما ينقل عنه من ذلك. فإذا ما ثبت ذلك أعملنا فيه منهج الاستدلال. والمسلمون حين يفعلون ذلك موضوعيون حقاً ما داموا التزموا بالإذعان لحكم الله ورسوله. وقد بذل المسلمون في هذه السبيل من الجهود المضنية ما لم تبذله أمة من الأمم، والطاقة الهائلة التي توفرت لديهم كانت تنبع من اعتقادهم أن تلك الجهود عبادة من أفضل العبادات التي يتقرب بها المسلم إلى الله ـ تعالى ـ. فماذا فعل المحدِّثون للتأكد من صحة الأخبار التي وردت إليهم؟.

بالإمكان أن نركز جواب هذا السؤال الكبير في النقاط التالية:

---

(١) انظر محاضرات في تاريخ العلوم: ص ١٩.

(أ) اعتمد علماء المسلمين على نقطة جوهرية في حياة المسلم هي الصدق والكذب؛ فالكذب محرم، وهو مع ذلك عمل شائن في نظر الأمة؛ ومن ثم فإن الأصل في المسلم العدالة، وتحري الصدق ما لم يظهر منه خلاف ذلك. فصدق الرواة شرط أساسي لا بد من توفره فيهم.

(ب) لا بد أن يكون الراوي ضابطاً حافظاً يؤدي المرويات على ما سمعها.

(ج) أن يكون سمع ممن فوقه، ومن فوقه سمع كذلك ممن فوقه، وهكذا إلى مصدر الخبر، وهو ما يعبرون عنه بضرورة اتصال السند.

(د) أن يخلو النص نفسه من الشذوذ والعلة القادحة. وهذا ضرب من النقد الداخلي للنص.

(هـ) لا بد من توفر هذه الشروط في كل راو من الرواة دون استثناء؛ لذا قالوا في تعريف الحديث الصحيح: إنه «المتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله حتى ينتهي إلى النبي ﷺ وكان خالياً من الشذوذ والعلة القادحة»[1].

وحتى يتأكَّد المحدثون من عدالة الرواة وضبطهم قاموا ببحوث مضنية سطروها في عشرات المجلدات، وكلها يبحث في أحوال رجال الإسناد والمعايير التي ينبغي أن تطبق في الحكم عليهم. والإسناد يشكل خصيصة من خصائص هذه الأمة؛ فلا يعرف الاعتناء به لأمة من الأمم سوى أمة الإسلام، وهو جزء من آليات ما وعد الله به من حفظ الشريعة!

ولو أردنا أن نفيض في هذا الشأن وفي تبيان الجهود الهائلة التي بذلت في الجرح والتعديل إذن لطال بنا الحديث!!. لكن المهم أن نعرف أن علماء المسلمين لم يكتفوا ببحث الأسانيد، وإنما تجاوزوها إلى نقد المتن نفسه؛ وذلك زيادة في الاستيثاق، وحرصاً على وضع الأمور في نصابها؛ فقد ردوا عدداً غير قليل من المرويات لمخالفتها لما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو لما هو مستقر من

---

(١) انظر الباعث الحثيث: ص ١٧.

مبادىء الإسلام العامة . . . وسوف نتحدث عن هذا الأمر في سياق آخر بإذن الله تعالى[1].

وهذا المسلك من علماء المسلمين تجاه المرويات هو المسلك الطبيعي الذي يسلكه البشر تجاه كل الأقوال التي تُنسب لأشخاصٍ لأقوالهم صفة الإلزام؛ فحين يصدر أمر عن مدير مصنع فإن العمال يحاولون التأكد من صدور الأمر عن طريق التوثق من وسائل نقل الأمر، ثم يحاولون تفسيره وفهمه، ويبحثون بعد ذلك في إجراءات تنفيذه . . .

لكن ما هو المنهج الذي اتبعه غير المسلمين حيال تحقيق الحوادث الماضية، وتشكيل الرؤية عن الواقع التاريخي؟ .

يقول د. عبد الرحمن بدوي: «على المؤرخ أن يتحلى بالتوسم؛ وقيمته تتعلق بقدرة المؤرخ المتوسم ومقدرته على النفوذ وراء الأحداث. وهذه مسألة لا تتعلق بالعلم في شيء، إنما هي نوع من الهبة الطبيعية التي لا تتوافر إلاَّ للممتازين! ولكن لا تستطيع هذه الملكة أن تصنع شيئاً دون الاعتماد على الوثائق التي خلفها لنا الزمان»[2] .

إن تجميع كل ما يتعلق بالواقعة من أخبار وفحصه ونقده سيسفر ـ ولا شك ـ عن نتائج ظنية تعتمد على خصائص فردية للباحث، ومن ثم فإن الخرص والتكهن والاحتمالات المتعددة هي الميسم الواضح الذي يتجلى في كل تلك النتائج. ولا يقف الأمر عند ظنية النتائج، بل يتعداه إلى ما هو ملاحظ من تفسيرهم للتاريخ ـ بمعناه العام ـ وفق عواطفهم وقيمهم ومعتقداتهم السياسية، وهم يتفاوتون في هذا ـ ولا شك ـ لكن هناك من ضروب التحيز، والذاتية في التقويم ما لا يظهر

---

(١) انظر ص ١٥٧ من هذا البحث.

(٢) انظر مناهج البحث العلمي: ص ١٨٤. وانظر تعليقاً حسناً على هذا الكلام في كبرى اليقينيات: ص ٤٩.

لصاحبه في كثير من الأحيان[1].

ولهم في اختطاط منهج التوسم بعض العذر؛ فإن أهل مللهم لا يتقربون إلى الله ـ تعالى ـ بالصدق، وهم بعيدون ـ في كثير من الأحيان ـ عن العقائد التي تلزمهم بالعدالة والاستقامة؛ ومن ثم فإن الأساس الذي تقوم عليه أصول الأمانة والوثوق بالرواية مفقود!!. ومن جهة أخرى فإن الفائدة التي تعود عليهم من وراء تحقيق الأخبار ضعيفة للغاية؛ إذ ما الفائدة من التحقق من خبر إذا صح لم يعدُ أن يكون قولاً من الأقوال، يعبر عن رؤية خاصة؟!.

ولذا فإننا لا ندهش أبداً حين نرى أن الغربيين لم يبذلوا جهوداً تذكر في طرق تحقيق نسبة الأقوال إلى أصحابها؛ وهم في ذلك منسجمون مع رؤيتهم الكونية الخاصة. لكن المشكلة تكمن في وقوفهم موقف ذي العيال المتكبر تجاه هذه المسألة!!

٢ ـ موضوعية علماء المسلمين تجاه تقويم الأشخاص:

يمثل التعامل مع الأشخاص تقويماً ونقداً مسلكاً من أخطر مسالك الانزلاق عن الموضوعية، وذلك لاعتبارات كثيرة منها: عدم ثبات مواقع الأشخاص جميعاً سواء أكانوا في مقام الناقدين أم كانوا في مقام المنتقدين؛ فالإنسان يتغير باستمرار، وهو خلال ذلك التغير لا يخلو من التأرجح بين المراهقة والنضج، والخطأ والصواب والهداية والعماية، والغلو والاعتدال، وهذا يجعل موقف الناس بعضهم من بعض أشبه بحالة صياد يركب سيارة مسرعة، ويحاول اصطياد طائر مسرع في اتجاه مغاير!!.

وقد يكون منها الاعتماد على العناصر العاطفية والروحية في التقويم، وهي بطبيعة الحال شديدة التنوع والتغاير. وقد يكون منها اختلاف المستويات الثقافية للناقدين؛ مما يجعل المعايير شخصية، وهذا ما نراه واضحاً في لجان الاختبارات الشفوية التي تعقد للطلاب!

---

(١) انظر البحث العلمي مناهجه وتقنياته: ص ٢٩.

وقد يكون منها عدم امتلاك أدوات ومقاييس مادية تمكننا من الوصول إلى أحكام متطابقة كتلك التي نصدرها على الطبيعة من حولنا.

وقد يكون منها ما نجده من الصعوبة البالغة في التفريق بين أحكام صدرت عن قناعات عميقة لدى أصحابها، وبين أحكام كان مصدرها الهوى أو الحسد...

ونتيجة لكل ذلك فإننا لا نعجب حين نسمع عن خلاف يدور بين أهل بلد واحد، ملتهم واحدة حول شخص يعتقد فيه بعضهم أنه ولي، ويعتقد آخرون أنه كافر!!. وقد تجاوز الأمر ذلك في بعض الأحيان، على نحو ما يذكرون من أن الناس انقسموا في يزيد بن معاوية إلى ثلاثة أقسام: منهم من جعله كافراً، ومنهم من اعتقد أنه نبي، ومنهم من توسط(١)...

والحركة الثقافية الموارة هي التي تمكن من إحداث تجانس ثقافي ينتج عنه تقارب في الرؤى والأحكام والمواقف؛ وهذا ما أعيا العالم الثاني والعالم الثالث اليوم!!.

ومن هنا نشعر أننا حتى نكون قريبين من الموضوعية في هذا الباب بحاجة إلى إرساء عدد كبير من الضوابط والاحترازات والاستثناءات؛ حتى نشعر أننا نتحلى بفضيلة الإنصاف، والتحرر ـ ولو إلى حد ـ من الدوران في فلك الخصوصيات النفسية والثقافية والمزاجية والظرفية..

فكيف تجلى فعل علماء المسلمين في هذا الصدد؟

ينبغي أن يقال أولاً: إن أكثر علماء الأمة دقة في هذه المسألة هم المحدِّثون؛ حيث إنهم بذلوا جهوداً ضخمة في سبيل الوصول إلى معايير دقيقة في تقويم الرجال تمهيداً لتصنيفهم في سلم العدالة والضبط توسلاً بعد ذلك إلى الحكم على مروياتهم قبولاً ورداً. ولا يعني كون المحدثين أئمة هذا الشأن أن فئات المختصين الأخرى كانت خلواً منه؛ حيث إن منهاجيات الحياة الإسلامية كلها تدفع المسلم دفعاً نحو محاولة إنصاف الآخرين! لكن مع هذا وذاك فإن صوراً غير قليلة مما

---

(١) فتاوى ابن تيمية: ٤/٤٨٢.

يخدش الموضوعية كانت واضحة في حياة بعض علماء الأمة على ما سنراه لاحقاً بحول الله تعالى.

وإليك أهم المفردات التي تجلت فيها موضوعية علماء المسلمين في الحكم على الأشخاص:

(أ) إن النظرة الإسلامية العامة للإنسان أنه خلق في هذه الحياة للابتلاء من خلال مجموعات الأوامر والمناهي التي عليه أن يخضع لها؛ وهذا يستلزم قابلية هذا الإنسان للاندفاع نحو الخير والشر، وهذه القابلية تظل مصاحبة للإنسان مدى حياته، ولولا تزويد الله ــ تعالى ــ للإنسان بهذه القابلية لكان في تكليفه ومخاطبته بالشرائع نوع من الظلم له؛ والله ــ تعالى ــ منزه عن ذلك.

ونظراً لكثرة أنواع الخيرات وأنواع الشرور، وتفاوت مقاديرها فإن المسلمين يرون أنه لا يوجد إنسان هو خير محض، ولا إنسان هو شر محض ــ إلَّا من عصم الله ــ. وتنسحب هذه النظرة على الجماعات والطوائف والملل؛ فمقادير الخيرات والكمالات تتفاوت بين ملة وأخرى، وكذلك درجات الشرور والنقائص تتفاوت بين أمة وأخرى.

وهذا في الحقيقة يعد مدخلاً مهماً نحو موضوعية الأحكام التي يصدرها بنو البشر على بعضهم بعضاً، كما أنه مقدمة ضرورية لتكوين هامش ما يمكن أن يلتقي فيه أبناء آدم. ويبدو أن هذه النظرة الموضوعية إرث من إرث الأنبياء ــ عليهم السلام ــ؛ فقد ذكروا أن عيسى مرَّ مع مجموعة من أصحابه على شاة ميتة قد انتفخت، وتغيرت، فجعلوا يصفونها بالنقائص التي توصف بها أمثالها. لكن عيسى ــ عليه السلام ــ لفت نظرهم إلى شيء هو في المعايير العامة مستحسن، فقال: لم يقل أحد منكم: ما أشد بياض أسنانها؟! يلفت انتباههم إلى أن الميتة لا تخلو من شيء تتميز به.

ولعل من السوابق التاريخية في تأصيل هذه النظرة الكلمات المشهورة التي رويت عن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنه ــ في وصف الروم حيث قال: إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم

كــرة بعــد فــرة، وخيــرهــم لمسكين وضعيف؛ وخــامســة جميلة: أمنعهم من ظلم الحكام!

وعلى هذا المنوال من الاعتقاد بوجـود الخير والشـر في الناس، وإن تفـاوتت النسب يقـول ابن تيميـة ـ رحمـه الله ـ : «ولا ريب أن في كثيـر من المسلمين من الظلم والجهل والبـدع والفجور مـا لا يعلمه إلاَّ الله؛ لكن كـل شر يكـون في بعض المسلمين فهـو في غيـرهم أكثــر، وكـل خيــر يكـون في غيــرهم فهـو فيهم أعلى وأعـظم»[(١)]. فعند المسلمين خيـر وشر، وعنـد غيـرهم كـذلـك، لكن الخِيـر عنـد المسلمين أعظم والشر أقل!.

ويقول أيضاً: «وقـد ذهب كثير من مبتـدعة المسلمين من الـرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفـار، فأسلم على يـديه خلق كثيـر، وانتفعوا بـذلك، وصـاروا مسلمين مبتـدعين؛ وهو خيـر من أن يكونـوا كفاراً. وكـذلك بعض الملوك قـد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار، ويكـون آثماً بـذلك؛ ومـع هذا فيحصـل به نفـع خلق كثير كانوا كفاراً، فصاروا مسلمين. وذلك كان شراً بـالنسبة للقـائم بالـواجب؛ وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير. . . »[(٢)].

وقال في أهل البدع أيضاً: «والرافضة فيهم من هـو متورع زاهـد، لكن ليسوا في ذلك مثل غيرهم من أهل الأهواء؛ فالمعتزلة أعقـل منهم وأعلم وأدين، والكذب والفجـور فيهم أقل منـه في الرافضـة. والزيـدية من الشيعـة خير منهم: أقـرب إلى الصدق والعدل والعلم. وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أعبد من الخـوارج. ومع هذا فأهل السنة والجماعة يستعملون معهم العدل والإنصاف، ولا يـظلمونهم؛ فـإن الظلم حرام مطلقاً، كما تقدم، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض»[(٣)].

---

(١) الفتاوى: ٤/ ٢٤.

(٢) منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال: ص ٣٨.

(٣) السابق: ص ٤٠، ٤١، وقواعد في علوم الحديث: ص ٤٤٤.

هذه النظرات الرائعة مستشف كثير منها من مجريات سلوك الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع بعضهم بعضاً؛ فقد شهروا السيوف على بعضهم، وجرى بينهم من القتال ما هو معروف، ومع هذا فإنه كان يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويتوارثون، ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض[1] وهذا كله نابع من النظرة التفصيلية التي أسسها الإسلام، على نحو ما ذكرنا في الفضاء النظري للموضوعية.

(ب) مراعاة اختلاف أحوال بني البشر:

نظر علماء المسلمين إلى الإنسان على أنه خطاء تواب؛ فهو ساحة المعترك بين الحق والباطل؛ فتارة ينتصر الحق على الباطل عنده، وتارة يهزم، وتارة يغلب عليه الإنصاف، وتارة الظلم؛ وأدركوا كثيراً من الظروف والملابسات التي تضعف من مقاومته لأهوائه وشهواته؛ ومن ثم فإنهم لم يأخذوا بكل قول يقال مجرداً عن ظروفه وسياقاته، وإنما حاولوااستبطان الأمور، والنفاذ إلى الدوافع الخافية من أجل حكم متوازن منصف. ونجد لهذا أمثلة كثيرة ثرة؛ فالمرء قد يتكلم بكلام تكون دلالته العرفية المحلية مغايرة لما عرف من دلالته المعجمية العامة، وحينئذ فلا بد من إدراك ذلك، وإلاَّ حمل الكلام من لزوميات الأحكام ما لا يحتمل؛ من ذلك أن بعض المحدثين أسقط عدالة عكرمة مولى ابن عباس استناداً على ما روي عن علي بن عبد الله بن عباس أنه قال: إنه ـ أي: عكرمة ـ يكذب على أبيه. وقد رد عليهم ابن جرير الطبري بقوله: «ومن ثبتت عدالته لم يقبل فيه الجرح، وما تسقط العدالة بالظن، وبقول فلان لمولاه: لا تكذب عليَّ، وما أشبهه من القول الذي له وجوه وتصاريف ومعان غير الذي وجهه إليه أهل الغباوة، ومن لا علم لهم بتصاريف كلام العرب»[2]. فالمرء قد يقول لابنه أو لمولاه لا تكذب علي، وهو لا يريد أنه وقع الكذب منه حقيقة، وإنما المصارحة بالحقيقة، وعدم صرف الكلام عن مساره.

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية: ٣/٢٨٥، وكذلك: ٧/٥٠٧.

(٢) هدي الساري: ص ٤٢٩.

ونحو من هذا في سوء فهم دلالات الكلام وتجاهل ظروف وقوعه ما ذكره الحافظ ابن حجر في ترجمة زيد بن وهب الجهني من توثيق الجمهور له، وقوله: وشذ يعقوب بن سفيان الفسوي، فقال: في حديثه خلل كثير؛ ثم ساق يعقوب من روايته قول عمر في حديثه: «يا حذيفة بالله أنا من المنافقين؟» قال الفسوي: وهذا محال. قال ابن حجر: هذا تعنت زائد، وما بمثل هذا تضعف الأثبات، ولا ترد الأحاديث الصحيحة، فهذا صدر من عمر عند غلبة الخوف، وعدم أمن المكر؛ فلا يلتفت إلى هذه الوساوس الفاسدة في تضعيف الثقات»(١).

فعدم إدراك الفسوي لنفسية عمر ومقام الخوف الذي قال فيه ذلكَ حمله على تكذيب زيد في روايته وعدِّ كلام عمر محالاً!! وقد رد عليه ابن حجر بما يستحق. ومن ذلك أن المرء قد يتكلم ببعض الكلام، وهو غير مالك لقواه العقلية، ويكون في ذلك الكلام ما يؤخذ عليه؛ فيلتمس أهل العلم المعذرة له؛ لما غلب عليه من الضعف؛ فقد قال ابن تيمية: «قد يقع بعض من غلب عليه الحال في نوع من الحلول أو الاتحاد؛ فإن الاتحاد فيه حق وباطل، لكن لما ورد عليه ما غيَّب عقله، أوأفناه عما سوى محبوبه، ولم يكن ذلك بذنب منه كان معذوراً غير معاقب عليه ما دام غير عاقل»(٢).

وقال الذهبي في ترجمة صالح بن محمد جزرة: أصيب بالحمى، فكان الأطباء يختلفون إليه؛ فلما أعياه الأمر أخذ العسل والشونيز (الحبة السوداء)، فزادت حماه، فدخلوا عليه، وهو يرتعد، ويقول: بأبي أنت يا رسول الله ما كان أقل بصرك بالطب!!. قال الذهبي: هذا مزاح لا يجوز مع سيد الخلق ﷺ ولعل صالحاً قال هذه الكلمة من الهُجر ـ أي الهذيان ـ في حالة غلبة الرعدة؛ فما وعى ما يقول، أو لعله تاب منها؛ والله يعفو عنه(٣).

---

(١) هدي الساري: ص ٤٠٤.

(٢) الفتاوي: ٢/٣٩٦.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٩.

ومن هذا القبيل إدراكهم لما تثيره الشحناء والعداوة بين الأقران والنظراء من ظلم بعضهم لبعض وتضخيم بعضهم سيئات بعض مع الإغضاء عن المناقب والحسنات؛ على قاعدة ذلك الشاعر الذي مدح فأطنب عند الرضا، فلما غضب هجا، فأقذع؛ فلما سئل عن ذلك قال: رضيت، فقلت أحسن ما أعلم، وسخطت، فقلت أسوأ ما أعلم!!. ولهذا أمثلة كثيرة جداً. منها ما ذكره الذهبي أيضاً في ترجمة مطيَّن محمد بن عبد الله الحضرمي حيث قال: كان متقناً؛ وقد تكلم فيه محمد بن أبي شيبة، وتكلم هو فيه، فلا يعتد غالباً بكلام الأقران، ولا سيما إذا كانت بينهما منافسة(١).

وقال في ترجمة أبي مسلم الليثي: قال فيه أبو زكريا بن مندة: هو أحد من يدعي الحفظ، إلَّا أنه يدلس، ويتعصب لأهل البدع، كلما هاجت ريح قام معها!. قال الذهبي: آل مندة لا يعبأ بقدحهم في خصومهم، كما لا يُلتفت إلى ذم خصومهم. وأبو مسلم ثقة في نفسه(٢).

وقال ابن حجر في ترجمة عبد الله بن ذكوان: أحد الأئمة الأثبات، وثَّقه الناس. ويقال: إن مالكاً كرهه؛ لأنه كان يعمل للسلطان. وقال ربيعة الرأي: إنه ليس بثقة. قلت: لم يلتفت الناس إلى ربيعة في ذلك للعداوة التي كانت بينهما(٣).

وقد يضعون أصبعهم على سبب الجفوة بين عالمين، فينصون عليه، ويكشفون بذلك عن الزغل الذي دخل الحكم، على نحو ما ذكره الحافظ ابن حجر في ترجمة أحمد بن صالح المصري الطبري من أن النسائي كان سيء الرأي فيه؛ لأن النسائي لما قدم مصر أراد من أحمد أن يحدثه، وكان من عادة أحمد ألا يحدث إنساناً حتى يسأل عنه. وأن النسائي قد صحب قوماً من أهل الحديث لا يرضاهم أحمد؛ فأبى أن يحدثه. فذهب النسائي، فجمع الأحاديث التي وهم فيها أحمد،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/٤٠٨.

(٢) السابق: ١٨/٤٠٨.

(٣) هدي الساري: ص ٤١٣.

وشـرع يشنع عليـه. وما ضـره ذلك شيئـاً. وأحمد إمـام ثقة[1]. معـرفـة مثـل هـذه الملابسات في حياة الرواة والعلماء برأت أعـراضاً كثيـرة، وحمت منهج الاستـدلال من هزات كثيرة يمكن أن تؤدي إلى الاضطراب والانحلال.

ولم تقتصـر معرفـة علماء الحـديث على العلاقـات الفرديـة بين الأشخـاص؛ لكنها تجاوزت ذلـك إلى معرفـة مزاج مـدن وطوائف وأشخـاص تجاه بعض المـدن أو المذاهب الأخرى! وهذا ليس بالأمـر السهل؛ لأنه يتـطلب استقراء واسعـاً، ونظراً مركباً!. وهذا على نحو ما حدث الحافظ ابن حجر في ترجمة أحمـد بن عبد الملك الحراني أن الميموني قال للإمام أحمد: إن أهـل حران يسيئـون الثناء عليـه؟ فقال: أهـل حران قـلَّ أن يرضـوا عن إنسان! هـو يغشى السلطان بسبب ضيعـة لـه. قـال ابن حجر: فأفصـح أحمد بـالسبب الذي طعن فيـه أهل حـران من أجله؛ وهو غيـر قادح[2].

ونحو من هذا طعنُ ابن سعد في محارب بن دثـار، وزعمه أنـه لا يحتج بـه. وقد قال ابن حجر: احتج به الأئمة كلهم؛ لكن ابن سعد يقلد الواقـدي، والواقـدي على طريقة أهل المدينة في الانحراف عن أهل العراق[3]!

ومن هـذا القبيل اشتـداد البخاري على أهـل بخارى بعـد أن أخرجـوه لفتوى أفتاها؛ فأخذ يبدي بعض التشدد عليهم؛ وهي نفثة مصدور لا تقوم بها حجة[4].

وقريب من هذا تعصب الجوزقاني على الكـوفيين، والخطيب البغـدادي على أبـي حنيفة وأحمد، والدارقطني على أبـي حنيفة[5].

ومن لـطيف مـا أدركـه علمـاء المسلمين تفـاوت النـاس في الأحكـام التي

---

(١) هدي الساري: ص ٣٨٦.

(٢) السابق: ص ٣٨٦.

(٣) قواعد في علوم الحديث: ص ٣٩٦.

(٤) السابق: ص ٣٨٢ (الهامش).

(٥) السابق: ص ١٩٢.

يصدرونها بحسب المواقع الثقافية التي يحتلونها، والأمزجة النفسية التي يتلبَّسون بها، فالحافظ الكبير ينظر إلى غيره نظرة تخالف نظرة من هو متوسط الحفظ، تماماً كما نقوِّم نحن الآن المؤلفات حيث يقول أحدنا في كتاب: إنه رائع ونفيس على حين يقول فيه آخر: ليس فيه جديد!.

إن اختلاف النظر في هذا بعضُ تطبيقات قانون النسبية. وقد نظر كثير من أهل العلم في أحوال كثير من الأئمة الذين قصدوا للجرح والتعديل، وتصحيح الأحاديث وتضعيفها؛ فمنهم من عرف بالتشدد، ومنهم من عرف بالتوسط أو التساهل. فممن صُنِّف مع المتشددين أبو حاتم والنسائي وابن معين وأبو الحسن بن القطان ويحيى بن سعيد القطان وابن حبان وابن الجوزي[1]. وممن عرف بالتوسط أحمد بن حنبل. وممن عرف بالتساهل الحاكم النيسابوري، وهكذا... وفائدة هذه التقسيمات والتصنيفات جليلة، فسكوت المتشدد عن رجل، فيه نوع من التزكية له، وانفراد متشدد بالجرح عن الجماعة يُعزى إلى مقاييسه، ولا يضر كثيراً!.

ومن التطبيقات لهذه النظرة الحصيفة قول ابن حجر: النسائي ـ مع تعنته ـ احتج بأحمد بن عيسى التستري المصري[2]. ويذكرون من أمثلة التشدد في الجرح ما نقل عن بعضهم أنه قيل له: لم تركت حديث فلان؟ فقال: رأيته يركض على برذونه، فتركت حديثه!!. ومنها أنه سئل بعضهم عن حديث لصالح المرى؟ فقال: ما يصنع بصالح؟!. ذكروه عند حماد بن سلمة، فامتخط حماد[3]!!. وغير هذا كثير.

وإدراكاً منهم لاختلاف المقاييس والمعايير التي ينطلق منها الناس في تقويم الأشخاص والأفكار والأحداث كان القول المرضي عند المحدثين أن التعديل يقبل

(١) قواعد في علوم الحديث: ص ١٧٨، وما بعدها.

(٢) هدي الساري: ص ٣٨٧.

(٣) الباعث الحثيث: ص ٧٨.

مبهماً؛ لأن الأصل في المسلم العدالة، ولكثرة أسبابه، أما الجرح فينبغي أن يكون مفسراً ــ في الجملة ــ ؛ لأن الأسباب التي بنى عليها المحدث جرحه قد لا تكون كافية لإسقاط الاحتجاج[١]، أو لأنه قرأ بعض أحواله، أو بعض ما قيل فيه قراءة خاطئة، مبعثها الوهم أو سوء التقدير؛ فيكون في ذلك ظلم وإخلال بالعدل الذي قامت عليه السموات والأرض. فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر في أحمد بن المقدام العجلي من أن أبا داود قال: إنه لا يُحدَّث عنه؛ لأنه كان يعلم المجّان المجون؛ كان مجان بالبصرة يصرون صُرَرَ دراهم، فيطرحونها على الطريق، ويجلسون ناحية، فإذا مرَّ مارّ بصرة، وأراد أن يأخذها صاحوا: ضعهَا ضعها، ليخجل الرجل. فعلَّم أبو الأشعث المارة، فقال لهم أعدوا صرر زجاج كصرر الدراهم، فإذا مررتم بصررهم، فأردتم أخذها، فصاحوا بكم، فاطرحوا صُرَرَ الزجاج، وخذوا صرر الدراهم التي لهم. ففعلوا ذلك. وقد تعقب ابن عدي كلام أبي داود هذا، فقال: لا يؤثر ذلك فيه؛ لأنه من أهل الصدق. قال الحافظ: ووجه عدم تأثيره فيه أنه لم يعلم المجان، كما قال أبو داود، إنما علم المارة الذين كان قصد المجان أن يخجلوهم؛ وكأنه يذهب مذهب من يؤدب بالمال»[٢].

ومن هذا القبيل أيضاً ما ذكره ابن حبان في ترجمة بشر بن شعيب الحمصي حيث قال: وروي عن البخاري أنه قال: تركناه. قال الحافظ ابن حجر: وهذا خطأ من ابن حبان نشأ عن حذف؛ وذلك أن البخاري إنما قال في تاريخه: تركناه حياً سنة اثنتي عشرة، فسقط من نسخة ابن حبان لفظة (حياً) فتغير المعنى[٣].

ومما يعرض للإنسان من الأحوال اختلاط العقل بسبب الكبر، أو بسبب مرض، وهذا يؤدي طبعاً إلى عدم الأخذ عنه. وقد حرص المحدثون على بيان تاريخ الاختلاط؛ فيوثق بما روي عنه قبل الاختلاط، ويُهدر ما روي عنه بعده. ومن

---

(١) الباعث الحثيث: ص ٧٨.

(٢) هدي الساري: ص ٣٨٧.

(٣) السابق: ص ٣٩٣.

اللطيف في هذا أن أسرة الراوي قد تكون على وعي بما يترتب على الرواية عن مختلط؛ فتصير إلى حجبه عن الناس، ويمنعون الناس من الرواية عنه. فمن ذلك أن ابن سعد قال: جرير بن حازم الأزدي ثقة، إلَّا أنه اختلط في آخر عمره. قال ابن حجر: لكنه ما ضره اختلاطه؛ لأن أحمد بن سنان قال: سمعت ابن مهدي يقول: كان لجرير أولاد، فلما أحسوا باختلاطه حجبوه، فلم يسمع أحد منه في حال اختلاطه شيئاً[1].

هذه التفصيلات ـ وغيرها كثير ـ في أحوال الناس ليس لها مثيل عند أمة من الأمم، وهي تمثل قمة الموضوعية، ويحق لنا أن نفاخر بها حقاً. وكثير من مشكلاتنا اليوم يعود إلى أن كثيراً من تجريح الناس يتم بإلقاء القول على عواهنه دون أية ضوابط، أو إدراك لشيء من الظروف الخاصة. وهذا ليس عند العامة؛ ولكن عند الخاصة وخاصة الخاصة!!؛ والله المستعان.

(ج) اللغة الكمية:

تشكو معالجة القضايا الإنسانية كافة من نسبية دلالة الألفاظ الواصفة لأحوالنا وأحوال كل ما نتعامل معه من حولنا، فحين نقول: فلان غني، فما هو غناه؟ من الواضح أن معنى هذه الكلمة يحدده حال القائل؛ فالمدقع الذي لا يملك شيئاً يرى أكثر الناس أغنياء على حين تكون نظرة كبار الأثرياء لمدلول هذه الكلمة عندما يستخدمونها مختلفة تماماً. وحين نقول: الأمية عالية في بلادنا، فما المراد من هذه الكلمة، وما هي النسبة الحقيقية للأميين في مجموع الشعب، وهكذا... واستخدام اللغة الكمية اليوم يمثل مؤشراً هاماً من مؤشرات التقدم العلمي؛ ومن هنا كانت محاولات المحدثين في هذا الصدد قفزة ذهنية، وحضارية متفردة، وذلك حين عمدوا إلى تحديد معاني الألفاظ الدالة على الجرح والتعديل وترتيبها؛ لانعكاس ذلك على قيمة النص الذي يرويه العالم، وقيمة الرأي الذي يبديه. وصحيح أن كل تحديد في هذا الباب سيظل قاصراً عن بلوغ النهاية، لكن ما فعلوه

---

(١) هدي الساري: ص ٣٩٥. وانظر أيضاً في نحوه: ص ٣٩٦.

كان أقصى ممكن في حول البشر! وإليك تلخيصاً لما ذكره الحافظ ابن حجر في مقدمة تقريب التهذيب حول تلك التحديدات، وقد جعلها في اثنتي عشرة مرتبة:

(١) الصحابة. (٢) من أكد مدحه بأفعل، كأوثق الناس، أو بتكرار الصفة لفظاً، نحو قولهم: ثقة ثقة، أو معنى نحو: ثقة حافظ. (٣) من أفرد بصفة مثل: ثقة أو متقن أو ثبت. (٤) من قصر عن ذلك قليلاً: كصدوق، أو لا بأس به. (٥) من قصر عن ذلك قليلاً كصدوق سيىء الحفظ، أو صدوق يهم، أوله أوهام، أو يخطىء، أو تغير بأخرة. ويلتحق بهذه المرتبة من رمي بنوع بدعة، كالتشيع، والقدر والنصب والإرجاء والتجهم. (٦) من ليس له من الحديث إلاَّ القَليل، ولم يثبت فيه ما يترك حديثه من أجله. ويشار إليه بـ (مقبول). (٧) من روى عنه أكثر من واحد، ولم يوثق. ويشار إليه عادة بـ (مستور الحال)، أو (مجهول الحال). (٨) من لم يوجد فيه توثيق معتبر، وجاء فيه تضعيف وإن لم يبين، ويشيرون إليه بـ (ضعيف). (٩) من لم يرو عنه غير واحد، ولم يوثق. ويقال فيه: (مجهول). (١٠) من لم يوثق ألبتة، وضعف مع ذلك بقادح. ويقال فيه: (متروك، أو واهي الحديث، أو ساقط). (١١) من اتهم بالكذب. ويقال فيه: (متهم، ومتهم بالكذب). (١٢) من أطلق عليه اسم الكذب، أو الوضع، نحو قولهم: (فلان كذاب، أو وضاع، أو يضع، أو ما أكذبه)[١].

وهذه التحديدات لم تعقد لها المؤتمرات، ولا وقع عليها الإجماع؛ ولذا فإن نوعاً من التفاوت في استعمال هذه الألفاظ قد يقع عندهم؛ فهذا الذي ذكرناه تقريبي.

وقد بين الشيخ أحمد شاكر ــ رحمه الله ــ انعكاس هذه الألقاب على قبول الحديث ورده حين ذكر أن ما كان من الدرجة الثانية والثالثة فحديثه صحيح من الدرجة الأولى، وغالبه في صحيحي البخاري ومسلم. وما كان من الدرجة الرابعة فحديثه صحيح من الدرجة الثانية، وهو الذي يُحسِّنه الترمذي. وما بعد الرابعة فمن

---

(١) انظر الباعث الحثيث: ص ٨٨، قواعد في علوم الحديث: ص ٢٤٢، وما بعدها.

المردود إلاَّ إذا تعددت طرقه. وما كان من الخامسة والسادسة فإنه يتقوى حتى يصبح حسناً لغيره. وما كان من السابعة فما بعدها فضعيف على اختلاف درجات الضعف من المنكر إلى الموضوع[١].

(د) الإنصاف:

لعل من أشد ما نحتاجه اليوم في التعامل مع بعضنا بعضاً خلق الإنصاف الذي يقتضي ذكر محاسن الشخص ومثالبه عند الحاجة إلى تقويمه مهتدين بقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[٢].

فإذا ذكر فاسق، أو شاعر ملحد، أو عدو عاقل، وأردنا تقويمه وجب أن يشار إلى الصفتين معاً إنصافاً له أولاً، ومحافظة على رؤية متوازنة للأمور ثانياً، وحرصاً على تكوين مزاج صحيح للأمة ثالثاً، وإبقاء على هامش للتفاعل معه رابعاً. وهذا ما مضى عليه الراشدون من سلف هذه الأمة إلى أن تفشت الأوبئة الخلقية، والعور الفكري، وعمى الألوان، وتحولت الأمة الواحدة إلى أحزاب و (كل حزب بما لديهم فرحون). وإليك طرفاً من إنصاف علماء المسلمين لمن ترجموا لهم، أو تحدثوا عنهم؛ لنعلم ما كانت عليه الأمور، ثم ما آلت إليه!!.

وفي البداية أود أن أقول: إن ما يميز أهل الحق عن أهل الأهواء أن أهل الحق يروون، ويكتبون، ويعرضون ما لهم وما عليهم، ما يوافق رغباتهم، وما يخالفها أداءً للأمانة ولعرض الصورة الكاملة عن الحقائق أمام الناس. وهذا ما قاله عبد الرحمن بن مهدي حين ذكر أن أهل العلم يكتبون ما لهم، وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلاَّ ما لهم[٣]. وقد ماجت حياة المسلمين بأهل البدع والأهواء، كما أن تاريخنا لم يخل من المحن والفتن التي تجعل الحليم حيران. وكانت تلك

---

(١) الباعث الحثيث: ص ٨٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٥.

(٣) قواعد في علوم الحديث: ص ٤٤٤.

العواصف تترك ما لا يحصى من خلاف الرأي بين أهل السنة والجماعة!. ولعل مما يذكر نموذجاً لذلك محنة خَلْق القرآن التي أحدثت من الشروخ في مواقف أهل العلم من بعضهم بعضاً ومن البلبلة والاضطراب في أحوالهم ما لا يحصيه العجلان[1].

إن من العلماء من امتنع عن القول بخلق القرآن، ومنهم من تكلم بكلام يحتمل غير وجه، ومنهم من قال بخلق القرآن ليدفع عنه العذاب، ثم عاد، وصرح للناس، بحقيقة معتقده، ومنهم من انساق وراء رغبة الدولة معتقداً صحة ذلك، أو مسايراً لها قنصاً للمنافع! وترتب على ذلك وملابساته أن كثيراً من طلاب العلم جعل من هذه القضية معياراً لعدالة العلماء وصحة الرواية عنهم. ولا يكفي عند بعضهم أن يصرح المرء بالعقيدة الصحيحة، لكن عليه أن يقول بكفر من يقول: إن القرآن مخلوق وإلَّا فلا يلومن إلَّا نفسه!! ومن أمثلة هذا أن عمر بن شعبة امتحن بسُرَّ من رأى (من قبل بعض رواة الحديث) فقال: القرآن كلام الله ليس بمخلوق. فقالوا له: فتقول من وقف (أي لم يقل هو مخلوق أو غير مخلوق) فهو كافر؟ فقال: لا أكفر أحداً. فقالوا له: أنت كافر، ومزقوا كتبه[2].

ويروون أن الحارث المحاسبي أبى أن يأخذ شيئاً من ميراث أبيه، وقال: أهل ملتين لا يتوارثان! وكان أبوه من الواقفة!!.

لكن من رحمة الله لهذه الأمة أن الحق لا يضيع فيها، وإن قل الملتزمون به؛ ومن ثم فإن سدنة المنهج الإسلامي كانوا ـ على الأغلب ـ يضعون الأمور في نصابها، ولا يخافون في الله لومة لائم.

وأول ما يصادفنا من مفردات منهجهم في هذا الباب انتصاف الواحد منهم من نفسه بالرجوع عن الخطأ، أو الاعتراف لبعض طلابه بأنه أعلم منه في بعض

---

(١) انظر ما سطره ابن قتيبة في كتابه: (اختلاف اللفظ)؛ لتعرف فداحة الخطب.

(٢) تاريخ بغداد: ١١/٢٠٩.

العلوم. وأمثلة هذا أكثر من أن تحصر، لكننا لا نقصد هنا إلى الإحفاء والاستقصاء، وإنما إلى التمثيل، فحسب.

فمن ذلك ما ذكره الإمام الذهبي من قوله: «ذكرت في تاريخي الكبير أن سلمان الفارسي عاش ٢٥٠ سنة، وأنا الساعة لا أرتضي ذلك، ولا أصححه»[١].

فالعلم ينمو، والتراجع عن قول قاله عالم إلى الصواب يقتضيه نمو العالم، ومسؤوليته الأخلاقية. ومن ذلك ما ذكره إسماعيل بن قيس قال: شهدت جنازة فيها الأشعث وجرير، فقدَّم الأشعث بن قيس جريراً، وقال: إن هذا لم يرتد، وإني ارتددت[٢]. ومن هذا القبيل أيضاً ما نقل عن الإمام الشافعي أنه قال لتلميذه الإمام أحمد بن حنبل: أيتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً[٣].

إن هذه النماذج الخيرة هي التي توجد طاقة الانتصاف من النفس، وإيثارَ الحق عند الأمة على النفس والأهل. وإن الذين يضحون بخصوصياتهم في سبيل المنهج لحفظ حيوية الأمة لا يقلون بذلاً عن الذين يضحون بأرواحهم لصيانة حياة الأمة!!.

ومما نجده في باب الإنصاف المواقف الشجاعة التي ينقد فيها المرء أخص أقربائه، ويكشف عن أحوالهم في سبيل نصاعة الحقيقة، وحفظ مراشد الحق من الانطماس مع ما يثيره ذلك من حزازات وشقاقات داخل الأسرة الواحدة. فقد قال الذهبي في ابنه أبي هريرة: إنه حفظ القرآن، ثم تشاغل عنه، فنسيه[٤].

وقال شعبة: لو حابيت أحداً حابيت هشام بن حسان، كان ختني، ولم يكن يحفظ. وسئل علي بن المديني عن أبيه، فقال: سلوا غيري. فأعادوا، فأطرق، ثم

---

(١) السير: ١/٥٥٦.

(٢) السابق: ٢/٤٠.

(٣) السابق: ١٠/٣٣.

(٤) مقدمة السير: ١/١٣٤.

رفع رأسه، وقال : هو الدين. وكان أبو داود السجستاني يكذب ابنه. وقال عبد الله بن عمرو: قال لي زيد بن أبي أنيسة: لا يكتب عن أخي؛ فإنه كذاب[1]!!.

لكن كل نقد يتطامن أمام ما فعله أبو عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ من قتله أباه يوم بدر حيث كان في صفوف المشركين[2]!!.

ومن أجمل مظاهر الإنصاف إنصاف الخصوم، كما كان من أجمل مظاهره الانتصاف من النفس والأقرباء! وإنصاف الخصوم بذكر محامدهم ومناقبهم ليس بالأمر اليسير على النفس البشرية؛ إذ إن عين السخط لا ترى إلاَّ في اتجاه واحد! ونجد في هذا المقام اعتدال أهل السنة والجماعة مع الفرق والطوائف التي يرون انحرافها عن الحق، وانغماسها في الانحراف، وهذا مع أن كثيراً من الفرق لم ينصفوا أهل السنة والجماعة، بل إن منهم من يكفرهم، ومع هذا فإنهم يعطونهم حقهم دون بخس أو شطط! وكان الإطار النظري في مقام الرواية يتمثل عند كثير من علماء الحديث في أمرين: الأول تقسيم البدعة إلى مكفرة وغير مكفرة، فإذا كانت البدعة مكفرة لم يحكم للمتلبس بها بالوثاقة، ولم تقبل روايته؛ لعدم وجود عاصم يعصم من الكذب بعد ذهاب الدين. وإن لم تكن البدعة مكفرة قبلت الرواية بشرط ألا يكون المبتدع داعياً إلى بدعته؛ حيث إن النشاط في نشر عقيدة منحرفة يحمل صاحبه في بعض الأحيان على الكذب. ويضاف إلى هذا أن يكون المبتدع ممن يستحل الكذب كالخطابية والرافضة؛ حيث إنهم يرون الشهادة بالزور لموافقيهم! ويرى ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ أن التحقيق أنه لا يُردُّ كل مكفَّر ببدعته؛ لأن كل طائفة تدعي أن مخالفتها مبتدعة، وقد تبالغ، فتكفِّر؛ فلو أخذ ذلك على الإطلاق لاستلزم تكفير جميع الطوائف. والمعتمد أن الذي ترد روايته من أنكر أمراً متواتراً من الشرع، معلوماً من الدين بالضرورة، أو اعتقد عكسه. وأما من لم يكن

---

(١) انظر منهج أهل السنة في تقويم الرجال: ص ٤٨.
(٢) حلية الأولياء: ١/١٠١.

كذلك، وانضم إلى ذلك ضبطه لما يرويه مع ورعه وتقواه فلا مانع من قبوله[1]. وهذا من أهل الحق غاية الإنصاف للخصوم! أما على المستوى العملي فنجد الكثير الكثير من الشواهد التي تدعم ذلك التوجه الذي أشرنا إليه؛ فمن ذلك أن الشيخين البخاري ومسلماً رويا عن العشرات من أهل الأهواء والبدع كالخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية وغيرهم[2].

قال حسين الغازي: سألت البخاري عن أبي غسان النهدي؟ قال: وعماذا تسأل؟ قلت: التشيع؟ قال: هو على مذهب أهل بلده، ولو رأيتم عبيد الله بن موسى وأبا نعيم وجماعة مشايخنا من الكوفيين لما سألتمونا عن أبي غسان! قال الذهبي: وقد كان أبو نعيم وعبيد الله معظمين لأبي بكر وعمر، وإنما ينالان من معاوية وذويه[3].

ومن جميل ما سطره يراع أهل السنّة والجماعة جعلهم البدعة درجات، وذلك اتساقاً مع منهجهم في النظرة التفصيلية للأفكار والمواقف والأشخاص، وفي هذا ورد قول الذهبي معلقاً على قول ابن قتيبة: بشر المريسي كافر، حيث قال: هو بشر الشرِّ، كما أن بشراً الحافي بشر الخير، ومن كفر ببدعة، وإن جلت ليس هو مثل الكافر الأصلي، ولا اليهودي، ولا المجوسي؛ أبى الله أن يجعل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وصام وصلّى وحجَّ، وزكّى، وإن ارتكب العظائم، وضلَّ، وابتدع كمن عاند الرسول، وعبد الوثن، ونبذ الشرائع، وكفر، ولكن نبرأ إلى الله من البدع وأهلها[4].

وذكر الخطيب البغدادي عن يحيى بن معين قوله: «يقدم عليكم رجل من أهل الكوفة، يقال له: عبد الرحمن بن صالح ثقة، صدوق شيعي، لأن يخر من

---

(١) شرح نخبة الفكر: ص ٥٠.
(٢) انظر هدي الساري: ص ٤٥٩.
(٣) السير: ١٠/٤٣٢.
(٤) السابق: ١٠/٢٠٢.

السماء أحب إليه من أن يكذب في حرف»[1].

وكان عبد الرحمن هذا يغشى مجلس أحمد بن حنبل، فيقربه، ويدنيه. فقيل له في ذلك، فقال: سبحان الله رجل أحب قوماً من أهل بيت النبي ﷺ نقول له: لا تحبهم!. هو ثقة[2].

وحين يترجم أهل السنة والجماعة لأحد من أهل الأهواء فإنهم ينصفونه بذكر صورة كاملة فيها المناقب والمثالب، كما يفعلون تماماً حين يترجمون لواحد منهم، وهذا ما نلمسه في عدد كبير من الشواهد، منها: قول الذهبي في صِدقة بن الحسين: العلامة الفَرَضي المتكلم المتَّهم في دينه[3].

وقوله في الشهاب السهروردي المقتول سنة ٥٨٧: العلامة الفيلسوف من كان يتوقد ذكاء إلَّا أنه قليل الدين! وقوله في ابن الكلبي: العلامة الأخباري النسابة الأوحد أبو المنذر ابن الأخباري الباهر محمد بن السائب بن بشر الكلبي الكوفي الشيعي أحد المتروكين كأبيه[4].

وقال أيضاً: وكان محمد بن الوليد الكرخي رأس المعتزلة. وكان ذا زهد وورع وقناعة، شاخ فكان ينتقض من خشب بيته ما يمونه، وكان يلبس القطني الخام، وكان داعية إلى الاعتزال، وكان قد تورع عن ميراث أبيه[5].

على أن ذكر الصورة كاملة لمن يترجم لهم المحدثون ـ غالباً ـ ليس مقصوراً طبعاً على أهل الأهواء والبدع، وإنما اتخذوا ذلك منهجاً عاماً سواء أكان ذلك في الثقات أو الضعفاء والمجروحين، وسواء أكان ذلك في رجالات الحديث، أو رجالات الفقه أو الشخصيات العامة؛ فقد أورد أبو الفرج ابن الجوزي أبان بن

---

(١) تاريخ بغداد: ١١/٢٦٢.

(٢) السابق...

(٣) السير: ١/١٢٢.

(٤) السابق: ١٠/١٠١.

(٥) السابق: ١٨/٤٨٩.

يزيد العطار في الضعفاء، ولم يذكر فيه أقوال من وثقه، فقال الذهبي: وهذا من عيوب كتاب يسرد الجرح، ويسكت عن التوثيق[1].

وقال ابن حجر: قد تعصب مغلطاي للواقدي، فنقل كلام من قوّاه، ووثقه، وسكت عن ذكر من وهاه، واتهمه[2].

وقال الذهبي: باديس بن حبوس الصنهاجي من قواد البربر، له شرف وأبوة وعشيرة، تملك غرناطة، وجيَّش الجيوش، وحارب المعتصم صاحب المرية، وكان سفاكاً للدماء فيه عدل بجهل[3].

ومن جملة مظاهر الإنصاف عدم اعتدادهم بكل قول يقال؛ فقد يكون القائل مغرضاً، أو جاهلاً، أو متعنتاً، أو قلد من هو كذلك. وقد يكون القائل غير مؤهل لإصدار الأحكام فيما جرح، وقد يكون طعنه فيه غير معلل، والمطعون فيه موثَّق. وقد يكون عاب ما ليس موضع عيب، أو ما هو عيب نسبي لا يستدعي الإعراض عنه... إلخ.

وهذه المسألة من أعقد المسائل ذات الجذور والامتدادات العميقة في حياة الناس، ووضع الضوابط التي تؤطرها، وتقلل من الحيف فيها ضرورة حيوية، أدركها المتقدمون، وحاولوا التخفيف من غلوائها، وإن كان تيار العامة والدهماء وأولي الأهواء ظل جهير الصوت، وإن كان مدموغاً بالخروج عن الأطر النظرية والعملية التي وضعها الإسلام لهذا الموضوع!. ونجد لذلك كله نماذج فيما أجمله ابن حجر من الدفع عن بعض من تُكلِّم فيه من رجال البخاري ومسلم حيث كان مما ذكره قوله: أبان بن يزيد العطار، نقل الكديمي تضعيفه، والكديمي واه. إبراهيم بن سويد بن حيان تكلم فيه ابن حِبان بلا حجة. إبراهيم بن المنذر الحراني تكلم فيه أحمد لدخوله على ابن دؤاد. أيمن بن نابل تكلموا فيه لزيادة في حديث

(١) قواعد في علوم الحديث: ص ٢٨١.
(٢) السابق: ص ٣٤٧.
(٣) السير: ١٨/٥٩.

واحد، لعلها مدرجة. بشير بن نهيك تعنت أبو حاتم في قوله: لا يحتج به. ثابت بن عجلان ذكره العقيلي بلا موجب قدح. الحسن بن موسى لم يثبت عن ابن المديني تضعيفه. الحسين بن الحسن بن بشار جَهِله أبو حاتم، وعرفه غيره. حميد الطويل تركه ابن زائدة لدخوله في شيء من عمل السلطان. ربيعة بن عبد الرحمن تُكلم فيه بسبب الإفتاء بالرأي. عبد الواحد بن زياد البصري تكلم القطان في حفظه، وأثنوا كلهم على كتابه. عمر بن يحيى المازني غمزه ابن معين من أجل حديثين خولف فيهما. محمد بن القاسم لم يعرفه ابن المديني، وعرفه غيره. مبشر بن قانع ضعفه ابن قانع، وهو أضعف منه(١).

إن أكثر هذه العلل ـ إن لم نقل جميعها ـ غير قادح في هؤلاء الرواة؛ لخروجها عن ضوابط الجرح والتعديل، أو لكونها موضع خلاف بين أئمة هذا الشأن.

ومن إنصافهم التفصيل في جوانب المعرفة لدى أهل العلم؛ فقد يكون المرء بارعاً في علم من العلوم، لكنه مقصر في علم آخر، أو يكون غير ثبت فيما أخذه عن بعض شيوخه، ويكون حجة فيما أخذه عن شيخ آخر. وكلما تفرعت العلوم والفنون كانت الحاجة إلى هذا التفصيل أظهر. فمن ذلك ما ذكره ابن حجر في زياد بن عبد الله الطفيل من قول صالح جزرة: زياد في نفسه ضعيف، لكنه أثبت الناس في كتاب المغازي. وعن عبد الله بن إدريس: ما أجد أثبت في ابن إسحاق من صاحب المغازي(٢).

فالشخص قد يكون ضعيفاً، لكن له نوع اختصاص بعلم، أو بشيخ، فتكون روايته عنه أقوى من رواية غيره. وقال الخطيب البغدادي: قال ابن نمير: كان أبو معاوية الضرير لا يضبط شيئاً من حديثه ضبطه حديث الأعمش، وكان يضطرب في غيره اضطراباً شديداً(٣).

---

(١) انظر هدي الساري: ص ٤٦٠ ـ ٤٦٣.

(٢) قواعد في علوم الحديث: ص ٤٠٨.

(٣) تاريخ بغداد: ٥/٢٤٧.

ومن هذا الضرب ما ذكره ابن حجر في تراجم بعض رواة البخاري حين قال: سلام بن مطيع تُكلِّم في حديثه عن قتادة خاصة. عبد الكريم بن مالك الجزري تكلم ابن معين في حديثه عن عطاء خاصة. يزيد بن إبراهيم التستري تكلم القطان في حديثه عن قتادة فقط(١).

وهذا في الحقيقة يساعدنا على تصحيح النظرة إلى الأمور؛ فلا نسأل عالماً عن كل شيء فنحرجه، أو نأخذ عنه علماً يشوبه الغلط والقصور.

إن هذه التجليات الموضوعية التي سقناها تجاه التعامل مع الأشخاص هي وليدة التعاليم الإسلامية في هذا المجال. وما وجد في حياتنا قديماً وحديثاً مما يخالف ما عرضناه هو قعود عن مسايرة المنهج، أو انحراف عنه. وكلما تجذر المسلم في فهم دينه وجد نفسه مغموراً بالموضوعية دون دراية منه.

٣ ــ موضوعيتهم حيال الأفكار والأحداث:

تمثل الأفكار والأحداث والأشخاص محاور هامة أساسية في حياة البشرية؛ وبين هذه الثلاثة ارتباطات كبيرة، تجعل كل واحد منها يؤثر في الآخر، ويتأثر به. ومع أن الأحداث تقع ــ بصورة عامة ــ نتيجة فكر وجَّه طاقة بشرية نحو إنجاز ما، إلَّا أن الأحداث قد تأتي بأفكار كثيرة حبيسة، لم تكن تجد مساغاً في الواقع المعاش.

ولكل أمة من الأمم إطارها المرجعي، وثقافتها الخاصة، ويتكون من خلالهما مزاج نفسي، وعقلي يصبح على مدار الأيام إحدى لازماتها؛ وهي من خلال ذلك كله تتعامل مع الأفكار الوافدة، أو الأفكار التي تتولد في محيطها نتيجة الحركة العقلية، والثقافية والاجتماعية. وهذا التوليد قد يكون منسجماً مع ثقافة الأمة وإطارها المرجعي، وقد لا يكون؛ فالامتداد يأتي دائماً بما يخالف الاتجاه، ــ وهو الأكثر ــ وبما لا يخالفه. وحين يحدث التصادم فإن الثقافة تفرز من الأفكار والحركات ما تدافع به عن وجودها!.

---

(١) هدي الساري: ص ٤٦٢ ــ ٤٦٤.

وبما أن كل ثقافة من الثقافات تترك هامشاً للتفاعل مع الجديد الطارىء، وللتفاعل مع الثقافات الأخرى فإن جزءاً من التوليدات الخاطئة قد يدخل إلى ذلك الهامش من أجل التعامل معه بتفسيره أو تأويله. كما قد يحدث تأويل بعض ثوابت الثقافة من قبل بعض أبنائها. وبناءً على هذا فإن التعامل مع الأفكار قبولاً ورداً لن يكون سهلاً؛ حيث إن قبول الأفكار أو ردَّها ينبني بالدرجة الأولى على ما لدى الأمة من وعي بمنظوماتها العقدية والفكرية والشعورية والرمزية، أي: على مدى وعيها بذاتها الاعتبارية. هذا الوعي شامل للمبادىء والتعاليم والأشكال والمضامين والإجراءات والمقاصد.

وبما أن وعي الأمة متفاوت طبعاً بهذه الجوانب فإن مواقفها سوف تظل باستمرار في حالة اضطراب إزاء كل جديد... وهذا كله مؤسس على اعتبار أن لكل ثقافة ثوابتها التي لا تتبدل، مع أن الخبرة التاريخية تعلمنا أن كثيراً من الثقافات لا تمتلك تلك الثوابت، إنما هناك خطوط عريضة تتسم بنوع من الاستقرار، أو التغير البطيء. وتلك الخطوط قد يلفها نوع من الغموض على المستوى النظري، ونوع من عدم الفاعلية على المستوى العملي حين تسود ظروف ضاغطة بعكس اتجاهها.

وإذا ما أجلنا النظر في ثقافتنا الإسلامية وجدنا أن جوهر هذه الثقافة نابع من الوحي المتمثل في الكتاب والسنة، وقد فهم المسلمون منهما ما يمكن أن نسميه بأعمدة هذه الثقافة وأركانها، وعرفوا منهما ما يعد خروجاً صارخاً عليها، وما في تركه أو تطويره خيار. ومن خلال عمليات الاجتهاد الكثيرة يتم تنزيل الوحي على الواقع المعاش ومن هنا فإن الطبيعي أن تكون الموضوعية تجاه الأفكار لدينا ليست مطلقة نؤصلها كيفما شئنا، وإنما هي موضوعية تستمد كثيراً من قسماتها من الوحي الذي آمنا به، وهذا الوحي بما فيه من مقومات الخلود والاتساع لمتطلبات الإنسان على اتساع أمداء الزمان والمكان لا يخلع على موضوعيتنا صفة الشرعية وحسب، وإنما يجعل منها منارات شامخة يهتدي بها الفكر العالمي الحر في مسيرته الطويلة!.

وبناء على كل هذا فإن مهمة المفكرين المسلمين كانت إبراز عناصر

الموضوعية في حقول الأفكار، وهدم كل أنواع الغلو والانحراف والتأويلات الفاسدة وأشكال التمييع التي تنحرف بثقافة الأمة عن مسارها المرسوم. وقد كان هذا ضرورياً لتحقيق استمرار الانسجام الذاتي بين ماضي الأمة ومستقبلها، ومن أجل التوافق بين الإطار النظري، وبين التنظيمات والإجراءات التنفيذية المتجددة. وانطلاقاً من هذا فسوف نتكلم هنا عن أهم نقطتين تجلت فيهما موضوعية علماء المسلمين تجاه الأفكار، وهما: الواقعية والوسطية.

(أ) الواقعية:

تمثل الواقعية ركيزة هامة من ركائز الموضوعية، بل قد يكون الموقف الموضوعي لا يتطلب أكثر من الوعي بالواقع. وكثيراً ما نقع أسرى حركة ترددية بين الماضي بمثله وقيمه وخبراته، وبين المستقبل بآماله وخططه ومشاريعه متجاوزين للواقع وظروفه وضروراته، أي: نعيش لحظتين لا نملك واحدة منهما! مع أن الماضي لا يستطيع أن يتصل مع المستقبل لوجود هوة بينهما؛ والمنطقي أن يتحدث الماضي مع الحاضر عن المستقبل. وبما أن الإسلام دين يتسم بالشمول، هدفه إصلاح الدنيا والآخرة من خلال تنظيم علاقات الإنسان بخالقه، وبما حوله؛ فإن كل علاقة لهذا الإنسان ينبغي أن تمر من خلال علاقته بالله تعالى التي تأطرت وانضبطت بتوجيهات الإسلام العامة في ميادين الحياة كافة. وهذا يقتضي أن يكون الإسلام قادراً على عملين متساوقين، هما: التفاعل مع الواقع، والنهوض به. وهاتان العمليتان يتم إنجازهما من خلال امتلاك عناصر الثبات في كل ما لا يخضع لاختلاف الزمان والمكان، وعناصر الحركة لكل ما يختلف باختلافهما.

وهذا كله يعني أن تعاليم الإسلام تهدف إلى حركة مؤطرة منضبطة بالأصول العامة. وهذه الحركة تنطلق من الواقع نحو المثال. والواقع يظل محفوفاً بالضرورات المختلفة على حين ينتمي المثال إلى عالم (ما ينبغي أن يكون)، وهو عالم فوق الزمان والمكان. إن من الخطورة بمكان أن يكون الناس واقعيين دون مثل تحدو بهم للانطلاق من الواقع بكل إشكالاته وضروراته، كما أن من الخطورة أيضاً أن يعيش الناس غارقين في الأحلام لاهين عن المشكلات التي تحيط بهم، لا توقظهم إلاّ الصدمات، وبعد فوات الأوان!!.

من مظاهر الواقعية:

(أ) الانشغال بالواقع:

جاء الإسلام من أجل إصلاح الواقع، وحل مشكلات الناس، ولذا كان من الطبيعي أن يلتحم بذلك الواقع. وكانت البداية أن القرآن الكريم نزل منجماً مواكباً لحال الأمة والدعوة خطوة خطوة، وتكامل ذلك مع توجيه القرآن الكريم لهم بعدم الإكثار من المسائل التي لا تعنيهم في أمور دينهم حين قال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾(1).

وذلك حتى لا تتضخم المعارف على حساب الفعل، وحتى لا يقع الخلاف في مسائل لا رأي فيها للواقع المعاش؛ فتصير الأمة إلى الجدل والمراء وتفرق الكلمة... واستجابة لذلك نجد عمر ــ رضي الله عنه ــ يقول: «أحرِّج عليكم أن تسألونا عما لم يكن، فإن لنا فيما كان شغلاً. وكان زيد بن ثابت إذا سُئل عن شيء يقول: كان هذا؟.

فإن قالوا: لا. قال: دعوه حتى يكون. وسئل أحمد بن حنبل عن مسألة، فقال: وقعت هذه المسألة، بليتم بها بعد؟(2).

هذا هو حال الأمم في أزمنة النهوض. أما في حالات الركود والانحطاط فإن قسماً من الأمة يكون مشدوداً إلى الماضي دون أن يفيد منه شيئاً في واقعه، وقسماً يتجاوز الماضي والحاضر إلى مستقبل لا يملك من عتاده سوى الأحلام الوردية!!

(ب) تقدير العوارض والطوارىء في حياة البشر:

مهمة الفقه الإسلامي رسم المسارات السلوكية لتعامل الناس مع خالقهم ــ سبحانه ــ، ومع بعضهم بعضاً، ومع الطبيعة من حولهم. واستجابة لما كنا تحدثنا عنه في الفضاء النظري من موضوعية التكليف(3) فقد تجلت أفكار وقواعد

---

(1) سورة المائدة: الآية ١٠١.

(2) انظر جامع العلوم والحكم: ص ٨٧، ٨٨.

(3) انظر ص ٧٦ من هذا البحث.

كثيرة في الفقه الإسلامي بغية معالجة ما يقع في حياة الناس من الحوادث والحالات نتيجة الضعف الجبلي، أو ما يطرأ من الظروف المختلفة التي تجعل في التكليف الأصلي، وما يترتب عليه من أحكام نوعاً من المشقة غير المعتادة، فالضرورات، وحالات النسيان والجهل والخطأ والإكراه وعموم البلوى وتغير الأعراف ودفع ما أمكن من المفاسد وارتكاب أخف الأضرار؛ كل أولئك من المحاور الهامة التي ظهرت فيها واقعية التفكير الإسلامي، والتحامه بحياة الناس ومعاناتهم وهواجسهم.

فمن القواعد التي تحكم حالات الاضطرار قولهم: (الضرورات تبيح المحظورات)، وقولهم: (المشقة تجلب التيسير). وقد فرعوا على هاتين القاعدتَين عدداً كبيراً من الأحكام والقواعد الفرعية التي تدفع المشقة، وتزيل ما يمكن إزالته من حالات الاضطرار.

ومن تلك الأحكام: جواز فسخ عقد الإجارة بعذر السفر، وجواز كتابة القاضي إلى القاضي في بلد المدعي عليه بشهادة شهود المدعي عنده، وتأخير إقامة الحد على المريض إلى أن يبرأ ما عدا حد الرجم. ومن ذلك جواز أكل مال الغير لدفع خطر الموت جوعاً عن نفسه، بل إن هذا مما يجب!. ومنها جواز بيع الإنسان مال رفيقه إذا مات معه في السفر، وحفظ ثمنه لورثته بدون ولاية ولا وصاية إذا لم يكن هناك قاض[1].

وقد لاحظ بعض الباحثين أن اعتبار المشقة والتخفيف فيها يخضع للضوابط التالية:

١ ــ اهتمام الشارع؛ فكلما كان اهتمام الشارع بالمطلوب الشرعي أشد احتيج للتخفيف فيه أو إسقاطه.

٢ ــ تكرار الفعل ودوامه؛ فإن تكرار الفعل المكلف به، أو استدامته يدعوان إلى مراعاة جانب التخفيف فيه.

٣ ــ عموم الطلب وشموله لأفراد كثيرين؛ فإن المطلوب الشرعي إذا كان

---

(١) انظر شرح القواعد الفقهية: ص ١٠٥ وما بعدها، وقواعد الأحكام: ٢/٧.

عاماً شاملاً لأفراد كثيرين وقع الترخيص فيه؛ لئلا يؤدي إلى مشاق عامة كثيرة الوقوع.

٤ ـ مدى ما يلحق المكلف من ضرر في نفسه أو ماله أو حال من أحواله؛ لاختلاف أحوال المكلفين في تحمل المشاق بحسب ظروفهم واستعداداتهم[١].

والفكر الإسلامي مع مسايرته للواقع، فإنه يهيب بالمسلم ألا تتحول الضرورات إلى ثوابت في حياته؛ وذلك ببذل الجهد للخلاص منها. وحتى لا يتمادى المكلفون في استخدام الضرورات ذرائع للتفلت من الأحكام وضع الفقهاء ضوابط أخرى تحد من ذلك التمادي، وهي: (الضرورات تقدر بقدرها). فإذا كانت الضرورة تبيح أكل مال الغير لدفع الهلاك عن النفس، فإن ما يحل منه هو ما يؤدي إلى حفظ النفس، وما زاد على ذلك عاد إلى الحكم الأصلي. وإذا كان يحل للطبيب النظر إلى ما لا يحل كشفه من العورات فإن ذلك مقيد بما تدعو إليه الحاجة، أي مكان التطبيب، وما لا بد من كشفه[٢].

أما الخطأ والنسيان فإن موقف علماء المسلمين منهما كان هو الآخر موضوعياً؛ فبما أن الإنسان لا يستطيع استحضار ما يريد في كل وقت، وبما أنه لا يملك أن يحقق قصده في كل ما يريد أيضاً؛ لقصور وسائله، أو عدم إحسانه استخدامها فإن علماء المسلمين تبعاً لتوجيه الشارع قرروا سقوط الإثم عن المخطىء والناسي؛ ويترتب على سقوط الإثم سقوط الجزاء الأخروي أيضاً. أما ما يترتب على ذلك الخطأ والنسيان من خلل في العبادات أو إضرار بالآخرين فإن هناك تفصيلات أيضاً تعد غاية في الموضوعية؛ فحقوق العباد مبنية على المشاحة، فلا بد من تعويض من تضرر نتيجة الخطأ أو النسيان. أما حقوق الله تعالى فما أمكن تداركه منها وجب استدراكه، وما لم يمكن سقط[٣].

---

(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية: ص ٢٠٨.

(٢) انظر في تفصيل أحكام الضرورة الفقه الإسلامي: ٥١٦/٣ وما بعدها.

(٣) انظر تفاصيل ذلك في جامع العلوم والحكم: ص ٣٥٣، والفقه الإسلامي: ٧١٨/٥ وما بعدها.

ومما تجلت فيه واقعية علماء المسلمين ما يسمونه (العذر بالجهل)؛ حيث إن الإسلام دعوة مفتوحة للعالمين مهما اختلف الزمان والمكان، وهذا يجعل إمكانات استيعابه بكل تفاصيله متفاوتة من بلد إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، ومن شخص إلى آخر، ومن ثم فإن الضوابط التي وضعت في هذا الشأن كانت تنم عن إدراك دقيق لهذا الأمر عند كثير من الفقهاء! ولأن شرعة الإسلام العامة تتسم بالاعتراف بالواقع، ثم محاولة النهوض به، أي المراوحة بين الواقع والواجب فإن من الضوابط التي ذكرها الفقهاء في مسألة (العذر بالجهل) ما يلي:

١ ــ لا يعذر بالجهل بأصل من أصول الدين كوحدانية الله ــ تعالى ــ ونبوة محمد ﷺ والوحي بالقرآن، كما لا يقبل الادعاء به كذلك. ولا يعذر من جهل أركان الإسلام الأساسية كالصلاة والصوم الزكاة.

٢ ــ لا يعذر المسلم بجهل المحرمات الأساسية المشهورة كقتل النفس والزنا وشرب الخمر والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل؛ وهذه كلها يعبر عنها بالمعلوم من الدين بالضرورة حيث يتناقل العامة جيلاً بعد جيل العلم بما ذكرناه، حتى الذين لم يجالسوا عالماً، ولم يقرؤوا كتاباً.

٣ ــ يعذر من كان حديث عهد بإسلام؛ حيث إن خبرته السابقة كانت مستمدة من أعراف غير إسلامية؛ فإذا ما ارتكب شيئاً من المحرمات عذر بالجهل بها، وأمر بتعلم ما يقيم به دينه. كما يعذر بالجهل من نشأ في بادية بعيداً عن العلم والعلماء. وكأولئك الذين في الأدغال والغابات، وأولئك الذين يعيشون في دار الحرب، ولم تكن تعاليم الإسلام فاشية فيهم، وكانوا لا يعلمون بحكم الإقامة في دار الكفار.

٤ ــ يعد الجهل عذراً في المسائل الدقيقة التي لا تشيع في صفوف العامة، وإنما يتناقلها العلماء بينهم؛ ففي تكليف العوام بتعلمها مشقة عظيمة عليهم، قال السيوطي: «كل من جهل تحريم شيء مما لا يشترك فيه غالب الناس لم يقبل إلاَّ أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية يخفى عليه مثل ذلك»[1].

---

(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية: ص ٢٣٦.

إن وضع معرفة أكثرية الناس بأمر من الأمور معياراً للإعذار والمؤاخذة يعد في الحقيقة قمة في مراعاة الـواقع، في المعـالجة، وعلى أولي الأمـر وعلماء الأمـة أن يبثـوا المعـارف والعلوم الضـرورية في النـاس، وعلى مقـدار العلم يكـون حجم المسؤولية والمؤاخذة.

ومما تجلت فيه الـواقعية في الفكـر الإسلامي واجتهـادات علمـاء المسلمين قضية اعتبار الأعراف والعادات السـارية بين المسلمين. وهـذا الأمر منضبط كـذلك بضوابط تجعل حياة المسلمين قابلة للنمو والحركة ضمن أطر ثابتة تتسع وتضيق من قضية إلى أخرى. والعادات والأعراف تتعرض لنوع من التغير تبعاً لعـوامل كثيـرة؛ لذا كان لا بد من الموازنة بينها وبين الأصول الثقافية للأمة.

من القـواعد التي يتجسـد فيها ذلـك قولهم: «العـادة محكَّمة»، و«استعمـال الناس حجة يجب العمل بها»، و«الممتنع عادة كالممتنع حقيقـة»، و«لا ينكر تغيـر الأحكام بتغير الأزمان»[1].

وقد بني جانب غير قليل من الفقه الإسلامي على هـذه القواعـد، وفرع أهـل العلم مسـائـل كثيـرة على ذلـك، منهـا: أن الإنسـان إذا حلف ألا يـأكـل رأسـاً، أو لا يجلس على بساط فإنه لا يأثم بأكل رأس عصفـور، أو الجلوس على الأرض؛ لأن العرف خص الرأس بما يباع للأكل في الأسواق، والبساط بالمنسوج المعـروف الذي يُفرش ويُجلس عليه[2].

ومن ذلـك الاعتماد على العـرف في أشياء جـرى بها التسـامـح بين النـاس، حيث ذهب الفقهـاء جميعاً إلى جـواز دخـول الحمّـام من غيـر تعيين مـدة المكث، وكمية الماء المستهلك، وتقدير الأجرة؛ وذلك لجري العادة بالتسامـح في مثلها[3]. وكذلك الاستمداد من محبرة زميله دون إذنه.

---

(١) انظر شرح القواعد الفقهية: ص ١٦٥ ــ ١٧٥.

(٢) السابق: ص ١٦٧.

(٣) أصول مذهب الإمام أحمد: ص ٥٩٢.

واتكأ كثير من الفقهاء على العرف في التصرف بملك الغير، كما إذا رأى السيل يمر بدار جاره، فبادر بثقب حائطه، وأخرج متاعه، فحفظه عليه جاز ذلك، ولم يضمن ما أحدثه من تلف في الحائط. وكما إذا قصد عدو مال جاره، فصالحه ببعضه دفعاً عن بقيته جاز، ولم يضمن ما دفعه إليه[1].

واستجابة لما حدث في حياة الناس من هبوط في مستويات العدالة والالتزام أجاز كثير من الفقهاء قبول شهادة الأمثل فالأمثل، والأقل فجوراً فالأقل حتى لا تضيع مصالح الناس، وتتعطل الحقوق. كما أجاز بعض المتأخرين تحليف الشهود عند إلحاح الخصم إذا رأى الحاكم ذلك؛ نظراً لفساد الزمان. وكذلك أجازوا إحداث أحكام سياسية لقمع الدعار وأرباب الجرائم عند كثرة الفساد، وأول من فعل ذلك عمر بن عبد العزيز حيث قال: ستحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور.

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قد منع عماله من توقيع عقوبة القتل إلَّا بعد إعلامه وإذنه بعد أن كان ذلك مطلقاً لهم؛ لما رأى من تغير حالهم[2].

ومن صور الواقعية الاحتكام إلى الذوق العام في بعض المسائل؛ فقد ذكر كثير من الفقهاء أن الحيوان الذي لا نص فيه من كتاب أو سنة أو إجماع، ولا ورد فيه أمر بقتله، ولا بعدم قتله يرجع في جواز أكله إلى ما تعارف عليه أهل اليسار، وأهل الطباع السليمة من العرب؛ لأن الله أحل الطيبات، وحرَّم الخبائث التي تعارفوا عليها بينهم. ولا يعتبر ذوق الأجلاف من أهل البادية والفقراء وأهل الضرورة؛ لأنهم للضرورة يأكلون ما وجدوا[3].

ومما يرجع فيه إلى الذوق العام محددات المروءة ونواقضها؛ فما يكون

---

(١) أصول مذهب الإمام أحمد: ص ٥٩٤.

(٢) شرح القواعد الفقهية: ص ١٧٤، ١٧٥.

(٣) انظر الفقه الإسلامي: ٥١٣/٣، ٥١٤.

إخلالاً بالمروءة بالنسبة لبعض الناس لا يكون كذلك بالنسبة لآخرين والذي يحدد ذلك هو الذوق العام.

ولعلنا لاحظنا من كل ما سبق أن الاعتماد على العرف ليس مطلقاً دون قيد أو شرط كما يحلو لبعض الكتّاب اليوم حيث يحاولون اتخاذ هذا المبدأ الذي نحن بصدده ذريعة لتبخير النصوص، وجعل الناس حكاماً على الشريعة بدل أن تكون حاكمة عليهم!!.

وقد كان العلماء الذين تحدثوا في قضايا تغير الفتوى والعرف واضحين تمام الوضوح حين شرطوا في العرف المؤثر ألا يكون مغايراً لما عليه أهل الدين والعقل المستقيم، ولا منكراً في نظرهم. وكذلك ألا يكون هناك نص يخالف العرف، فإذا وجد نص فإن العرف باطل غير ذي قيمة[1]. ما ذكرناه ليس كل ما في الباب؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

* * *

(ب) الوسطية:

تمثل الوسطية في القضايا الإنسانية محوراً هاماً تدور حوله قضايا ومسائل تفوت الحصر؛ فقد جعل الله ـ تعالى ـ تركيب العقل البشري ـ كما جعل تركيب طبائع كثير من الأشياء ـ محكوماً في كثير من الأحيان بقانون الوسطية. ومن أراد تجاهل ذلك القانون فإن التركيب العام للنواميس الكونية سوف يرده على أعقابه حتى يدرك الأوساط التي يعيش فيها؛ فالشجاعة لها حدود، فإذا تجاوزتها صارت تهوراً. والحذر له حدود، فإذا تجاوزها صار جبناً وإحجاماً وهكذا... والتمادي في أي سبيل من سبل المتعة سوف يفضي إلى قطعها نهائياً! وهكذا فالناس مضطرون إلى أن يكونوا وسطاً في كثير من الأحيان شاءوا أم أبوا! لكن ذلك طبعاً ليس في كل الحالات، والوسط نفسه فضفاض في أكثر الحالات، وإلّا لكان ذلك نقصاً في التكليف والابتلاء.

---

(١) شرح القواعد الفقهية: ص ١٦٥.

لكن المشكلة التي تواجه كثيراً من بني البشر هي تحديد الوسط في كثير من أمورهم الحياتية. والحاصل الآن أن الأطراف هي التي تحدد الوسط في المذاهب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ ولذا فلكل زمان وسطه تبعاً لتغير أطرافه؛ ونحن نعلم أن الأطراف كثيرة التغير[1]، وأن من مهامها حماية الوسط، لكن الحاصل الآن أنها هي التي تحدد الوسط، وعليه أن يغير من مواقعه مع كل حركة تحصل عن يمينه، أو شماله؛ ولذا فما هو طرف اليوم قد يكون وسطاً غداً، وما هو وسط اليوم قد يكون طرفاً غداً.

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وهذا الأمر جعل ثقافة البشر يماً تتلاطم فيه أمواج المعرفة المتدافعة المتناسخة، من المثالية إلى المادية البحتة، ومن الواقعية إلى الخيالية الحالمة، وصارت الثقة بالمعايير القيمية والفكرية مهزوزة؛ حتى إن الإنسان ليشعر في بعض الأحيان بفقد الاتجاه الذي قد يعني فقد الوجود!!.

وهنا تتجلى نعمة الهداية التي أكرم الله ـ تعالى ـ بها هذه الأمة؛ فالأوساط هي التي تحدد الأطراف، وهي التي تحكم عليها، وهذا واضح في قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2].

فهذه الأمة مجعولة وسطاً في كل نواحي حياتها، وهذه الوسيطة محفوظة على المستوى النظري بضوابط تبرزها باستمرار؛ أما على المستوى العملي فقد يشتط بعض الأمة، ويميل إلى أحد الطرفين، لكن النموذج العملي (الطائفة الظاهرة على الحق) يظل يشير إلى ذلك الشطط، ويحذر منه. ولا تخلو الأرض من تلك الطائفة إلى أن يرحل البشر جميعاً منها. والمجدد القرني (الذي لا يشترط أن يكون واحداً)

(١) هذه قاعدة لغوية وفكرية عامة.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

ذاك الذي تلتقي في شخصه الأصالة والمعاصرة على نحوٍ فريد يقوم ببلورة المنهج، ونفض أنواع الحيف التي جارت عليه؛ حتى خفيت معالمه عند كثير من الناس أو كادت.

وحين يقبض شخص أو أمة على نظرات متوسطة تجمع بين الانفتاح والانغلاق، والثبات والتطور، والمحلية والعالمية، والمثالية والواقعية فإن ذلك سوف يعني إدراكاً موضوعياً للكون والإنسان والمعرفة، وسيؤدي ذلك إلى تكامل موضوعي، وتكيف مناسب؛ وهذا هو المطلوب!!.

وقبل أن أسرد شيئاً من مظاهر الوسطية فإني أود أن أنوه بأن أهل السنة والجماعة وسط بين الفرق الإسلامية المختلفة، كما أن أمة الإسلام وسط بين الأمم جميعاً. وما سنعتمد عليه هنا هو نماذج من مواقف أهل السنة والجماعة دون سواهم؛ لأنهم يمثلون نواة الوسطية في أهل الرسالة الخاتمة!.

من مظاهر الوسطية:

لا يستطيع المرء حصر مظاهر الموضوعية التي تجلت فيها الوسطية عند علماء المسلمين استجابة للإطار النظري الموحى به، ولذا فسنقتصر على نماذج قليلة منها تبرز قسماتها على المستويين العقدي والسلوكي؛ لأنهما أهم المستويات التي تجلت فيها الوسطية.

١ ـ المستوى العقدي:

يرى أهل السنّة والجماعة أن الإيمان تصديق وإقرار وعمل؛ حتى يكون واقع حياة الإنسان منسجماً مع معتقداته وآرائه؛ وحتى لا تسود الازدواجية بين داخل الإنسان ومسلكه، كما هو الشأن عند النصارى الذين لا يعرفون من النصرانية إلاَّ بعض الرقائق التي يطمئنون بها أنفسهم. وكما نراه واضحاً عند غلاة المرجئة الذين يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة[1].

---

(١) أما الذين لم يدخلوا العمل في الإيمان كأبي حنيفة وغيره من أئمة أهل السنة والجماعة فإن خلافهم مع الجمهور خلاف لفظي؛ حيث يرون وجوب العمل ولزومه للإيمان.

ويقف الخوارج على الجانب الآخر إذ يكفّرون مرتكب الكبيرة. ويقف المعتزلة مذهباً عجيباً حين يقررون أن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر، فهو في منزلة بين المنزلتين[1]. فكان مذهب أهل السنة وسطاً؛ فهم يقولون لا بد من العمل، ولكن يفوضون أمر فاعل الكبائر إلى الله ـ تعالى ـ. وهم متفقون على أنه إن لم يعف الله عنه، وأدخله النار، فإنه لا يخلد فيها.

وقد كان موقف المرجئة والمعتزلة رد فعل لقول الخوارج؛ وردود الأفعال لا تكون غالباً متزنة. وقد انعكس ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من عدم التكفير بارتكاب الكبائر انعكاساً حسناً على العلاقات بين المسلمين؛ فالصحابة رضوان الله عليهم حين اختلفوا بعد مقتل عثمان، وجرى بينهم ما جرى من الاقتتال لم يكفّر بعضهم بعضاً، ولم يستحلوا أموال بعضهم بعضاً، بل إن علياً ـ رضي الله عنه ـ قاتل الخوارج ولم يحكم بكفرهم، كما لم يحكم بكفرهم أحد من الصحابة، وعدّوهم مسلمين معتدين ظالمين. وكان علي يقول فيهم: إخواننا بغوا علينا!!.

وكذلك وقع الإجماع من الصحابة وغيرهم من أئمة أهل السنة والجماعة أن الثنتين والسبعين فرقة الخارجة عن هدي النبي ﷺ ليست واحدة منها كافرة كفراً يخرج من الملة، وإنما يكفر بعضهم بعضاً بسبب بعض المقالات[2].

وكان لمذهب الخوارج أسوأ الأثر في علاقتهم مع المسلمين، كما كان لموقف المرجئة الذي خُدع به كثير من العامة والدهماء آثار وخيمة في انحراف سلوك الناس، وإقدامهم على المعاصي. أما منح الشيعة العصمة لغير المعصوم وذريته من بعده، فذلك هو الذي يقصم ظهر الاجتهاد والثوابت، ويحول الناس إلى أوثان يعبد بعضهم بعضاً!!.

وعلى مستوى الاعتقاد بذات الله ـ تعالى ـ وصفاته فإن علماء أهل السنة والجماعة وقفوا كذلك الموقف الوسط حيث أثبتوا لله ـ تعالى ـ ما أثبته لنفسه،

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز: ٢/٤٦٢، وفتاوى ابن تيمية: ٧/٢٩٧.
(٢) السابق: ٧/٢١٧.

وأخبر به رسوله ﷺ من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل. وموقفهم ذاك كان استمراراً لموقف الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ الذين لم يثبت عنهم أنهم سألوا عن معاني ما يقرؤونه من صفات الله تعالى في الكتاب والسنة، بل كانوا يكتفون بالفهم الأول الذي يتبادر إلى الأذهان من كل صفة مع اعتقاد أن الله ــ تعالى ــ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[1].

وكان هذا الاتجاه هو الاتجاه المنطقي الذي يجمع بين ما ثبت لدى بني البشر بالفطرة والبداهة من وجود الله ــ تعالى ــ وقدرته وعلمه وحكمته وإرادته، وما تشير إليه عظمة هذا الكون من مخالفته ــ سبحانه ــ لمخلوقاته وضرورة مباينته لها في ذاته وصفاته. وهذا الموقف وسط على المستوى العالمي والملي. فعلى المستوى العالمي ذهب كثير من الفلاسفة وبعض أتباع الديانات إلى المبالغة في (التجريد) حين جعلوا الذات الإلـٰهية عبارة عن (فكرة) تجمع الكمال المطلق، ثم راحوا يجردون هذه الفكرة، ويصفّونها من كل ما خيل إليهم أنه ينال من كمالها، أو يحد من إطلاقها، واستمروا في ذلك حتى صارت تلك الفكرة التي تصوروا فيها الذات الإلهية في مركز الوجود لا تُرى، ولا تتحرك، إنها أشبه بالنقطة في مركز الدائرة الهندسية، تفترض افتراضاً!! نجد هذا عند أرسطو من الفلاسفة القدماء. وزاد (والترليبمان) التجريد تجريداً حين ذهب إلى عدم جواز نسبة أي صفة من الصفات التي تلحق المادة إلى الله تعالى أو تتصل بها، ولو كانت تلك الصفة هي الكمال المطلق[2].

وذهب اليهود إلى الاتجاه الآخر حين جعلوا الله ــ جل وعلا ــ لا يزيد كثيراً عن واحد يعيش بينهم، فهو عندهم كثير الكلام، يحب إلقاء الخطب الطوال، وهو حيي لا يسمح للناس أن يروا منه إلاّ ما أظهره، وهو عندهم كذلك ممن يندم، إذ تقول التوراة: «فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه». تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) سورة الشورى.

(٢) انظر: قضية الألوهية بين الفلسفة والدين: ص ٣٣٧، ٣٥٧.

وعلى المستوى الملي فإن المعتزلة أنكروا صفات الله ـ تعالى ـ مبالغة منهم في التنزيه على ما يزعمون، فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة، لأنه ـ على زعمهم ـ لو شاركته الصفات في القدم لشاركته في الألوهية[1]!.

وقد مال كثير من غالية الشيعة وغيرهم إلى اتجاه التجسيد على نحو ما ذهب إليه ابن سبأ من أن الله ـ جل وعلا ـ حلَّ في علي بن أبي طالب، وكما فعل عبد الله بن عمرو الكندي أيضاً حين ادعى أن روح الله حل فيه، وادعى الألوهية والنبوة معاً[2]!!.

بل إن الأمر تجاوز ذلك كله عند فرقة من فرق الشيعة تُدعى (العليائية) إذ ذهبت إلى أن الله تعالى حلّ في خمسة بالسوية، وهم أصحاب الكساء، محمد ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين. وقالوا: خمستهم شيء واحد»[3].

لكن ظل النور الذي جاء به محمد ﷺ ظاهراً بحمد الله على الرغم من كثرة الظلمات، وظل المذهب الوسط: مذهب أهل السنة والجماعة الأقرب إلى العقل والقلب جميعاً!!.

وعلى هذا النحو من الوسطية يظهر موقف أهل السنة والجماعة في مسألةٍ هامةٍ على صلة مباشرة بحرية الإنسان، وعلاقته بخالقه ـ سبحانه وتعالى ـ وهي قضية (أفعال العباد)، فقد ذهبت الجبرية إلى أن أفعال الخلق كلها اضطرارية كحركات المرتعش، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الناس مجاز، كما يُضاف الإثمار إلى الشجر حين نقول: أثمر الشجر. وقابلتهم المعتزلة حين ذهبوا إلى أن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الناس مخلوقة لهم، لا تعلق لها بخلق الله ـ تعالى ـ، ولم يقفوا عند هذا، ولكن اختلفوا فيما بينهم بعد ذلك: هل يقدر الله على أفعال العباد أو لا؟!!.

---

(١) الملل والنحل: ١/٥١.

(٢) السابق: ٢/١٢.

(٣) السابق: ٢/١٤.

وذهب أهل السنة والجماعة إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله ـ تعالى ـ ، فهو منفرد بخلق الناس وخلق أعمالهم، ولكن الناس قاموا بما قاموا به من أعمال مختارين، ولذا صاروا بها مطيعين أو عصاة. فالجبرية غلوا في إثبات القدر، فنفوا صنع العبد أصلاً، والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله(١).

وقد أسهمت عقيدة الجبر التي سرت في العامة سريان النار في الهشيم إسهاماً بعيد الأثر في كسل كثير من الناس وقعودهم عن العبادة، بل وعن أعمال الدنيا في بعض الأحيان.

والمسلمون وسط في الاعتقاد بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، فهم لا يقولون في المسيح: إنه الله، أو ابن الله، ولا ثالث ثلاثة، كما قالت النصارى، ولا هم يكفرون به كما فعلت اليهود حين جعلوه ولد بغيّ، بل يقولون: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم.

وهم وسط بين الأمم في (شرائع دين الله)، فلم يحرموا على الله ـ تعالى ـ أن ينسخ ما يشاء، ويمحو ما يشاء، ويثبت كما هو شأن يهود:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾(٢).

ولم يجوزوا لأكابر علمائهم وعبادهم أن يغيروا دين الله، فيأمرون بما شاءوا، وينهون عما شاءوا، كما ذكر الله ذلك عنهم إذ قال:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾(٣).

بل يرون أن له الخلق والأمر، وأنه يفعل ما يريد، وأن المخلوق ليس له أن

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٦٣٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٩١.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣١.

يبدل أمر الله، حتى الرسل فإنهم يبلغون عن الله أمره، وهم أول الناس التزاماً به[1].

إن سر توسط أهل السنة والجماعة أنهم لا يأخذون من النصوص ما يوافق أهواءهم، ويعرضون عن الباقي، ولا يضربون بعض النصوص ببعض، لكنهم يعتقدون أن النصوص يُصدِّق بعضها بعضاً، ويهدي كل منها إلى جانب من جوانب البحث، وقد كتب الله لهم التوفيق في الجمع بينها! وما بين الطرفين إلَّا الوسط.

٢ ــ المستوى السلوكي:

أما على المستوى السلوكي فإنه قد وجد في هذه الأمة ــ كما يوجد في كل أمة ــ من مال إلى التعنت والتصلب والابتعاد عن كثير من المباحات، كما وجد فيها من أخذ نحو التفلت من الفرائض والواجبات مدَّعياً أنه صار فوق التكليف!!. وقد وقف العلماء من هذين النموذجين موقفاً حازماً يستند إلى الحنيفية السمحة التي لا تفرق بين الغلو والتفريط في التغليط والإدانة.

ونستطيع أن نختزل هذين الاتجاهين في نموذجين صغيرين، هما: أصحاب الوسواس وأصحاب الحيل، حيث يمثل الأولون الغلو والتعنُّت، ويمثل الآخرون الالتفاف على مقاصد الشريعة الغراء متجاهلين أهداف التشريع، ومتعلقين بشكليات إجرائية بغية التفلت من الأحكام، ومتابعة الأهواء.

فمن مظاهر الغلو ما ابتلي به بعض الموسوسين في قضايا الطهارة، فهو يريق كميات كبيرة من الماء ظانّاً أنه لم يسبغ الوضوء، أو الغسل، حتى إن رجلاً جاء إلى أبي الوفاء بن عقيل، فقال له: أنغمس في الماء مراراً كثيرة، وأشك هل صح لي غسل أو لا؟ فما ترى في ذلك؟ فقال له الشيخ: اذهب فقد سقطت عنك الصلاة! قال: كيف؟ قال: لأن النبي ــ ﷺ ــ قال: رفع القلم عن ثلاثة: المجنون حتى يفيق، والنائم حتى يستيقظ، والصبي حتى يبلغ». ومن ينغمس في الماء مراراً،

---

(١) الفتاوى ٣/٣٧١.

ويشك هل أصابه الماء أم لا فهو مجنون[١]!!.

وكثير من الناس ابتلي بالوسوسة في موضوع النية، فينشغل عند تكبيرة الإحرام بذكر كثير من مفردات النية، وإعادتها، فيقول ـ مثلاً ـ أصلي، أصلي مراراً. وبلغ التنطع ببعضهم أنه بدل أن يقول: أصلِ أداء أعجمَ الذال، فقال: (أذاءً) لله. فقطع رجل إلى جانبه صلاته، وقال له: ولرسوله وجماعة المصلين[١] !!.

إن الاتباع هو الذي يقضي على الوساوس، وأنواع التعنُّت، فقد قال إبراهيم النخعي : لقد تقدَّمني قوم لو لم يجاوزوا بالوضوء الظفر ما تجاوزته!. وقال زين العابدين لابنه: يا بني اتخذ لي ثوباً ألبسه عند قضاء الحاجة، فإني رأيت الذباب يسقط على الشيء، ثم يقع على الثوب. ثم انتبه فقال: ما كان للنبي ﷺ إلَّا ثوب واحد[٣]!.

أما أصحاب الحيل فقد فعلوا من المناكر ما لا يعلمه إلَّا الله، حيث فعلوا من الحيل ما أحلُّوا به الحرام، وأسقطوا به الواجبات!! من ذلك أن امرأة أرادت أن تختلع من زوجها، (أي: أن تدفع له مبلغاً من المال مقابل فراقها) فأبى زوجها ذلك. فأفتاها بعض أصحاب الحيل، بأن ترتد عن الإسلام، فتبين منه، ففعلت ذلك.

وقد ذكر لابن المبارك أن هذا في كتاب الحيل، فقال: من وضع هذا الكتاب فهو كافر، ومن سمع به فرضي به فهو كافر، ومن حمله من بلدٍ إلى بلدٍ فهو كافر، ومن كان عنده فرضي به فهو كافر[٤].

ومن ذلك ما يذكر عن يزيد بن هارون أنه قال: أفتى أصحاب الحيل بشيء

---

(١) ذم الموسوسين: ص ٢٦.
(٢) السابق: ص ٢٧.
(٣) إغاثة اللهفان: ١/٢١٣.
(٤) الحيل الشريعة الإسلامية: ص ٢٩١.

لو أفتى به اليهود والنصارى لكان قبيحاً: أفتوا رجلاً حلف ألا يُطلق امرأته بوجه من الوجوه، فبذل له مال كثير في طلاقها، فلجأ إلى أصحاب الحيل، فأفتوه أن يُقبِّل أمها، أو يباشرها[1]!!.

ومن ذلك أن الرجل يريد التهرب من الزكاة، فيهب ماله لزوجته قبل تمام الحول، ثم بعد ذلك تهبه له، ليبدأ حول جديد دون أن يدفع شيئاً من الزكاة!!.

وقد استطاع علماء المسلمين بلورة أصل هام في عمليات الاجتهاد، هو: مبدأ (سد الذرائع) الذي يعمل في الاتجاه المضاد للحيل وأصحابها، فإذا كانت (الحيل) إجهاضاً لمقاصد الشريعة فإن مبدأ (سد الذرائع) هو حماية لتلك المقاصد، وسد للمنافذ التي تؤدي إلى الإضرار بها، وذلك إعمالاً لمبدأ آخر من مبادىء التفكير الموضوعي، وهو: فقه الموازنات؛ فقد ورد النهي عن الحد في دار الحرب، وقطع الأيدي في الغزو، حتى لا يكون ذلك ذريعة للحاق المحدود بدار الكفار. واتفق الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على قتل الجماعة الكبيرة بالواحد، وإن كان القصاص يقتضي المساواة، لئلا يتخذ ذريعة إلى هدر الدماء، وتعاونِ جمع على قتل معصوم الدم. ومنع الشرع من القرض الذي يجر النفع، وجعل ذلك ربا حتى لا يتذرع به إلى الربا الأصلي. وهكذا[2]...

إن مجمل المبادىء الإسلامية التي تمثل نقاط الارتكاز في التوجهات الإسلامية قاطبة تعمل جميعاً في اتجاهٍ واحدٍ وهو (الوسطية) على كل المستويات، وإن مظاهر التطرف لا تلبث إلَّا يسيراً، حتى تكون شواهد على أصالة الوسطية في الشريعة السمحة!.

٤ ـ التعامل مع الحقيقة:

يعد التعامل مع الحقائق خلاصة مكوناتنا العقدية والفكرية والثقافية والنفسية،

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٥٢٥.

(٢) السابق: ١/٥٣١.

فنحن حين يطلب منا التصرف تجاه أمر من الأمور نتخذ موقفاً يعد تلخيصاً لكل تلك الجوانب، ومن خلال الخبرات والقدرات التي نتمتع بها يكون مستوى التعامل مع الأفكار والأشخاص والأحداث، ومن خلالها نقرأ النصوص، ونفسرها، ومن خلالها يتكون نظام ردود أفعالنا على كل ما ينفذ إلى عقولنا. ولن نكون موضوعيين ابتداء وانتهاء ما لم نكن حريصين على الوقوف على الحقيقة، وما لم نتحلَّ بالصفات الضرورية للتعامل معها وفرق كبير بين من يستمد موقفه تجاه الأحداث المختلفة من خبرته الشخصية، وثقافة مجتمعه، وبين من يملك أصولاً هادية يقوِّم من خلالها الاتجاهات المختلفة من حوله. وهذه الأصول هي التي تتركز فيها نعمة الهداية التي امتنَّ الله ــ تعالى ــ بها على المسلمين. وقد قدَّمنا بعضها عند الحديث عن التعامل مع الحقيقة في المجال النظري[1]. والآن نحاول أن نرى الثمار التي نعمت بها هذه الأمة نتيجة استجابة كثير من أبنائها لتوجيهات الإسلام وتعاليمه. ويمكن أن نلحظ ذلك في النقاط التالية:

(أ) الوقوف على الحقيقة:

يمثل الوقوف على الحقيقة الخطوة الأولى على طريق التعامل معها حيث إن إدراك الأمور على ما هي عليه يحدد الموقف المطلوب منها من الامتثال، أو الاعتبار، أو المناهضة، وقد كانت الثمرة الأولى لتوجيه القرآن الكريم بالتبين، وعدم الجري وراء الظنون والأهواء الاحتياط الشديد في الرواية والتلقي، فلم يرووا الأحاديث إلَّا عند الحاجة، وكانوا في روايتهم يتحرُّون الدقة، ويحتاطون، فكثيراً ما يقول أحدهم بعد رواية الحديث:

نحو هذا، أو كما قال، أو شبيهاً بهذا، وأحياناً كانوا يطلبون البينة من الراوي على صدقه، وكان أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ أول من فعل ذلك، فقد حدَّث قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورَّث فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس،

(١) انظر: ص ١١٥ من هذا البحث.

فقام المغيرة، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس. فقال له: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه أبو بكر(١).

وانطلاقاً من اعتقادهم أن طول سلسلة الإسناد داعٍ لضعفها، لاحتمال ضعف بعض الرواة، أو وهمهم نشأ عندهم حب علو الإسناد القائم على قلة عدد الرجال بينهم، وبين مصدر الخبر، ورحلوا في سبيل الحصول عليه رحلات مشهورة لا نظير لها عند الأمم الأخرى!!.

ويمثل النقد للخبر حجر الزاوية في هذا الباب، وقد ذكرت من قبل بعضاً من جهود المحدِّثين في التأكد من صحة الخبر، كما ذكرت أن الإسناد خصيصة من خصائص هذه الأمة، لا يشاركها فيها غيرها(٢). لكن الذي سنشير إليه هنا هو عنايتهم بالنقد الداخلي للنص، أي: تقويم النص بقطع النظر عن إسناده اعتماداً على معانيه، ومدى انسجامها مع الأصول العامة للشريعة، ومدى انسجامها مع البدهيات والمحسوسات، ومدى انسجامها مع النصوص الأخرى..

وقد كانت التهمة توجه إلى علماء المسلمين أنهم لم يهتموا بالنقد الداخلي للنصوص، وإنما اعتمدوا على دراسة الأسانيد وحدها. وهذه التهمة التي لفقها المستشرقون ومن يحطب بحبالهم خالية من الصحة تماماً. نعم إن النفس ترتاح لأخبار الثقات المأمونين لكن ذلك لم يكن كافياً عند علماء المسلمين لقبول كلام كل صدوق، فصاروا إلى نقد المتون نقداً بلغ أقصى درجات الدقة، وساعدهم على ذلك أنهم لا يرسمون في الفراغ كما يفعل باحثو الملل الأخرى، وإنما عندهم أصول تحاكم إليها الرواية، وعندهم سجلات كاملة لأكثر الرواة، مما مكنهم من النقد الداخلي المتفرد! ويمكن تبين ملامح ذلك من خلال ما يلي:

١ ـ نظر المحدِّثون، فوجدوا أن هناك أحاديث ركيكة في ألفاظها مبتذلة في معانيها، وهي مع ذلك مغايرة للميسم العام الذي مُهر به كلامه ﷺ، فمما يرجع

---

(١) المختصر الوجيز: ص ٥١ ومسند أحمد ٤/١٥٣.

(٢) انظر: ص ٩٢ من هذا البحث.

إلى ضعف المعنى الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير، أو بالوعد العظيم على الفعل اليسير. وهذا النوع موجود بكثرة في أحاديث القصّاص، فمن ذلك ما وضعوه، ثم نسبوه إلى النبي ﷺ: «من صام يوماً كان كأجر ألف حاج، أو ألف معتمر، وكان له ثواب أيوب». قال ابن الجوزي: وهذا يفسد مقادير موازين الأعمال. ونحو من هذا الأحاديث في فضل الأرز والعدس والباذنجان، مما ينبو عما عرف من مضمون الأحاديث الصحيحة، ومهمة الهداية التي كلف بها النبي ﷺ.

٢ ـ أن يكون الحديث مخالفاً للقضايا المقررة، كأن يكون مخالفاً للعقل، ولا يقبل التأويل، أو اشتمل على أمر يدفعه الحس والمشاهدة، أو الواقع التاريخي. ومن أمثال هذا: «خلق الورد من عَرَقي»، و«تختموا بالعقيق فإنه ينفي الفقر»، و«إذا عطس الرجل عند الحديث فهو دليل صدقه».

٣ ـ أن يكون الحديث خبراً عن أمر جسيم تتوفر الدواعي على نقله بمحضر الجمع، ثم لا ينقله إلّا واحد، نحو: «أبو بكر يلي أمتي من بعدي، وعلي وصيي».

٤ ـ أن يكون في الحديث عصبية على أهل لغة أو بلد أو جنس أو مذهب، نحو: «أبغض الكلام إلى الله الفارسية، وكلام الشياطين الخوزية، وكلام أهل النار البخارية، وكلام أهل الجنة العربية». ونحو: «الزنجي إذا شبع زنا، وإذا جاع سرق». ونحو: «يكون في أمتي رجل يقال له: أبو حنيفة، هو سراج أمتي». ونحو: «جور الترك، ولا عدل العرب».

٥ ـ أن يشتمل الحديث على ما يخالف المبادىء العليا في الشريعة، نحو: «لا يدخل الجنة ولد الزنا، ولا والده، ولا ولد ولده». لأن ذلك مخالف لقوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(١).

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

ونحو من هذا ما ورد من أن عمر الدنيا هو سبعة آلاف سنة. وقد ردَّه ابن القيم، لأن الله ـ تعالى ـ يقول:

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾[1].

ونحو: «سب أصحابي ذنب لا يُغتفر». وقد ردَّه ابن تمية، لأن الله ـ تعالى ـ يقول:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[2].

٦ ـ أن يكون الحديث مشتملاً على مستحيل ومنكر، نحو: «إن الله خلق خيلاً، فأجراها فعرقت، فخلق نفسه من ذلك العرق»!!. وحديث: «لا يولد بعد المائة مولود لله فيه حاجة». حيث إن في ذلك إزراء بكل المسلمين الذين ولدوا بعد ذلك[3].

٧ ـ أن يحتوي الخبر على معانٍ ينفيها المعروف من التاريخ، مثال ذلك ما ذكره الذهبي من أن عثمان بن مظعون قال: لا أشرب شراباً يذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى مني، ويحملني على أن أنكح كريمتي. فلما حرمت الخمر قال: تباً لها قد كان بصري فيها ثاقباً. قال الذهبي: هذا خبر منقطع، لا يثبت، وإنما حرمت الخمر بعد موته، لأن الخمر حرمت بعد أحد[4].

ونحو من هذا ما ذكره أيضاً عن حرملة قال: سمعت الشافعي يقول: ما جهل الناس، ولا اختلفوا إلَّا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطاليس. قال الذهبي: هذه حكاية نافعة، لكنها منكرة!!، ما أعتقد أن الإمام تفوه بها، ولا كانت أوضاع أرسطاليس عُربت بعدُ ألبتة[5].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٧.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٣) انظر مقاييس نقد متون السنة: ص ٢٢٢، ٢٢٨.

(٤) السير: ١: ١٥٥.

(٥) السابق ١٠: ٧٤.

ونحو من هذا ما ذكره ياقوت في ترجمة أحمد بن فارس اللغوي من أن ابن الجوزي ذكر أنه مات في حدود سنة (٣٦٩)، وذكر أن الحميدي قال: إنه مات في حدود سنة (٣٦٠). ثم عقب ياقوت على الروايتين المتعارضتين بقوله: وكل منهما لا اعتبار به، لأني وجدت خط كفه ـ أي ابن فارس ـ على كتاب (الفصيح) تصنيفه، وقد كتبه في سنة (٣٩١)[1]. والأخبار التي ردَّها المحدِّثون والمؤرخون المسلمون بناءً على معلوماتهم التاريخية أكثر من أن تحصى.

ابن خلدون والنقد الداخلي:

إذا كان المحدِّثون قد صرفوا كثيراً من جهودهم إلى النقد الداخلي فيما يخص الحديث النبوي، وما يلوذ به من الأخبار المتعلقة بأحكام الشريعة، فإن ابن خلدون (ت ٨٠٨) صرف عنايته لنقد الأخبار التاريخية قبل النظر إلى مضامينها، واعتبار طبائع الأشياء، وما جرت به العادات والأحوال. ويمكن تركيز أفكاره النقدية في النقاط التالية:

١ ـ ضرورة قياس الغائب من الأحوال على الشاهد، لأن الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء. ومراد ابن خلدون أن ما تحيله العادة الآن يكون من قبل مستحيلاً، فإذا ما روي شيء من ذلك وجب رده والإعراض عنه. ويضرب ابن خلدون لذلك أمثلة عديدة، منها: ما ذكره المسعودي وغيره من أن موسى ـ عليه السلام ـ أحصى من يطيق حمل السلاح من بني إسرائيل في التيه، فوجدهم (ستمائة ألف). ويرى أن هذا من خرافات العوام، لأن يعقوب ـ عليه السلام ـ ومن معه من أولاده حين وفدوا على مصر كانوا سبعين، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى مائتين وعشرين سنة، ويبعد أن يكثر النسل إلى هذا الرقم الكبير. يقول: واعتبر ذلك بالحاضر الشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً، ونقلهم كاذباً[2].

---

(١) المدخل إلى التاريخ الإسلامي: ١٩٩.

(٢) مقدمة ابن خلدون ١/ ١١.

٢ ـ يرد الأخبار التي تدل على وجود عجائب في بلاد مسكونة مطروقة يتردد فيها الناس، ثم لا يرون شيئاً مما ذكر. وهنا ينحي باللائمة على ما ذكره بعض المفسرين من أمثال الطبري والثعالبي في قوله ـ تعالى ـ :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾[1].

حيث جعلوا (إرم) اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات العماد أي: الأساطين. وذكروا أن شدّاد بن عاد سمع وصف الجنة، فقال: لأبنين مثلها، فبنى مدينة في صحارى عدن في (٣٠٠) سنة، وكان عمره: (٩٠٠) سنة. وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت. . . !! ثم يقول ابن خلدون: وهذه المدينة لم يُسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض، وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها، هي في وسط اليمن، وما زال عمرانه متعاقباً، والركاب والأدلّاء تنفض طرقه، من كل وجه، ولم ينقل عن هذه المدينة خبر، ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم[2].

٣ ـ يرى ابن خلدون أن التشيع للآراء والمذاهب قد أعمى بصائر المتعصبين عن نقد الأخبار التي يروونها. «فإن النفس إذا كانت على حالٍ من الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر، حتى يتبين صدقه من كذبه. وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة»[3].

٤ ـ من الأسباب التي تدعو إلى انطماس الحقائق وذيوع الأكاذيب أن الناس يتقربون لأصحاب السلطان والمراتب بالثناء والمدح، فتستفيض الأخبار بثنائهم ومدائحهم، وهي بعيدة عن الحقيقة، ثم يأتي الرواة، فيتلقفون ذلك، ويذيعونه من غير بصيرة، ولا بحث، ويأتي مَنْ بعدهم ليأخذوا صورة عن أوضاع أصحاب النفوذ والسلطان من خلال ما تناقله المؤرخون الذين يحطبون كل ما يجدونه!!.

---

(١) سورة الفجر.
(٢) مقدمة ابن خلدون: ١/١٧.
(٣) المصدر السابق: ١/٥٦.

٥ ـ ويقـرِّر ابن خلدون أمـراً في غـايـة الخـطورة، ويُعـدُّ بحق وثبـة ذهنيـة رائعة، حين يذكر أن لكل حـادث من الحوداث ذاتـاً كان أو فعـلاً طبيعة تخصـه في ذاته، وفيما يعرض من أحواله، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوداث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلـك في تمحيص الخبر على تمييـز الصدق من الكـذب. وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض.

ويذكر مثالاً على ذلك مـا نقله المسعودي من أن الإسكـنـدر لما صـدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية اتخذ تابـوتاً من خشب، وفي بـاطنه صنـدوق من زجاج، فركب فيه، وغاص في البحر، حتى رسم صور تلك الدواب الشيـطانية التي رآهـا، وعمل تماثيلها من أجسام معدنية، ونصبها بحذاء البنيـان، ففرت دواب البحـر حين خرجت، ورأتها. ويرى ابن خلدون استحالة ذلك، لأن الملوك لا تغامر بأنفسها في مثـل هذا، ولأن الشيـاطين لا صـور لهـا، ولأن الهـواء الـذي في البيت الـزجـاجي لا يكفي الجالس فيه ـ لنقص الأوكسجين ـ ، فيؤدي ذلك إلى هلاكه[١].

٦ ـ لا يُنظر في عدالة الرواة إلَّا إذا كان الخبر المروي جائـز الوقـوع، فإذا كان مستحيلاً فإنه لا فائدة من النـظر في توثيق الـرواة، وتعديلهم، وهـو بهذا يلتقي مـع المحدِّثين. ويـذكر ابن خلدون أن الاهتمـام بالجـرح والتعديـل إنما يكـون في التحقق من صحـة الأخبار الشـرعية: «لأن معـظمها تكـاليف إنشائيـة أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها. وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها، وصحتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن ننظر في إمكان وقوعه[٢]».

إن هـذه الأفكار النقـدية التي تمس صلب الخبـر ـ بقطع النـظر عن نقلتـه ـ تجعل المسلم في حصن حصين من الوقـوع في أسر الـدعايـات المنظمـة المضللة التي ينشغل بها الناس اليوم، ويبنون عليها الكثيـر من عواطفهم لا سيمـا حين تنعدم دراسات الإسناد وموازين الجرح والتعديل كمـا هو الشأن في هذه الأيـام!!. وحين

(١) مقدمة ابن خلدون: ١/٥٨.
(٢) المصدر السابق: ١/٦١.

تساهلنا في كل ما نسعمه، ولم نملك الفاعلية لتمحيصه صار مركبنا العقلي مؤلفاً من المعقول واللامعقول، ومن الجائز والمستحيل، وكانت الثمرة اضطراباً في كل شيء!!.

(ب) ما بين الظن واليقين:

وبعد أن نصل إلى الحقيقة عن الطريق المؤدية إليها لا بد لنا من إدراك كنه الحقيقة التي قبضنا عليها، هل هي مما يدخل في دوائر اليقينات، أو هي بالظنون أشبه؟. والتفريق بين هذين الضربين من الحقائق لا يدركه إلَّا أولو العزم من العلماء المحققين الذين عرفوا قدر النتائج التي توصلوا إليها، فأنزلوها منازلها! وكم تكون الفاجعة كبيرة حين نختلف في البدهيات، وحين نظن أن ما وصلنا إليه عن طريق الاجتهاد والنظر في مرتبة ما لا يحتاج إلى تدليل، وكم يكون الزيغ حين نورد الظنيات موارد القطعيات، فنلبس على أنفسنا، وعلى الآخرين؟!!. وإدراك كنه النتائج التي نتوصل إليها على الوجه الصحيح ضروري جداً في عملية تحديد الموقف من المخالف، فالمخالف في القطعيات غير المخالف في الظَّنيات، والمخالف في الفرعيات ـ التي يكاد يكون الخلاف فيها أصلاً ـ صنف ثالث. وفرق كبير بين مخالف يخرج بخلافه عن الملة، ومخالف يثوب بأجر خلافه لبذله وسعه فيما هو مناط للاجتهاد، وموضع لتدافع الآراء والمذاهب!!.

وحين نمعن النظر في حال الناس تجاه هذه المسألة نجد الحيف فيها أكثر من الإنصاف، كما نجد التبعية للأهواء والأمزجة الخاصة على أشدها، ولكن يبقى في هذه الأمة على اتساع أمداء الزمان والمكان من يتقرب إلى الله ـ تعالى ـ بإنزال الحقائق منازلها، وإنصاف المخالفين ومغالبة الأهواء والظنون.

ومما نجده عند علماء الأصول في هذا الباب أنهم قسموا المسائل الشرعية إلى أقسام: قسم منها قطعي معلوم من الدين بالضرورة، كوجوب الصلوات الخمس وصوم رمضان وتحريم الزنا وقتل النفس، فهذه المسائل ليست مناطاً للاجتهاد، والحق فيها واحد، ومن أنكر واجباً منها، أو أحل محرماً فقد كفر. وهم على حق في هذا حيث إن جواز الاجتهاد في نحو هذا سبب في ذهاب الثوابت والأصول، واختلاط الحق بالباطل الذي لا شبهة فيه.

وقسم منها فيه أدلة قاطعة، لكنه ليس من الضروريات الشرعية التي يستوي في معرفتها الخاص والعام، فإذا نظر في شيء منها من ملك أهلية الاجتهاد، وبذل وسعه في الوصول إلى الحكم فإنه غير آثم، وإن وقع في الخطأ، لأن كون الدليل قطعياً ليس أمراً ثابتاً في كل موضع، بل هو أمر إضافي في كثير من الأحيان[١].

وقسم ثالث من المسائل الشرعية لا قواطع فيها، وإنما أدلتها ظنية، والمجتهد في هذا القسم إن أصاب حكم الله في المسألة فاز بالأجرين، وإن أخطأ فله أجر واحد، على ما ورد في الصحيح[٢].

وقد انبنى على هذا الموقف مرونة عجيبة من السلف تجاه بعضهم بعضاً في قضايا الخلاف، فهم لا يكفِّرون، ولا يفسِّقون، ولا يؤثِّمون ما دام الخلاف في غير المسائل الواضحات المعلومة من الدين بالضرورة، وفي هذا يقول الشافعي ـ رحمه الله ـ: «... أحدهم إذا خالفه صاحبه قال كفرت، والعلم إنما يُقال فيه: أخطأت»[٣]. وموقف الذهبي من ابن خزيمة تطبيق عملي لهذا، فقد روي عن ابن خزيمة أنه قال: «من لم يقرَّ بأن الله على عرشه قد استوى فوق سبع سماواته فهو كافر حلال الدم، وكان ماله فيئاً». وقد علق الذهبي على هذا القول بكلام جميل قال فيه: إن ابن خزيمة أوَّل حديث الصورة، فليعذر من تأول بعض الصفات، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه، وتوخيه لاتباع الحق أهدرناه، وبدَّعناه لقلَّ من يسلم من الأئمة معنا[٤].

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحد منهم على أحد بكفرٍ، ولا بفسقٍ، ولا معصيةٍ، كما أنكر شريح قراءة من قرأ: «بل عجبتُ ويسخرون»[٥] وقال: إن الله لا يعجب، فبلغ ذلك

---

(١) انظر: إرشاد الفحول: ٢٦٠ وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٢٢/٣.
(٢) انظر: فتح الباري ٣١٨/١٣، وإرشاد الفحول: ٢٦١.
(٣) دعوة إلى السنة: ٦.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣٧٣/١٤.
(٥) الصافات: ١٢ وهي قراءة حمزة والكسائي من السبعة انظر البحر المحيط ٣٥٤/٧.

إبراهيم النخعي، فقال إنما شريح شاعر يعجبه علمه. كان عبد الله أعلم منه، وكان يقرأ: «بل عجبتُ».

وكما نازعت عائشة وغيرها من الصحابة في رؤية محمد ﷺ ربه، وقالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، ومع هذا لا نقول لابن عباس ونحوه من المنازعين لها: إنه مفتر على الله. وكما نازعت في سماع الميت لكلام الحي، وفي تعذيب الميت ببكاء أهله، وغير ذلك. وقد آل الشر بين السلف إلى الاقتتال مع اتفاق أهل السنة على أن الطائفتين جميعاً مؤمنتان، وأن الاقتتال لا يمنع العدالة الثابتة لهم، لأن المقاتل وإن كان باغياً فهو متأول، والتأويل يمنع الفسوق»[1].

بل إن ابن تيمية يذهب إلى أبعد من هذا حين يقول: «بل جعل الدين قسمين: أصولاً وفروعاً لم يكن معروفاً في الصحابة والتابعين، ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين إن المجتهد الذي استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم لا في الأصول، ولا في الفروع، ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة، وأدخله (أصول الفقه) من نقل ذلك عنهم. وحكوا عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه قال: كل مجتهد مصيب، ومراده أنه لا يأثم. وهذا قول عامة الأئمة، كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما.

ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء، ويصلون خلفهم، ومن ردها كمالك، وأحمد فليس ذلك مستلزماً لتأثيمهما، لكن المقصود إنكار المنكر، وهجر البدعة. ولهذا فرَّق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة المظهر لها وغيره»[2].

---

(١) الفتاوى ٣/٢٢٩.

(٢) المصدر السابق: ١٣/١٢٥. وقد بسط هذا الموضوع في ١٩/٢٠٦. ومراده بالأصول غير ما ذكرناه مما علم من الدين بالضرورة، وقد ضرب أمثلة عدة لوقائع حدثت في أيام النبي ﷺ أخطأ فيها أصحابها مع أن فيها حكماً قطعياً، ولم يؤثمهم النبي ﷺ.

انظر: ١٩/٢٠٩ من الفتاوى. والشافعي رحمه الله يجعل المعلوم من الدين بالضرورة الذي لا يسع المسلم العاقل جهله هو ما كان عاماً عند أهل الإسلام ينقله عوامهم

وزيـادة في الاحتياط في تعـاملهم مع المـظنونـات فإنهم لا يكفـرون شخصـاً بعينـه، فمن نُقل عنـه كلام مكفـر إجماعـاً قـالـوا فيـه: من قـال هـذا فهـو كـافـر، ولا يطلقون كلمة الكفر على الشخص نفسـه خشية أن تكـون نسبة الكـلام إليه غيـر صحيحة، أو خشية وهم السامع فيما سمع. يقـول ابن تيمية في هـذا: «وكنت أبين لهم أن ما نقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكـذا، فهو أيضاً حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين. وهذه أول مسألة تنـازعت فيها الأمة من مسائـل الأصول الكبـار، وهي مسألـة (الوعيـد)، فإن نصـوص القرآن في الوعيد مطلقة، كقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا . . . ﴾ الآية.

وكذلك سائر ما ورد: من فعل كذا فهو كذا. ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه بتوبة أو حسنات ماحية ومصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة»(١).

ويتكـامل في الموضوعية مع كـل ما سبق أن المجتهـد إذا أخـطأ خـطأ بيِّنـاً كـعـدم وقوفـه على دليل قـاطع في المسـألـة، أو مخـالفتـه لإجمـاع فـإن اجتهـاده لا يُعتمد، ويُعدُّ ذلك منه زلة، ولا يورد قوله في موارد الاحتجاج كائناً من كان!! وما أحسن ما روي عن ابن المبارك في هذا حيث قال: «كنا في الكوفـة، فناظـروني في النبيـذ المختلف فيه، فقلت لهم: تعـالـوا، فليحتـج منكم عمن شـاء من أصحـاب النبـي ﷺ بالرخصة، فإن لم نبين الرد عليه من ذلك الرجل بشدة عنه، فاحتجوا.

فما جاؤوا عن واحد برخصة إلَّا جئناهم بشدة، فلما لم يبقَ في يـد أحد منهم إلَّا عبد الله بن مسعود، وليس احتجـاجهم عنه في رخصـة النبيذ بشيء يصـح عنه. قـال ابن المبارك: فقلت للمحتـج عنه في الـرخصة: يـا أحمق عـدَّ أن ابن مسعـود

عمن مضى من عـوامهم، يحكونـه عن رسول الله، ولا يتنـازعون في حكـايته، ولا وجـوبه. وهذا النوع من العلم العام لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل، ولا يجوز فيـه التنازع. وهنـاك علم الخاصـة، وهو مـا ينوب العبـاد من فروع الفـرائض، فهذا يعـرفه العلمـاء دون غيرهم. انظر الرسالة: ٣٥٧، ٤٦١.

(١) الفتاوى: ٣/ ٢٣٠.

لو كان ههنا جالساً، فقال: هو لك حلال. وما وصفنا عن النبي ﷺ وأصحابه في الشدة كان ينبغي لك أن تحذر، أو تحيَّر أو تخشى؟!. فقال قائلهم: يا أبا عبد الرحمن فالنخعي والشعبي، وسمى عدة معهما كانوا يشربون الحرام؟!. فقلت لهم: دعوا عند الاحتجاج تسمية الرجال، فرب رجل في الإسلام مناقبه كذا وكذا، وعسى أن يكون منه زلة، أفلأحد أن يحتج بها؟!. فإن أبيتم، فما قولكم في عطاء وطاووس وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وعكرمة؟ قالوا: كانوا خياراً! قال: فقلت فما قولكم في الدرهم بالدرهمين يداً بيد؟ فقالوا: حرام. فقال ابن المبارك: إن هؤلاء رأوه حلالاً، وهم يأكلون الحرام؟! فبقوا، وانقطعت حجتهم»(١).

إن هذه الموضوعية في مسائل الخلاف كانت من عوامل التوحيد المهمة لهذه الأمة على مدى التاريخ، والفقر فيها اليوم جعل كثيراً من الخيرين يستعملون أسلحة التكفير والتفسيق، بل والفتاوى بهدر الدم ضد بعضهم بعضاً، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله!!.

(ج) فقه الموازنات:

جاءت الشريعة الغراء لإصلاح أمور الناس الدنيوية والأخروية، وقد تمحورت إصلاحاتها حول محاور خمسة، هي: حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وهي التي تسمى، بـ (الكليات الخمس) أو (الضروريات الخمس). وهذه الكليات تمثل لدى المسلمين محاور للتربية الاجتماعية، من أولها إلى آخرها. وحفظ هذه الكليات قد يتطلب في بعض الأحيان التضحية ببعضها، بل قد تتطلب جزئية منها التضحية بجزئية أخرى من الكلية نفسها، وهذا يتطلب فقهاً لترتيبات مطالب الشريعة ومقاصدها، كما يتطلب فقهاً بالواقع المعاش، ونوعاً من البصيرة المسلحة بالخبرة في عواقب الأمور المترتبة على الإقدام على أمر ما، والإحجام عنه.

وهذا الفقه تشتد الحاجة إليه كلما ساءت الظروف والأحوال التي تمر بها

(١) الموافقات للشاطبي ٤/١٧١، ١٧٢.

الأمة، حيث تكثر الخيارات الصعبة، وتضيق سبل الحلول المطروحة، وتصبح التضحية ببعض الخير، وارتكاب بعض الشر أمراً لا مفر منه! إن تنمية الإحساس بفقه الموزانات لدى مسلم اليوم ضرورية جداً حتى لا نتعامل مع الأشياء على أنها كتلة، صلدة، وحتى نشعر أن في بعض الشر خياراً..

ويمكن أن نحصر أهم صور فقه الموازنات في جانبين من جوانب التشريع.

الأول: يشتمل على مجموعة من القواعد الفقهية التي توصل إليها علماء المسلمين، والثاني يشتمل على صور من الترتيبات بين الكليات الخمس التي عنيت الشريعة بحفظها.

ويمكن أن نلاحظ في الجانب الأول مجموعة من القواعد الفقهية التي تعبر عن موازنة دقيقة بين المصالح والمفاسد، ونجد من هذه الموازنات قولهم: «إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما». وخرَّجوا على هذه القاعدة مسائل كثيرة، منها جواز أخذ الأجرة على ما دعت إليه الضرورة من الطاعات كالأذان وتعليم القرآن والفقه. ومنها تجويز السكوت على المنكر إذا كان يترتب على إنكاره ضرر أعظم. ومنها: جواز شق بطن الميتة لإخراج الولد إذا كان ترجى حياته[1].

ومن تلك القواعد قولهم: «الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف». وفرعوا على هذه القاعدة: حبس من وجبت عليه النفقة إذا امتنع عن أدائها، ولو نفقة ابنه، وكذلك يُسجن إذا امتنع عن القسم بين زوجاته، ويُضرب إذا اقتضى الأمر ذلك. وهذه كلها أضرار تلحق المسلم، لكن عدم العقوبة والردع يؤدي إلى أضرار أشد، وبصورة أعم[2]. ومن ذلك قولهم: «يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام». وفرعوا على هذه القاعدة جواز التسعير إذا تعدى أرباب القوت في بيعه بالغبن الفاحش، وجواز الحجر على الطبيب الجاهل، وجواز المرور في ملك الغير

---

(١) شرح القواعد الفقهية: ص ١٤٧.

(٢) المصدر السابق...

لإصلاح النهر العام[1]. وقواعد أخرى جميلة على هذا النمط من مثل: «الضرر يدفع بقدر الإمكان»، وقولهم: «يختار أهون الشرين»، وقولهم: «درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح»، و«الضرر لا يزال بمثله ولا بما فوقه».

والجانب الثاني يتجلى فيه الكثير الكثير من الأحكام الجزئية التي تحكم الأحوال التي تبذل فيها النفوس لأجل الدين، أو يؤخر أمر الدين من أجل النفوس أو الأموال أو الأعراض... إلخ. والناموس العام الذي يقضي بتقديم كلية من الكليات الخمس على غيرها هو: عظم المنفعة المحصَّلة، وعظم المفسدة المدفوعة. ومن خير من عالج هذا الموضوع عز الدين بن عبد السلام في كتابه: «قواعد الأحكام»، فيمكن أن نعتمد على ما ذكره في هذا، لأنه يعبر عن توجه عام لدى الفقهاء جميعاً.

ومن المعلوم بصورة عامة أن المسلم يُضحي بنفسه وماله في سبيل حفظ دينه، والذود عنه وتبليغه الناس، وقد شرع الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتحقيق هذا المقصد.

لكن ليس كل بذل للمهج والأرواح ممدَّحاً، ولا مرغوباً، إذ إن صيانة نفس المسلم مطلب شرعي كذلك، ومن ثم فإن ذلك يخضع لموازنة دقيقة! وبناء على هذا ذهب أهل العلم إلى أن الفرار من الزحف من الكبائر، لكن حين يواجه المسلمون أعداداً تزيد على ضعف عددهم، مع اتفاق العتاد وظروف القتال، أو كانوا مثلهم في العدد، ولكن يفضلونهم في التسليح إلى حدٍ يبطل قيمة التماثل العددي فإن الفرار من الزحف يصبح جائزاً. وإذا ما غلب على الظن أن المسلمين وهم على تلك الحال غير قادرين على إيقاع النكاية في عدوهم، وعدم القدرة على الدفع عن حياتهم فإن الفرار قد يصبح واجباً، لأن القتال يصبح مفسدة خالصة[2]. والصلاة عماد الدين، وهي أهم الأركان العملية، لكن في بعض الأحيان تؤخر من

---

(١) شرح القواعد الفقهية: ص ١٤٤.

(٢) انظر: قواعد الأحكام: ١/ ٩٥.

أجل إنقاذ نفس مشرفة على الموت، بل يصح قطع الصلاة لمن تلبَّس بها إذا سُرق له متاع، من جل استدراكه واسترجاعه، لأن الصلاة يمكن تداركها بعد ذلك. ومن الصور النبيلة في هذا ما ذكره العز ـ رحمه الله ـ من أن الصائم إذا رأى من يُصال عليه، وغلب على ظنه أنه لا يمكن دفع الصائل إلَّا بالتقوِّي بالإفطار لحلَّ له أن يفطر!!. ومن الصور الجميلة أيضاً التي تدل على أعظم المسؤوليات في سبيل حفظ أنفس الآخرين ما ذكروه من أن المرء إذا أكره على قتل مسلم بحيث لو امتنع قُتل لزمه أن يدرأ مفسدة قتل النفس المحرمة بالصبر على القتل وتحمله، لأن ذلك أخف مفسدة من قتل نفس محرمة!!.

لكن إذا هدد بالقتل إذا لم يشرب الخمر فإنه يجب عليه شربها، لأن حفظ النفوس أعظم في نظر الشرع من رعاية حرمة هذا المحرَّم[1]. بل إن الشارع أباح للمسلم أن ينطق بكلمة الكفر إذا أكره على ذلك ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان.

وفي مجال القيم الخلقية فإن المعروف أن الكذب حرام، وهو من القبائح المرذولة، لكن حين يؤدي الصدق إلى إيقاع الظلم على الأبرياء فإن الكذب يصبح أولى من الصدق، كما إذا اختبأ فارٌّ عند شخص، وتعقبه ظالم فإن الكذب بالقول بعدم رؤيته أولى من الصدق، وذلك دفعاً للظلم المتوقع. والستر على المسلمين مطلب شرعي، لكن قد يحتاج إلى هتكه حفظاً للدماء والأعراض والأموال، حيث لا تقوم الحياة إلَّا بها.

وفي بعض الأحيان يكون أمام المسلم أكثر من خيار، فيتمكن من الجمع بين المصالح المختلفة، كما إذا سرق مالَ إنسان سرقة توجب قطع اليد، فإنه لا يجب على السارق الإعلام بالسرقة، بل يخبر مالك السرقة بأن له عليه مالاً بقدر المسروق إن كان أتلفه، أو يرجعه إليه إن كان باقياً، ولا يتعرض لذكر السرقة، لأن عقوبتها حد من حدود الله، فالأولى بمرتكبها سترها على نفسه[2].

هذه نماذج قليلة لموضوع كبير جداً، وهو موضع لاختلاف التقدير، وتفاوت

---

(١) قواعد الأحكام ١/ ٨٠.

(٢) السابق ص ١٦٠.

الاجتهاد، بحسب ثقافة المجتهد وخبرته والزاوية التي ينظر منها، ويبقى (فقه الموازنات) على كل حال باباً من أهم أبواب الرؤية الموضوعية.

(د) ما بين الأشخاص والأفكار:

هذه المسألة من أخطر المسائل التي زلت فيها الأقدام قديماً وحديثاً، والتي تُنكبت فيها سبل الموضوعية بصورٍ عجيبةٍ غريبةٍ. ومنشأ الزيغ في هذه القضية أن كثيراً من الحقائق يثبت عن طريق نقل أشخاص لها، سواء أكانت هذه الحقائق من الغيبيات، التي ينقلها الرسل عن رب العالمين، أم كانت من الحقائق التي يتوصل إليها بالتجربة أو الاستنباط. والأخطر من هذا هو تفسير الحقائق، إذ إن كثيراً من الحقائق يظل هلامياً قابلاً لتشكيلات عدة، والذين يقومون بتشكيلها هم الأشخاص، وكثيراً ما تكمن قيمة الحقيقة في تفسيرها، وبيان علاقتها بالحقائق الأخرى. وهذا كله يجعل إمكانات اختلال علاقات الأشخاص بالأفكار كبيرة. وتتسع هذه الإمكانات حين تمر الأمة بمرحلة ركود، أو حين تواجه أزمة في الفعل، فينتج عن ذلك أزمة في أعمال العقل، فتقلُّ، أو تضعف فاعلية الأفكار، ويكون ذلك عادة لحساب الأشخاص. كما أن كثيراً من التجمعات تتخذ لها مسالك خاصة تحدد من خلالها مواقفها من أشياء كثيرة، وكثيراً ما يكون التفافها حول شخص يقودها، ويكون المنهج فيها معدوماً، أو على درجة من الضآلة بحيث لا يراه إلاَّ القليل، وحينئذ فإنه لا مفر من العودة إلى الزعيم، ليمنح الفلسفة النظرية لكل تصرفات التجمع وخصوصياته!!.

ورحم الله الصحابة الذين احترسوا أشد الاحتراس من اختلاط ما استقر من المنهج بآرائهم الشخصية التي تحتمل الخطأ والصواب، فهذا عمر ــ رضي الله عنه ــ يقول ــ وقد كتب كاتب له بين يديه: هذا ما أرى اللَّهُ عمر ــ: لا. امحه، واكتب: هذا ما رأى عمر. وهذا ابن مسعود يسأل عن مسألة المفوضة شهراً، فيقول: بعد الشهر أقول فيه برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني، ومن الشيطان. والله بريء مما أقول، ورسوله[1].

---

(١) إغاثة اللهفان ١/١٩٣.

ونظراً لدقة هذه المسألة وضبابية كثير من تفاصيلها فإن الإطار النظري ظل هو الأكثر وضوحاً، وظلت التطبيقات حبيسة تقريرات صفوة الصفوة من علماء الأمة الذين فهموا ثوابت المنهج ومتغيراته، كما فهموا طبيعة العلاقة التي تربط بينه وبين الرجال على الوجه الصحيح، فلاذوا بالمنهج في المنشط والمكره، وأحوال الإقبال والإدبار.

ويمكن أن نجلو من موضوعية علماء المسلمين في هذا الباب النقاط التالية:

١ ـ رفض المبالغة:

تمثل المبالغة حيال مسألة من المسائل نوعاً من التفلت من القيود التي تحكم تلك الحقيقة، سواء أكانت شرعية أم عرفية، كما أن المبالغة نزعة شخصية نضفيها على الموضوعات المختلفة، وحين تكون الحقيقة شرعية فإن المبالغة في تصويرها تعد خروجاً على منهاج الشريعة التي تأمرنا بوضع الأمور في نصابها دون بخس، ولا شطط. ومن صور المبالغة التي انتقدت ما ذكره السليماني في ترجمة محمد بن نصر حيث قال: إنه ألف كتاب «تعظيم قدر الصلاة»، وكتاب «رفع اليدين»، وغيرهما من الكتب المعجزة!. قال الذهبي: ولا معجز إلاَّ القرآن[١]! وقد صدق الذهبي فإن أعمال البشر مقدورة لبعضهم بعضاً، وهي لا تنفك عن النقصان مهما بلغت من الكمال. ومن ذلك ما ذكره الحسن المروزي من أن بعض أصحاب الحديث جاؤوا إلى بشر الحافي، فقال لهم بشر: ما هذا الذي أرى معكم قد أظهرتموه؟ قالوا يا أبا نصر نطلب هذه العلوم لعل الله ينفع بها يوماً. قال قد علمتم أنه يجب عليكم فيها زكاة، كما يجب على أحدكم إذا ملك مئتي درهم خمسة دراهم؟ فكذلك يجب على أحدكم إذا سمع مئتي حديث أن يعمل بخمسة أحاديث، وإلاَّ فانظروا (إيش) يكون هذا عليكم غداً[٢].

---

(١) السير ١٤/٣٧.

(٢) تاريخ بغداد ٧/٦٩.

قال الذهبي معلقاً على كلام بشر: هذا على المبالغة، وإلَّا فإن كانت الأحاديث في الواجبات فهي موجبة، وإن كانت في فضائل الأعمال فهي فاضلة، لكن يتأكدالعمل بها على المحدِّث[1].

وقد تصل المبالغة حداً ممجوجاً يخرج على النصوص، خروجاً صريحاً مع سوء الأدب مع الله تعالى والتعدي لحدوده!! وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله: وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين، إما من تعدي حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحداً فأنا منه بريء. فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار، فأنا منه بريء. ويقول: أحدهم: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على باب جهنم حتى لا يدخلها أحد! وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين، وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم»[2]. وهذا الكلام لا يقدم عليه حتى الأنبياء المقربون لمعرفتهم بجلال الله تعالى.

٢ ـ المنهج فوق الأشخاص:

الأصل أن يخضع المسلم لمنهج الله ـ تبارك وتعالى ـ، لكن لملابسات كثيرة تختلط الأمور، وتظن العصمة في غير المعصوم، ويذهب كثير من الناس ـ للحفاظ على ما استقر في نفوسهم من تقديس بعض الأشخاص ـ إلى تأويل المنهج، وتفسيره تفسيراً متكلفاً لا تسعفه طاقات اللغة، ولا الأدلة الثابتة. وقد وصل استعظام وقوع الخطأ من بعض الأشخاص، أوعدم معرفتهم بقضية من القضايا إلى حد الاندهاش من قول عالم (لا أدري)، فقد ذكروا أن رجلاً سأل ثعلباً النحوي عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال الرجل: مثلك يقول: لا أدري؟!. فقال ثعلب: لو أن لأمك عدد ما لا أدريه بعراً لاستغنت[3]!.

---

(١) السير ١٠/٤٧١.

(٢) الفتاوى ١٠/٢٠٩.

(٣) إنباه الرواة ١/١٤١.

والمستقر عند جميع العقلاء أنه لا يوجد من انفرد من المجتهدين بالصواب في كل المسائل التي ذهب إليها، وأنه لا يوجد مذهب من المذاهب في الفقه أو النحو أو العلوم قد انفرد بالصواب كله، كما لا يوجد مذهب مضى بالخطأ كله؛ وقد كان أئمة السلف يدركون ذلك إدراكاً حسناً، فقد كانت تقوم بينهم المناظرات، وكان يرجع بعضهم إلى بعض، فمما ذكروه من ذلك أن إسحاق بن راهويه ناظر الشافعي ــ وأحمدُ بن حنبل حاضر ــ في جلود الميتة إذا دبغت، فقال الشافعي: دباغها طهورها. فقال إسحاق: ما الدليل؟. قال الشافعي: حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس عن ميمونة أن النبي ﷺ مرَّ بشاةٍ ميتةٍ، فقَال: هلا انتفعتم بجلدها. فقال إسحاق: حديث ابن عكيم: كتب إلينا رسول الله ﷺ قبل موته بشهر: لا تنتفعوا من الميتة بإهاب، ولا عصب أشبه أن يكون ناسخاً لحديث ميمونة، لأنه قبل موته بشهر. فقال الشافعي: هذا كتاب، وذاك سماع. فقال إسحاق: إن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر، وكان حجة عليهم عند الله. فسكت الشافعي. فلما سمع أحمد بن حنبل ذلك ذهب إلى حديث ابن عكيم، وأفتى به، ورجع إسحاق إلى قول الشافعي، فأفتى فيه بحديث ميمونة[1]. ويذكرون كذلك أن الشافعي تناظر مع أبي عبيد القاسم بن سلام، فكان الشافعي يقول: إن القرء هو الحيض، وأبو عبيد يقول: إنه الطهر. فلم يزل كل منهما يقرِّر قوله حتى تفرقا وقد انتحل كل منهما مذهب صاحبه، وتأثر ما أورده من الحجج والشواهد[2]. وفي هذا وذاك تقديم للمنهج على النفس!!.

لكن خلف من بعد أولئك الأئمة خلف تحيزوا إلى جانب الأشخاص على حساب المنهج، وفي الرد على أولئك يقول العز بن عبد السلام: «ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، ومع هذا يقلده فيه، ويترك من الكتاب والسنة، والأقيسة الصحيحة لمذهبه على تقليد إمامه، بل يتحلل لدفع ظواهر الكتاب والسنة. ويتأولهما

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١/٢٣٧.

(٢) قواعد الأحكام ٢/١٣٥.

بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلّده». ثم قال: «وما رأيت أحداً عدل عن مذهب إمامه إذا ظهر له الحق في غيره، بل يصبر عليه مع علمه بضعفه وبعده»[١].

ورحم الله الإمام الشافعي الذي كان يقول: «والله ما ناظرت أحداً إلاّ قلت: اللهم أجر الحق على قلبه ولسانه، فإن كان الحق معي اتبعني، وإن كان الحق معه اتبعته»[٢]. وقد وقف حراس الشريعة بكل ما يملكون من القوة في وجوه أولئك الذين يسعون إلى إعلاء الأشخاص على المنهج، ولو كان أولئك الأشخاص من الأنبياء، أو الصحابة أو غيرهم، لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أنفسهم كانوا حراساً على الوحي الذي جاؤوا به، وكانوا نماذجه التطبيقية العملية. ومما يذكر في هذا الصدد ما ذهب إليه بعض المفسرين في قوله ـ تعالى ـ:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٣].

من أن المراد بالذنب المتقدّم ذنب آدم وحواء، والذنب المتأخر ذنوب الأمة المسلمة[٤].

وقال بعضهم: المتقدّم ذنب إبراهيم والمتأخر ذنوب النبيين! والمعلوم أن العلماء اتفقوا على القول بعصمة الرسل ـ عليهم السلام ـ من ارتكاب الكبائر، أما الصغائر فهي عندهم موضع خلاف. والقولان اللذان ذكرناهما في تفسير الآية خارجان عن ظاهرها بعيدان عن دلالة اللفظ والسياق. ثم إن الذين قالوا: إن المتقدّم ذنب إبراهيم، والمتأخر ذنب النبيّين وقعوا في مفارقة ظاهرة، سواء أكانوا ممن جوّز وقوع الصغائر من الأنبياء، أم كانوا ممن يقول بعصمتهم منها. ثم إن القول إن الذنب الذي سيُغفر هو ذنب آدم مصادم للنص القرآني مصادمة مباشرة، فقد قال ـ سبحانه ـ:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[٥].

---

(١) قواعد الأحكام ٢/١٣٥. لعل الصورة أقل قتامة اليوم مما ذكره العز، رحمه الله.

(٢) السابق ٢/١٣٦.

(٣) سورة الفتح: الآية٢.

(٤) القرطبي ١٦/٢٦٣. (٥) سورة طه.

فقد تاب الله على آدم قبل الهبوط إلى الأرض والنصوص التي تثبت أن الأنبياء ــ عليهم السلام ــ يتوبون، ويستغفرون، والنصوص التي أُمروا فيها بذلك كثيرة جداً، يصعب تأويلها. وإن كان مما لا يخفى أن ما يقع منهم هو من باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين). فالمنهج الذي هو جملة من الحقائق أولى بالولاء والحماسة!!.

ومن جملة صور إعلاء الأشخاص على المنهج أيضاً ما زعمه بعضهم من أن من سب الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ لا تقبل توبته، وقد روى زاعمو ذلك حديثاً مكذوباً على النبي ﷺ، هو: «سب أصحابي ذنب لا يُغتفر». وهذا القول مصادم لقوله ــ تعالى ــ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾[1].

وهذا في حق من لم يتب. وقال ــ سبحانه ــ في حق التائبين:

﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾[2].

ولن يكون سب النبي، أو سب أصحابه أعظم جرماً من الشرك بالله، ومقاتلة أنبيائه. لكن تقديس الأشخاص مع غض النظر عن النصوص الصريحة الصحيحة، وما تقضي به العقول السليمة هو الذي يدعو إلى هذا ونحوه!!!.

لكن أهل العلم لهذه الظواهر المنحرفة بالمرصاد!!.

٣ ــ قوة الحقيقة ذاتية:

إن من إجلال الحقائق وإعطائها حقها أن نعترف بها، وننزلها في منزلها الذي تستحقه بقطع النظر عن قائليها، سواء أكان ذلك القائل صديقاً أم عدواً، عالماً أم جاهلاً.

(١) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥٣.

فما ثبت أنه حق وجب أن نتعامل معه على أنه كذلك، لأن من أكبر وظائف المسلم في هذه الحياة أن يُحق الحق، ويُبطل الباطل، ويمحقه، ولو عظم مناصروه والمستفيدون منه!.

ولا يشترط للحقيقة حتى تثبت أن نجد لها شواهد من ثقافتنا، أو من منهجنا، فإن عدم وجود مانع لدينا كاف في هذا المقام لإزالة كل الحواجز التي تقف في وجه قبولها. وإن كل ثقافة تقبل من النظم والآليات واللوائح والإجراءات كل ما لا يتعارض مع مبادئها العليا وكل ما ينشط أداء وظائفها.

وقد علمنا النبي ﷺ قبول الحقائق مهما كان مصدرها ما دامت حقائق، وما دام ليس في مناهجنا ما يصادمها، على نحو ما نجده في الحديث الصحيح: «عن سعد بن أبي وقاص أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: إني أعزل عن امرأتي. فقال رسول الله: لِمَ تفعل ذلك؟ قال: أشفق على ولدها. فقال رسول الله: لو كان ذلك ضاراً ضرَّ فارس والروم». وفي رواية: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة ـ قربان الرجل امرأته وهي حامل ـ حتى ذُكِّرتُ أن الروم وفارس يفعلون ذلك، فلا يضر أولادهم»[1].

وعلى هذا النهج سار الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، فهذا سلمان الفارسي وأبو الدرداء أرادا الصلاة في بيت نصرانية، فقال لها أبو الدرداء: هل في بيتك مكان طاهر، فنصلي فيه؟

فقالت: طهرا قلوبكما، ثم صليا أين أحببتما! فقال له سلمان: خذها من غير فقيه!

إن المسلم لم يؤمر بالسؤال عن باطن الأمر ما دام الظاهر الطهارة، وقد نبهتهما نصرانية إلى هذا الأمر، فتقبلاه دون تردد.

وعلينا أن ننسب كل حقيقة لمكتشفها، وكل فكرة لمبدعها كائناً من كان، لأن

---

(١) انظر: عون المعبود ١٠/٣٦٤، ٣٦٥.

هـذا من الإنصاف الـذي أمرنـا به، فقـد نجد تفجيـراً لنص من نصوصنـا، أو كشفاً لخطأ من أخطائنا، أو تأصيـلاً إسلاميـاً لمسألـة من المسائـل عند غيـر مسلم، وهذا اليوم ليس قليلاً، إذ إن آيات الله في الآفاق والأنفس لا تتجلى إلاَّ لمن يبحث عنها، وغيرنا اليوم أكثر سعياً في الأرض، وأكثر حركة في اكتشافها! وواجبنا تجاه ذلـك ألا نتحرَّج من نسبة الفضـل لأهله، فذلـك أقسط عند الله، وأقـرب للتقوى، وأدنىٰ من تأليف قلوب المخالفين.

وفي الجهـة المقابلة فـإن الرأي الـذي لا تسنده الأدلـة لا يستمـد صحتـه من سلطان قائله، ووجاهته، كما لا يستمد احترامه وشرعيتـه من المدة الـزمنية التي ورد فيها، أو مضت عليه، وهـذا واضح جـداً من خلال حـركة الاجتهـاد والترجيـح بين الأقوال التي ــ وإن خفت صوتها في بعض الأحيان ــ لم تتـوقف في أرجاء المجتمع الإسلامي، فقد نهى كبار الأئمة عن تقليـدهم، وأخذ أقـوالهم دون معرفـة أدلتهم، ومنزع الأحكام التي صاروا إليها، حتى لا يكون الولاء إلاَّ للأدلة والبينـات، فالشيء إذا عُرف سببه بطل العجب منه. وفي هذا يقول الإمام الشافعي: «مثل الذي يطلب بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب، وفيه أفعى تلدغه، وهو لا يـدري». وقال أبو داود: قلت لأحمد: الأوزاعي هو أتبـع من مالـك؟ قال: لا تقلد دينـك أحداً من هؤلاء، مـا جاء عن النبـي ﷺ وأصحـابه فخـذ به، ثم التـابعي بعدُ الـرجلُ فيـه مخيَّر.

وقال بشر بن الوليد: قال أبو يوسف: لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا(١). ولا أظن أننا بحاجة إلى الإتيان بأمثلة على مخـالفة متـأخري الأمـة لمتقدميهم، وقد تنازع الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ في مسائل غيـر قليلة، وكان مـوقف الأئمـة ــ بشكـل عـام ــ من ذلـك الخـلاف هــو: الأخـذ ببعض الآراء، والإعراض عن بعضها، لبعدها عن الكتاب وما ثبت من السنة. ولا يؤثر في ذلك أن يكـون صاحب القـول المعرَض عنـه من أعلام الصحـابة كـالخلفـاء الأربعـة، ومن

(١) أعلام الموقعين ٢/٢٠٠، ٢٠١.

داناهم، لأن العبرة ليست بمكانة قائل القول، ولكن بقرب قوله من الأصول والأدلة.[1]

وحتى تظل الشريعة ــ والتي هي مجموعة من الحقائق ــ متألقة متجددة ذكر كثير من العلماء أن تعلم المسلمين ما يوصلهم إلى مرتبة الاجتهاد فرض كفاية، فإذا قام من كل ناحية واحد أو اثنان سقط الإثم عن الباقين، فإذا قعد الكل عن تعلمه عصوا جميعاً، لما فيه من تعطيل أحكام الشرع[2]. وهم يهدفون من وراء هذا إلى استمرار حركة النظر في الأدلة، وتنزيل الأحكام على الواقع، حتى لا تقصر النصوص والأحكام عن تلبية حاجات العصر.

وبعد،

فهذه أهم الصور التي تجلت فيها الموضوعية في فكر علماء الأمة وأعمالهم،. وهذه الصور اشتملت على بعض النماذج التي تخالف الموضوعية من باب: «الشذوذ يؤكد القاعدة». ونحن هنا لم نقصد إلى الاستقصاء والإحفاء، ولكن إعطاء الأمثلة والنماذج. وربما فاتني ذكر قضايا مهمة في هذا الباب، قصرت في ذكرها، لعدم اطلاعي عليها، أو لعدم استيعابي لها. وفي الحركة الثقافية الموّارة يُتدارك القصور والتقصير، وتصحح الأخطاء، وتكمل النواقص. والله المستعان.

• • •

---

(١) أعلام الموقعين ١/ ٢٩. وما ذكرناه أخيراً سقيد في حال اختلاف الصحابة مع بعضهم على ما هو معلوم.

(٢) الرد على من أخلد إلى الأرض ص ٦٩.

الفصل الخامس

في

صُوَرٌ وَمَوَاقِفُ تُنَافِي المَوْضُوعِيَّة

صور ومواقف تنافي الموضوعية

إن التجليات التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة تعد ثماراً مباشرة للتوجيهات القرآنية والنبوية؛ وتلك التجليات ممهورة بطابع (الشرعية) لانسجامها مع الإطار النظري الذي تحدثنا عنه أيضاً من قبل[1]. لكن الوقوف عند هذا الحد يجعلنا حقاً غير موضوعيين؛ إذ إن هناك الكثير من الحالات والصور الشائعة التي تنافي الموضوعية، سواء أكان ذلك على صعيد الواقع التاريخي، أم كان على صعيد الواقع المعاش. ومهما قيل إن تلك الصور كانت خطأ، وطالما رفضت على بعض المستويات في القديم والحديث فإن الكثير منها تحول من حالة عارضة إلى مرض مستوطن تغلغل في حياة الأمة، وتكيفت معه (سلبياً) إلى درجة حسبانه جزءاً من عافية الأمة ـ في بعض الأحيان ـ ؛ ولذا صار الخلاص منه غير متيسر في كل الأحيان. والذي ينبغي أن يقال في البداية هل من الممكن العادي تخلص أمة من الأمم من جميع صور «اللاموضوعية» بحيث تكون مواقفها الفكرية والسلوكية منسجمة مع المنطلقات العامة للموضوعية؟؟.

إن الذي لا أتمارى فيه أن ذلك غير ممكن؛ حيث إن مؤثراً كبيراً يظل بالمرصاد عند التعامل مع كل حقيقة من الحقائق، وهو الهوى والمصالح الشخصية إلى جانب ضعف الإدراك لصور التحيز، حيث يكون في بعض الأحيان على درجة من الدقة والخفاء يتعذر معها إلمام جميع الناس به؛ وهذا يعني أن الإنسان يحتاج إلى جهاد متواصل على مستوى الإرادة، وعلى مستوى القدرة حتى يظل قريباً من

(١) انظر ص ٦١ من هذا البحث.

الإدراك الموضوعي والموقف الموضوعي. ومن ثم فإن التزام الشعوب والأفراد بالموضوعية سيظل نسبياً.

وإذا ما التفتنا إلى مسألة الموضوعية لدينا وجدنا أن طبيعة التكليف بالنسبة للمسلم تقتضي حساسية خاصة لإدراك الموضوعية بشكل حسن؛ إذ إنه مكلف بالقيام بأعباء الخلافة في جانب العبودية، وجانب إعمار الأرض، وبين هذين الجانبين من التداخل والترابط والتقاطع الكثير؛ مما يجعل الناس بحاجة إلى فترة زمنية طويلة نسبياً حتى يتمكنوا من اجتلاء طبيعة تلك العلاقات، واتخاذ المواقف الموضوعية من مفرداتها وجزئياتها.

وقد كانت جزيرة العرب هي موطن الإشعاع الأول للإسلام، وكانت طبيعة تضاريسها، وطرق المواصلات فيها لا تسمح بتواصل جيد بين سكانها؛ مما جعل تعميم الفكرة الواحدة فيها أمراً غير يسير. وكان عدد الذين لازموا النبي ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، واهتدوا بهديه عن كثب ليس بالكثير إذا ما قيس بالأعداد الكلية للجيل الأول. ومن ثم فإن حركة بناء العقل الموضوعي لم تكن تنتشر في أرض ممهدة، وإنما كانت تصطدم برواسب كثيرة، لعل من أهمها الولاء للقبيلة، والحياة البدائية التي كانت يعيشها العرب بكل ما كانت تزخر به من ألوان الجهل والهوى والتعصب، وأنماط التفكير (اللامنطقي). وصاحب كل ذلك حركة الفتوح الإسلامية التي حملت كثيراً من كرام الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ إلى خارج الجزيرة العربية؛ لينداحوا في مجتمعات كثيرة العدد متنوعة الثقافة، تتباين تبايناً كبيراً مع ما ألفوه في موطنهم الأول؛ وهذا جعل الطاقات المتوفرة لاستيعاب المسلمين الجدد، وبنائهم بناء فكرياً صحيحاً غير كافية!.

ويضاف إلى هذا وذاك أن مرحلة (رأس القمة) التي تتمثل في حياة النبي ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ والخليفتين الراشدين من بعده كانت قصيرة نسبياً، بدأت بعدها مرحلة (القمة) في حياة ثالث الراشدين ورابعهم عثمان وعلي. هذه المرحلة التي لم تخل من بزوغ بعض الخلافات والاجتهادات التي أخذت تهيىء الأجواء لأحكام غير موضوعية عن طريق شهوة أو شبهة أو اجتهاد غير محكم الأصول أو رأي

مركب من كل ذلك. وأي موقف موضوعي يقفه الخارجي حين يبلغ الكافر مأمنه، ويستبيح دم المسلم[1].

ولو أن الأمر اقتصر على هذا إذن لهان الخطب؛ لكن الذي حدث هو انخفاض عام في مستوى الالتزام بالقيم الإسلامية التي تجسدت في حياة النبي ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ ومرحلة الخلفاء الراشدين؛ وحين تهبط القيم فإن تأويل النصوص والأنظمة يصبح سهلاً؛ حيث يضعف الوازع الداخلي.

ويضاف إلى كل ما سبق النزاع الذي قام بين المسلمين حول بعض قضايا الحكم، وما آل إليه ذلك النزاع من اقتتال وتدابر، وما أعقبه من تحول الخلافة الراشدة القائمة على الشورى إلى ملك متوارث لا تهدأ معه ثائرة فئة مخالفة حتى تثور ثائرة فئة أخرى!! وأفرز ذلك كله مواقف ورؤى وأحكاماً واجتهادات لا تستند إلى الموضوعية.

وقد ظلت فترة (رأس القمة) ـ وما زالت ـ تشكل النموذج الضاغط المهيمن فكرياً وشعورياً على كل المراحل والحالات التالية؛ مما جعل صور افتراق السلطان والقرآن أكثر وضوحاً وبروزاً. وهذا بدوره أدى إلى حرمان كثير من الخلفاء الأمويين والعباسيين، ومن جاء بعدهم من آراء كثيرين من العلماء الأتقياء، كما حرم أولئك العلماء من معايشة فعلية عميقة لكل المشكلات التي تواجهها دولة عليها أن تكيف حياتها وعلاقاتها مع مبادئها في ظروف كثيراً ما تكون صعبة!!.

كل هذه العوامل والملابسات أدى إلى انتشار التفكير (اللاموضوعي) في بعض الدوائر قبل اكتمال التمكين للتفكير الموضوعي المؤسس على هدي الشريعة الغراء. وعلى الرغم من كل ذلك فإن مشعل الحق ظل مرفوعاً، ولم تخل الأمة يوماً من الرجالات الذين يدلون الناس على مراشد الحق، ومقاطع الهداية، ويبينون لهم

---

(١) يروون أن عالماً من علماء المسلمين مر على (حاجز) للخوارج، فسألوه: من أنت؟ فقال: مشرك يريد أن يسمع كلام الله. فقال أحد الخوارج لصاحبه: «أبلغه مأمنه». ولو قال إني مسلم لقتلوه!!.

مواطن زلل الأقدام. هذه خلفية تاريخية وموضوعية موجزة لما سنذكره من الحقول والمجالات التي تبدت فيها مواقف وآراء وحالات لا تتسم بالموضوعية في ماضينا، وفي واقعنا المعاش؛ ونسأل الله العون والهداية.

وإليك بعض الصور التي نرى أنها خارجة عن الموضوعية:

١ ـ التعصُّب:

تقوم آلية التعصب على اعتقاد المتعصب أنه قبض على الحقيقة النهائية التي تدفع به إلى وجوب الالتزام الكامل برأي أو مذهب أو جماعة أو قبيلة أو فترة تاريخية معينة مما يجمع عادة بين الفضيلة والرذيلة والحسن والقبح والخطأ والصواب. ويقتضي ذلك الالتزام الدفاعَ الصُلب عنه في وجه كل ما يخدش مضمون ذلك المعتقد.

والفارق بينه، وبين الالتزام أن الأخير انحياز إلى قطعيات لا تقبل الجدل، أو مبادىء عامة وقع الإجماع عليها، كالانحياز إلى أمهات الفضائل والعقائد نحو الكرم والشجاعة والوفاء والإحسان، ونحو الإيمان بأصول العقائد والأصول المعلومة من الدين بالضرورة. وبصورة عامة فإن الالتزام يكون بما علا على دوائر الاجتهاد، كما يكون التعصب ـ عادة ـ فيما يقبل النظر والتأمل. وكلما كان عدد الجزئيات التي عزم المتعصب الدفاع عنها كثيراً كانت مخاطرته أكبر، وكان تعصبه أشد. ويمثل التعصب ضرباً من ضروب الأنانية حيث يكون المتعصب جزءاً مما يتعصب له على مستوى النسب، أو المكان، أو الفكرة. ولا يكون التعصب غالباً مبنياً على غير أساس، وإنما يقع فيه التجاوز والمبالغة؛ مما يحيل المتعصب إلى متطرف حقاً.

وكثيراً ما ترتبط قوة الولاء والانحياز لحزب أو جماعة أو مذهب بطول الفترة الزمنية التي قضاها في صحبة ما يتعصب له، أو المركز الذي يحتله فيه حيث تُعلَّق به آمال صغار المنتمين، ومصير الرابطة موضع التحيز.

أما الدوافع التي تؤدي بالمرء إلى التعصب فهي كثيرة، تظهر أحياناً بشكل جليّ، وأحياناً تكون دفينة تظهر بغير لبوسها.

ومن أهم تلك الدوافع الاستفادة ممن نتعصب له؛ فالقبيلة مثلاً تؤمِّن نوعاً من الحماية والتكافل لأبنائها؛ وثمن هذا هو الإشادة بها، وتأويل أخطائها، وإبراز محاسنها. وكما أن هناك قبيلة رابطتها النسب فإن هناك قبيلة رابطتها الثقافة، فالجماعة والمذهب يؤمِّنان نوعاً من إشباع الانتماء الثقافي والشعوري لدى المنتسب إليهما، كما أنهما يريحانه في كثير من الأحيان من عناء التفكير والبحث والاجتهاد والموازنة... وفوق كل ذلك فإنهما يوفران للمنتمي حاجة ضرورية هي عدم الشعور بالشذوذ والاغتراب. ومن الدوافع البيئةُ الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد؛ حيث تتوفر في كثير من البيئات ألوان من التعصب، تنتج في العادة عن سيادةَ روح التعصب في جميع الأحكام والعلاقات والرؤى الاجتماعية. وحين تسيطر آلية التعصب فإن ما يتعصب له الناس قد يختلف من زمان إلى آخر، ولكن لا يذهب لون إلَّا بحلول لون مكانه استجابة لفاعلية روح التعصب السائدة. ويصبح الناس في أكثر الأمر بين مستجيب للبيئة، وبين خارج عليها لائذاً أيضاً بشكل آخر من أشكال التعصب؛ فالذين يعيشون حياة منسجمة مع مجتمعهم يشاركونه فيما يتعصب له. أما الذين يتمتعون بروح التمرد، أو الذين يشعرون بالظلم والقهر فإنهم يتعصبون للجنس المقهور معهم؛ وأمثلة هذا كثيرة، وليس ما حدث للموالي والشعوبيين مثالاً فذاً...

وكثيراً ما يتعصب شعب أو فرد لماضيه نتيجة لسوء الواقع فالأصالة والعراقة وأمجاد الآباء والأجداد هي أنشودة العالم الثالث اليوم!!.

وكثيراً ما يكون الدافع قهرياً لا حيلة للمرء فيه، وذلك حين تكون التربية الاجتماعية المتوارثة قائمة على رؤية (ذَرية) للأشياء والأحداث والأفكار! وهذه الرؤية تكون في العادة عاجزة عن إبصار القضايا الكلية، وعقد الموازنات، ورؤية الألوان المتعددة. وحين تستمر تلك التربية فترة طويلة من الزمن فإنها تنشىء مرضاً خطيراً للغاية هو: (التركيب العقلي الأحادي) الذي يكون في العادة عاجزاً عن الاستفادة من أكداس المعلومات المتاحة له؛ لأنه يمتص منها ما يغذيه، ويزيده انحرافاً، لا ما يعدله، ويصححه. وأخيراً فإن أية فكرة ـ مهما تكن تافهة ـ إذا توفرت لها الدعاية اللازمة فإنها تجد من يعتنقها، ويتحمس لها؛ ولذا فإن المتعصب

كثيراً ما يقع ضحية لدعاية منظمة حجبت عنه الصورة الكلية، وأغرقته في تفاصيل كثيرة، لا تؤدي إلاَّ إلى التعصب والتحيز. والآن إليك بعض النماذج التي تجسد هذه الآفة الخطيرة:

(أ) التعصب لأهل البيت:

من الطبيعي أن يحب المرء كل من يدلي بسبب إلى من يحب، لا سيما إذا كان في النصوص الشرعية ما يشير إلى ذلك، أو يحث عليه؛ فإذا عضد ذلك وجود صفات ملموسة من صفات الكمال فإن الأمر يزداد توكيداً؛ وهذا ما توفر لِكثير من آل بيت رسول الله ﷺ فمن النصوص قول الله ـ تعالى ـ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1].

وقوله ـ سبحانه ـ:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2].

وهناك أحاديث عديدة.

وأهل الحق يحبون آل بيت رسول الله ﷺ كما يحبون أصحابه وأولياءه ومن سار على سنته، لكن ذلك كله في إطار عام من الجمع بين النصوص، وإقامة موازين الإسلام العامة، كقوله سبحانه:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[3].

وقوله:

---

(١) سورة الأحزاب. وقد رجح القرطبي وابن كثير والشوكاني أن المراد ببيته هنا أزواجه وفاطمة وعلي والحسن والحسين. انظر فتح القدير: ٤/٢٨٠.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٣. ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد أن تودوني لقرابتي منكم وتحفظوني بها. وهذا هو الثابت عن ابن عباس، ورجحه الشوكاني. انظر السابق: ٤/٥٣٧.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[1] .

وقـوله ﷺ : «يـا فاطمـة بنت محمد سليني مـا شئت من مـالي لا أغني عنـك من الله شيئاً[2] .

وقدأبطل الله ـ تعالى ـ علائق النسب عنـدما تعـارضت مع الإيمـان والاتباع حين قال ـ سبحانه ـ :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

لكنْ حـدث هناك خلل عنـد طـوائف وأفـراد من أهـل السنـة وغيـرهم، وقـد أوصلهم ذلـك الخلل إلى نوع من الغلو في حب قـرابة النبـي ﷺ، وبلغ بهم ذلـك الغلو أنهم أحبوهم، وقدسوهم أكثر من حبهم لـرسول الله الـذي أحبوهم من أجله، وهــذا من العجـائب حقـاً!! وتجـاوز ذلـك إلى اعتقـاد العصمـة فيهم من بعض الطوائف، بل نزول الوحي على بعضهم، بل اعتقاد الألوهية!!

ومن صـور التعصب الممقوتـة المبالغـات العجيبة التي نسبهـا بعض الأشيـاع والمتحزبين إلى بعض أهل البيت، كالذي ادعي من أن الله ـ تعـالى ـ رد الشمس لعلي ـ رضي الله عنه ـ مرتين بعدما غربت!! ويأتون للدلالة على ذلـك بحكايـات تفتقر إلى الأسانيد الصحيحة. ومثل هذا الحـدث الضخم لا يقبل ولـو رواه ثقة عن ثقة؛ لأن مثل هذا مما ينبغي أن يـرويه ـ لـو حدث ـ الألـوف عن الألوف[3] . ومـا أطيب العرس لولا النفقة!!.

ومما دفع عليه التعصب المذموم: ما ادعوه أن علياً ـ رضوان الله عليه ـ كـان يصلي في ليله ونهاره ألف ركعة[4] . وهـذا الخبر صنو الخبر الأول في الغرابة والبعد عن الحقيقة؛ وإذا كان الخبر الأول يقضي برد الشمس لعلي مـرتين فإن هـذا الخبر

---

(١) سورة النجم.

(٢) صحيح البخاري: ٢٠٣/٦ .

(٣) انظر المنتقى من منهاج الاعتدال: ص ٥٢٦ .

(٤) السابق: ص ٤٩١ .

يفيد أن نهار علي وليله غير نهار الناس وليلهم؛ إذ لو فرض أن كل ركعة تستغرق دقيقتين لكان يوم علي ثلاثاً وثلاثين ساعة!! ولوجب أن يكون الرجل ممن لا يزور، ولا يزار، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا ينام، ولا يسعى على عياله!! وإذا تجاوزنا كل هذا فهل اشتغال الإمام بإصلاح شؤون الرعية، وإقامة العدل، والذب عن البيضة أفضل، أم الاستغراق في الصلاة!! لكن إذا لم تستح فقل ما شئت!.

ومنها ادعاء بعضهم أن كلام علي فوق كلام المخلوقين، ودون كلام الخالق(١). وفي هذا إزراء بالنبي ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، واستخفاف بأبسط أنواع الاستقراء التي يؤمن بها بنو البشر!!.

والعجيب أن العلامة صالحاً المقبلي اليمني لم ينج من شيء من المبالغة في حق آل البيت حين قال فيهم: «إنهم مظنة الخير ومئنته، وسرُّ النبوة سارٍ فيهم لائح في أعمالهم ومكارم أخلاقهم، بل على صورهم الحسيَّة؛ يرى غالب الناس الرجلين بديهة، فيقطع، أو يظن أن أحدهما من أهل البيت النبوي؛ ولقد كنا في اليمن ما يكاد يتخلف هذا علينا لصحة أنسابهم»(٢)!!.

وتجاوز هذا الأمر كل ما ذكرناه إلى إثبات العصمة لكثير من أهل البيت بحجة أن ذلك كان من لطف الله بالخلق حتى لا تنطفىء فيهم شعلة الهداية!!. وفي هذا طامة كبرى حيث يصبح الدين كله إلى يوم القيامة في يد أشخاص يزيدون فيه وينقصون منه على أهوائهم، وحينئذ فقل على الثوابت السلام!!. إن أهل الحق يثبتون العصمة لمجموع الأمة؛ فهي لا تجتمع على ضلالة؛ لأن فيها طائفة ظاهرة على الحق أبداً. أما الأفراد فلا عصمة إلَّا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومن أنواع التعصب لأهل البيت: ادعاء بعضهم: أن الله أسقط المؤاخذة عن أهل البيت، وسامحهم في جميع ما يأتون، وقد قال ابن عربي: إن ما يصيبنا من ظلم ظالمهم فكما يصيبنا من القدر المطلق، ولا نذكرهم في قلوبنا وألسنتنا إلَّا

---

(١) المنتقى في منهاج الاعتدال: ص ٥٠٨.

(٢) العلم الشامخ: ص ٢٦٧.

بخير، والقبيح لا يقبح منهم؛ لأنهم مطهرون[1]. وهذا الكلام لا يحتاج إلى تعليق!.

وفي تاريخنا مآس، ومصائب سود نتجت عن الغلو في حب آل البيت والمفاضلة بين أهل البيت وغيرهم، وقد قتل اثنان من الأعلام هما: ابن هذيل، وابن البردون على يد أبي عبيد الله الشيعي، لأنهما لم يقولا بتفضيل (علي) على الشيخين أبي بكر وعمر[2]. فهل هذا مما يُرضي أبا الحسن؟ معاذ الله!!.

وقد جرَّ بعض أنواع التعصب لأهل البيت البلاء عليهم في بعض الأحيان، من بعض من يدعون حبهم، وتعظيمهم، كما حدث في القرن الثاني عشر الهجري حيث حرم الزيدية في بلاد اليمن زواج الفاطميات على من ليس بفاطمي، وعدوا حق المطالبة بالكفاءة فيهن لله وحده؛ فليس لأحد أن يسقطه! وكانت عاقبة ذلك أن كثيرات منهن صرن عوانس؛ والمفاسد التي تترتب على العنوسة كثيرة. ومع أن النساء أكثر من الرجال فإن كثيراً من الفاطميين كانوا يتزوجون من غير الفاطميات، ويدعون الفاطميات قواعد في البيوت[3]! وهذا هو الحب الذي يقتل حقاً!.

وقد كثر المدعون للنسب الشريف، وشكلت لذلك النقابات والهيئات، واقتات على موائد أهل البيت أفراد وطوائف ودول، وصيروهم مظلة ترتكب تحتها المحادة لله ورسوله، كما فعل العبيديون في مصرحين تسموا بـ(الفاطميين)، وفعلوا كل قبيح من ادعاء الألوهية، إلى ارتكاب الكبائر وسفك الدماء[4]. وما زال المسلسل متتابعاً، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

(ب) التعصب للمذهب:

يتفاوت الناس تفاوتاً عظيماً في إدراك الحقائق والأشياء؛ ولكثير منهم في المشاغل الدنيوية، والكدح في تحصيل الرزق ما يصرفهم عن إمكانات التفقه

---

(١) العلم الشامخ: ص ٢٦٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢١٥.

(٣) العلم الشامخ: ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٤) انظر البداية والنهاية: ١٢/١٠ ـ ١٢.

والتعلم؛ ومن ثم فقد انقسم الناس منذ زمن رسول الله ﷺ إلى خاصة يعلمون موارد الأحكام ويملكون القدرة على النظر والترجيح، وعامة يفزعون إلى أولئك الخاصة في كل ما ينوبهم من أمر دينهم.

وقد كان الأئمة المتبوعون ينهون الناس عن تقليدهم، ويحثونهم على الاتجاه قدر الإمكان إلى معرفة المصادر التي استقوا منها آراءهم ومذاهبهم. ومضى الناس مدة من الزمن لا يلتزم الواحد بقول إمام بعينه في كل أمور دينه، وإنما يسأل العامي في كل ما عنَّ له من يثق بدينه وعلمه من العلماء. ثم أخذت الحلقات العلمية الهلامية لكبار أهل العلم تتشكل على نحو محدد، حيث صار كبار طلاب تلك الحلقات عمداً فيها، ينوب الواحد عن الشيخ إذا غاب بالتدريس والفتيا، وشرح ما أجمل في درس الشيخ بعد انصرافه، ويستروح إليه الشيخ ويأنس ببعض رأيه ومناقشاته عند حضوره. ثم تطور الأمر إلى التفريع على الأصول التي أصَّلها الشيخ إلخ... وتكونت بذلك لدينا مدارس في الفقه لها رجالها وأصولها وتوجهاتها. والأمر إلى هذا الحد طبيعي؛ لكن تلك المدارس أصابها من الأمراض ما يصيب التجمعات الخاصة من الانغلاق والتحزب وحسن الظن بالنفس والتشنيع على المخالف والمنافس.

وحين دخلت الأمة في مرحلة (الانكماش الحضاري) أخذت أمراض التقهقر تنعكس على تلك المدارس، وصار العجز فيها عن التجدد والتجديد أمراً ظاهراً؛ حيث إن أزمة العقل كثيراً ما تكون صدى لأزمة الفعل!

وانتهت تفاعلات الأزمة إلى إعلان إغلاق باب الاجتهاد، وكان ذلك يتم في أشكال مختلفة تارة بالتصريح، وتفريع المسائل على ذلك، وتارة بالتشدد في شروط الاجتهاد، وتارة بالتشنيع على كل من تظهر منه الجرأة على الإقدام على قول جديد...

ولست هنا في صدد التفصيل في أزمة الاجتهاد والتقليد، وما أفرزته من مشكلات عانت، وتعاني منها الأمة إلى يوم الناس هذا، لكني أريد أن أسوق بعض الأمثلة التي تكشف لنا أن لمشكلاتنا الاجتماعية والأخلاقية والسياسية جذوراً عميقة، وأن تلك الجذور ما زالت حية تمد العقل المسلم بالكثير من أسباب التفكير

المعوج! وليس القصد من ذكر هذه الأمثلة التشنيع على أحد من القدامى، أو المحدثين، لكن القصد هو أن نضع النقاط على الحروف استشرافاً للعافية، واستبصاراً في موطن تزل فيه الأقدام، مع التنبيه على أنه لا مناص لكثير من الناس من أن يكونوا مقلدين؛ فليس التقليد لمن لم يقدر على الاجتهاد هو المذموم، لكن المذموم هو التعصب الممقوت الذي يبخس الناس أشياءهم، ويورد الظنيات في موارد القطعيات، ويمنح العصمة لغير المعصوم، ويبذر بذور الفرقة والشقاق بين أبناء الملة الواحدة حتى تظهر مذاهب الدين الواحد، وكأنها أديان شتى!! وإليك بعض النماذج التي تصور ألواناً من التعصب المذهبي:

١ ـ إثبات الفضائل مهما تكن غريبة:

من صور التعصب المذهبي تلمس الفضائل للأئمة، وإن كانت تلك الفضائل بعيدة الحصول غريبة عما ألفه الناس في ماضيهم وحاضرهم؛ مع أن للأئمة الأربعة خاصة ـ رحمهم الله ـ من الفضل الثابت الصريح والمكانة السامقة المرموقة ما يغنيهم عن المدائح الكاذبة التي يقترب بعضها من الخرافة!!.

من ذلك ما نقل عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال: كتب أبي عشرة آلاف ألف حديث، لم يكتب سواداً في بياض إلَّا حفظه[١]! وعن الوركاني ـ وهو رجل يسكن إلى جوار الإمام أحمد ـ قال: أسلم يوم مات من اليهود والنصارى والمجوس عشرون ألفاً. وفي رواية: عشرة آلاف!![٢] والسؤال من الذي قام بهذا الإحصاء؟.

ويقول صاحب (العلم الشامخ): ذكر بعض المتفقهة في مكة من الحنفية أن عيسى ـ عليه السلام ـ سيصلي معهم حين ينزل! قال: فذكرت هذا لبعض عقلاء الشافعية، فقال: هذا مصرح به في كتب الحنفية![٣] قلت: هذا يحتاج إلى خبر نبي، فمن أين جاء الخبر؟!.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٠٢.

(٢) السابق...

(٣) العلم الشامخ: ص ٢٦٤.

وذكر صاحب كتاب (الجواهر المضية) نسباً لأبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ مسلسلاً إلى آدم ـ لم ينس أن يجمع واضع النسب بين أبي حنيفة، وبين النبي ﷺ في إبراهيم، كما لم ينس أن يمر به على عدد من الأنبياء الكرام مثل يعقوب وإسحاق وهود!! وهذا مع أن كثيراً من النسابين، وأصحاب السير لم يتجاوزوا بنسب النبي ﷺ عدنان؛ وهذا مع عناية العرب بأنسابهم. والحنفية خصوا اعتبار النسب في التكافؤ بين الزوجين بالعرب؛ لأنهم هم الذين عنوا بحفظ أنسابهم، وتفاخروا بها. أما العجم ـ ولا خلاف أن أبا حنيفة فارسي ـ فلم يعنوا بأنسابهم، ولم يفخروا بها[١].

ومن ذلك ما نقل عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال: لا أعلم هاشمياً ولدته هاشمية إلَّا علي بن أبي طالب والشافعي. قال في الهامش: انظر هذا مع أن الحسن والحسين هاشميان ولدتهما هاشمية؛ وعبد الله بن الحسن الملقب بـ (الكامل) ولدته هاشمية[٢]!!

وقال السبكي أيضاً متحدثاً عن أتباع الشافعي ـ رحمه الله ـ: ومنهم أهل اليمن، والغالب عليهم الشافعية، لا يوجد غير شافعي إلَّا أن يكون زيدياً؛ وفي قوله ﷺ: «الإيمان والحكمة يمانية» مع اقتصار أهل اليمن على مذهب الشافعي دليل واضح على أن الحق في هذا المذهب المطلبي[٣].

وقال أيضاً: «أما بلاد الحجاز فلم تبرح أيضاً منذ ظهور مذهب الشافعي إلى يومنا هذا في أيدي الشافعية: القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة والناس من (٥٦٣) سنة يخطبون في مسجد رسول الله ﷺ، ويصلون على مذهب ابن عمه محمد بن إدريس، يقنتون في الفجر، ويجهرون بالتسمية، ويفردون الإقامة إلى غير ذلك وهو ﷺ حاضر يسمع، ويبصر؛ وفي ذلك أوضح دليل على أن هذا المذهب

---

(١) الفقه الإسلامي: ٧/٢٤٣.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٨٣.
(٣) السابق: ١/١٧٤.

صواب عند الله تعالى[1]. أفرأيت، أو سمعت طريقة في الاستدلال أكثر حنكة ودقة من هذه الطريقة!! ورحم الله الشافعي واضع علم الأصول، ومعلمه الناس ماذا يقول لو سمع بمثل هذا؟!

ومن باب توكيد فضل الشافعي أيضاً ذكر السبكي أن جميع المجددين حتى المائة السابعة هم من الشافعية، فقصر التجديد على شخص واحد في كل قرن، ثم رأى أن ذلك المجدد شافعي[2].

ولم يقصِّر الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في إيراد العجائب في سياق ثنائه على الإمام أحمد بن حنبل؛ فمن ذلك ما ذكره بالإسناد المتصل أن رجلاً جاء من بحر الهند يريد الصين، أصيب مركبه، فأتاه راكبان على موجة من أمواج البحر، فقال أحدهما له: أتحب أن يخلصك الله على أن تقرىء أحمد بن حنبل السلام؟ قلت: ومن أحمد، ومن أنتما يرحمكما الله؟! قال: أنا إلياس، وهذا الموكل بجزائر البحر، وأحمد بن حنبل بالعراق. قلت: نعم فنفضني البحر نفضة فإذا أنا بساحل الأبلة! فقد جئتك أبلغك السلام[3].

وساق من هذا القبيل ثناءَ الخضر ـ عليه السلام ـ عليه، وثناء غرباء العباد والأولياء إلخ... مما يحتوي على مخالفات شرعية، كان الإمام أحمد من أشد الناس كراهية لها.

٢ ـ اعتقاد أن كل ما في المذهب صحيح:

من المشهور في الأوساط الفقهية القول: «مذهبنا صحيح يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب». وهذا يعبر عن طبيعة الخلاف بين المذاهب الفقهية المشهورة، حيث يكون الاختلاف بينها في الغالب في الفرعيات التي هي

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى.

(٢) السابق: ١/١٠٧.

(٣) مناقب الإمام أحمد: ص ١٨٦، ١٨٧. ولم يقصر المحقق في التعليق على مثل هذه الأخبار بما يناسب.

مناط الاجتهاد بصورة أساسية؛ كما يعبر عن اعتقاد أئمة الفقه أن ما توصلوا إليه من أحكام متنازع فيها يحتمل كل مذهب فيها الخطأ والصواب، ما دام الحق لا يتعدد. ومن الطبيعي أن يرى المجتهد صحة مذهبه، وإلاّ ما حل البقاء عليه؛ لكنه مع هذا فإنه يعلم أن من أمانة العلم ألا تمنح الأحكام ذات الطبيعة الاجتهادية صفة القطعيات.

لكننا نجد من الإطلاقات والمواقف ما يشير إلى اعتقاد بعض أتباع الأئمة من علماء المذاهب الفقهية بصحة كل ما في مذهبهم، بل بخطأ كل ما في المذاهب الأخرى؛ مما يعني إجهاضاً كبيراً لكل ما أرسي من القواعد الأصولية في باب الاجتهاد! وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

يقول صاحب العلم الشامخ: سمعت بعض من يتخلق بالعلم يعلِّم بعض خدم الكعبة، ويقول في كلامه: مالكٌ حجة الله على خلقه في الأرض[1]. ويقول السبكي: «وفي بعض هذا كفاية لمن يتقي، ويحتاط لنفسه أن يزيغ عن الحق على تعظيم قدر الشافعي، وسديد مذهبه، وأن من عاند مذهبه فقد عاند الحق، وباء بعظيم الإثم، ومن أراد إهانته أهانه الله»[2].

وقال الذهبي: قال الحافظ أبو حاتم بن خاموش ـ في حكاية ـ: كل من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم[3]!!

وذكر الخطيب البغدادي عن الحسين بن سليمان أنه قال في تفسير الحديث: «لا تقوم الساعة حتى يظهر العلم» قال: هو علم أبي حنيفة وتفسيره الآثار. وقال خلف بن أيوب: صار العلم من الله إلى محمد، ثم صار إلى التابعين، ثم صار إلى أبي حنيفة وأصحابه، فمن شاء فليرض، ومن شاء فليسخط!![4] على حين يقول

---

(١) العلم الشامخ: ص ٢٦٤.

(٢) طبقات الشافعية: ١/١٠٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٨/٥٠٧.

(٤) تاريخ بغداد: ١٣/٣٣٦.

متعصب آخر لكن على أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ : «خالف أبا حنيفة فإنك تصيب، وإذا سئلت عن شيء فلم يكن عندك شيء فانظر ما قاله أبو حنيفة فخالفه فإنك تصيب[1] !!

ومن الطريف أن عدداً من الأئمة المتعصبين لمذاهبهم أنشدوا أشعاراً يوصون فيها الناس بالتمسك بمذاهبهم ومتابعتها؛ فمن ذلك ما ذكر عن أبي إسماعيل الأنصاري الهروي أنه كان ينشد على منبره:

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت ... فوصيتي للناس أن يتحنبلوا[2]

وكان البوشنجي ينشد:

وإني حياتي شافعي وإن أمت ... فتوصيتي بعدي بأن تتشفعوا[3]

وأما القاضي عياض فقد كان يقول:

ومالك المرتضى لا شك أفضلهم ... إمام دار الهدى والوحي والسنن[4]

وقال بعض الحنفية:

فلعنة ربنا أعداد رمل ... على من رد قول أبي حنيفة[5]

ولا يملك المرء تعليقاً على هذه الدعوات إلَّا قول الشاعر:

منى إن تك حقاً تكن أحسن المنى ... وإلَّا فقد عشنا بها زمناً رغدا

ونتيجة لإيمان بعضهم بصحة المذهب كله وقعت حالات من المراودة على الانتقال من مذهب إلى آخر بشكل كلي، كما وقعت حالات انتقال أخرى حقيقة؛ فهذا هو العكبري يقول: جاء إليَّ جماعة من الشافعية، وقالوا: انتقل إلى مذهبنا،

---

(١) تاريخ بغداد: ١٣/٤٠٧.
(٢) السير: ١٨/٥٠٦.
(٣) طبقات الشافعية: ١/٢٩١
(٤) السير: ٨/١٠.
(٥) السابق: ١٨/٥٠٦.

ونعطيك تدريس النحو واللغة في النظامية. فقلت: لو أقمتموني، وصببتم الذهب عليَّ حتى واريتموني، ما رجعت عن مذهبي[1]!!

وكان محمد بن عبد الله بن عبد الحكم من أصحاب الشافعي، وممن تفقه به، فوقعت بينه وبين البويطي وحشة في مرض الشافعي؛ ويقال إن سبب تلك الوحشة هو التنازع على رئاسة مجلس الشافعي بعد وفاته؛ مما أدى إلى تركه المذهب، وانتقاله إلى المذهب المالكي، وتأليفه كتاباً في الرد على الشافعي فيما خالف فيه الكتاب والسنة[2].

وهذه الأقوال والمواقف تحمل شهادات إدانتها؛ فلا داعي للتشاغل بالرد عليها.

٣ ـ التشنيع على المخالف:

حصر الحق في شخص أو مذهب لا بد أن يؤدي في النهاية إلى نوع من التشنيع على من خالف من حُصر الحق فيه، شئنا أم أبينا؛ فمنطلق الخطأ يكمن في جعل الظني كالقطعي، والمختلف فيه كالمجمع عليه؛ وهذا ما صار إليه بعض أتباع الأئمة الفقهاء على نحو ما أوردنا غيضاً منه. وبما أن الأشياء تتميز بأضدادها، وبما أن «للشوهاء فضلاً على الحسناء» لأنها تبرز محاسنها ـ انطلقت ألسنة المتعصبين فيمن خالفهم حتى تكتمل محاسن من أحبوهم، وتعصبوا لهم من أئمتهم. وجَرْح العلماء حين يجد له مساغاً يكون في غاية القسوة؛ لأنهم أعرف بالمقاتل، وأقدر على تسديد السهام، وأدرى بمخاتل الخصوم!! ولا أريد أن أفيض في هذا؛ حتى لا أنكأ جراحاً قديمة، ولولا أننا نبحث في جذور خللنا اليوم، ونفتش عن العلل التي هوت بأمة كانت في المقدمة؛ لتبحث عن مكان في الذيل، فلا تجد. لولا هذا لما تعرضنا لمثل هذا، فلنحتمل مرارة الدواء ما دمنا ننشد العافية والخلاص من الداء!.

---

(١) نكت الهميان: ص ١٧٩.

(٢) طبقات الشافعية: ١/٢٢٤.

والتشنيع أو المبالغة هو رد فعل منحرف على انحراف آخر، فحين يحاول المرء أن يصور امرءاً غير معصوم تصويراً يلحقه بالمعصومين فإنه ينبه بذلك الأذهان إلى نقائص ذلك؛ لأن الضد أقرب خطوراً في البال!.

وحسبنا من التشنيع ما أفاض به الخطيب البغدادي في تاريخه من ذم أبي حنيفة وأصحابه؛ فقد ذكر في مقدمة ترجمته ثناءً جماً على أبي حنيفة، لكنه محاه بعد ذلك بما ذكره من أوصاف القدح التي لا تطلق على صبي من صبيان المسلمين، بل إن أدب بعض الكفار يمنعهم من قول بعض ما نسبه الخطيب إلى أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ولا بأس أن نورد بعض ذلك؛ ليعلم القارىء أننا لا نتهمَه بما لم يقله.

يقول الخطيب بعد أن ساق الإسناد: حدثنا بعض أصحابنا قال: قال ابن إدريس: إني لأشتهي من الدنيا أن يخرج من الكوفة قول أبي حنيفة، وشرب المسكر، وقراءة حمزة(1).

وقال يزيد بن هارون: ما رأيت قوماً أشبه بالنصارى من أصحاب أبي حنيفة(2).

وقال يوسف بن أسباط: يقول أبو حنيفة: لو أدركني رسول الله، وأدركته لأخذ بكثير من قولي(3)!!.

وهناك على شاكلة هذا الكثير!!.

وهذه الأخبار ذكرها الخطيب البغدادي بـ (حدثنا) و(أخبرنا)، ولها أسانيد تنميها إلى أصحابها، فهل قالها أصحابها حقاً، وهل أوردها الخطيب حقاً في تاريخه؛ فيحتمل وزرها مع قائليها؛ حيث جمع شتاتها، وأشاعها؟ أماالاحتمال الأول فإن ما عمله صاحب (التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل) يدل على توثيق كثير من تلك الأسانيد، وعدالة رجالها؛ وهذا من الدواهي إذا صح أن هذه

---

(1) تاريخ بغداد: ١٣/٤٠٥.

(2) السابق: ١٣/٤١٠.

(3) السابق: ١٣/٣٨٧.

الكلمات ـ وغيرها كثير ـ قد قالها أولئك الأعلام؛ لأن رجالات الحديث معروف عنهم الدقة والموضوعية في النقد. والناظر فيما كتبه الخطيب في أبي حنيفة، وما كتبه الكوثري في الرد عليه، وما كتبه المعلمي في التنكيل راداً على الكوثري ينتهي إلى انطباع أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة لم يبرأ من العصبية، على اختلاف ما بينهم، وأن تأويل المعايير والاتساع فيها اتساعاً يلغيها مما لا يعجز عنه المحترفون إذا جدَّ الجد!!.

وأما الاحتمال الثاني فقد أبدى بعض الباحثين شكهم في أن تكون تلك الشناعات من إثبات البغدادي لأمرين:

الأول: أنه من المستغرب أن يصدر عن الخطيب مثل هذا الكلام، لا سيما حين كان يملي كتابه على طلابه حيث يجعله ذلك مجالاً للنقد الشديد؛ وهذا حق لا مرية فيه.

والأمر الثاني هو: اختلاف النسخ؛ حيث إن المثالب الموجودة في نسخة (كوبريلي) لا تساوي سوى سدس الموجود في نسخة (الصميصاطية)[1].

وهذا أمر محتمل لأن يكون وقع هناك بعض الدس فعلاً من بعض النساخ أو المغرضين من القراء. وهناك احتمال آخر، وهو أن يكون ذلك التشنيع قد حُذف من نسخة (كوبريلي) من قبل بعض النساخ، أو بعض القراء، وهذا غير مستبعد، وله في تاريخنا نظائر[2] لكن حتى على القول بالدس فإن الصفحات الموجودة في النسختين فيها من التشنيع والرمي بالكفر ما يكفي في دلالته!.

وعلى فرض دس كل ذلك فإن الأمور لا تختلف كثيراً؛ حيث إننا هنا لسنا بصدد إدانة الخطيب ـ رحمه الله ـ، لكننا ندين ما أدى إليه التعصب الممقوت،

---

(١) الحافظ الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث: ص ٣٠٧، ٣٠٨.

(٢) عمد محمد بن أحمد الكناني إلى كتابي تأويل مشكل القرآن، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة، فجمع بينهما في كتاب أسماه (القرطين)، وأسقط من المشكل قرابة أربع صفحات طعن فيها ابن قتيبة على قراءة حمزة الزيات. انظر تأويل مشكل القرآن: ص ٨٥.

والتقليد الأعمى من رمي علماء الأمة بما يعف اللسان عن ذكره؛ فالإدانة لمجتمعات يتقبل تركيبها العقلي والثقافي مثل هذه الترهات؛ ولولا معرفة واضعها بتقبل شرائح لها ما وضعها!.

التعصب اليوم:

لقد خفت بحمد الله حدة التعصب اليوم للمذاهب الفقهية، والأشياخ. أما التعصب لأهل البيت فإن اتخاذه ذريعة للشقاق، واقتيات بعض الناس منه يحولان دون وضع نهاية منظورة له!!

لكن ذلك لا يكفي ما لم يتغير التركيب العقلي الذي يقوم على مبدأ أكده المنطق اليوناني: «إما هذا، وإما ذاك». وحين يظل التركيب العقلي على حاله فإن ظروف الحياة المختلفة قادرة على إنتاج ألوان جديدة من التعصب تؤدي إلى نحو ما أدت إليه الأنواع القديمة من فرقة الكلمة، والتوتر الاجتماعي، وخلل الرؤية، وظلم المخالفين والانغلاق على الذات...

والتركيب العقلي لدينا بدأ يتغير ــ وإن كان ذلك ليس إيجابياً دائماً ــ نتيجة وجود تيارات تضغط على الجانب العقلي، وأخرى تضغط على الجانب المادي، وقبل هذا وذاك نتيجة النكبات التي تتواتر على هذه الأمة؛ وهي صنوف وألوان!!.

ــ ومما لا زال بارزاً في حياة المسلمين إلى اليوم التعصب للتخصص، حيث يدعي كل واحد من أقطاب التخصصات العلمية أن حال العالم لن يصلح إلاَّ إذا أخذ بالأفكار والمنطلقات التي يوفرها ذلك التخصص؛ فعالم الاقتصاد يرى أن الضعف الاقتصادي هو وحده سبب كل مشكلة خلقية وتربوية واجتماعية. وعالم الفقه يرى أن جهل الناس بدينهم هو سبب كل علة. وعالم التاريخ يرى أن عدم اطلاعنا على التاريخ، واعتبارنا بما مضى من أيام الله هو الذي جعل الأخطاء تتكرر، وجعل الأمة تخطىء طريق النهوض، وهكذا...

أما أصحاب التخصصات التقنية فلهم شأن آخر، حيث يرون أن مشاكل الأمة تتمحور حول تخلفنا العلمي والتقني، وأن ما يجري من دراسات في المجالات النظرية ليس أكثر من هدر للطاقات والأموال والأوقات، بل ينظر بعضهم إلى

المهتمين بالدراسات النظرية نظرة استخفاف تصل إلى حد اعتبارهم طفيليين في كسبهم على قوى الإنتاج الحقيقية!!.

وهذا كله مخالف للمنطق المستقيم، وتجارب الماضي والحاضر! فالحضارة الإسلامية حين قامت ازدهرت فيها كل العلوم والفنون دون استثناء؛ والحضارة الغربية اليوم تعنى بالدراسات النظرية عنايتها بالدراسات التقنية؛ فما يطبع في ألمانيا ـ على سبيل المثال ـ في الدراسات الإنسانية أضعاف ما يطبع في المجالات التقنية.

والحضارة التي تنتزع الإعجاب هي الحضارة التي يجتمع فيها ما تفرق في غيرها! أما أن تمتاز أمة بشيء لا يوجد عند غيرها فهذا موجود بكثرة في القديم والحديث. وليس هذا فحسب، بل إن الحضارة التي لا تمتلك التوازن بين الجوانب الإنسانية والمادية لا تستطيع أن تستمر طويلاً؛ حيث إنها حين تتعرض لأزمة أو تحد في جانب من جوانبها ـ كالجانب الاقتصادي مثلاً ـ تعتمد على باقي العناصر في حفظ توازنها إلى أن تجتاز الأزمة، وذلك كالتكافل الاجتماعي، والقيم الإنسانية والخلقية الأخرى.

وعلى كل حال فإن الدراسات الإنسانية المبدعة تظل بالنسبة للأمة بمثابة المخ، وتظل الدراسات التقنية والتطبيقية بمثابة اليد؛ ولا غنى للمرء عن كل منهما.

ـ ومن ألوان التعصب السائدة اليوم الانحياز للحزب أو الجماعة التي ينتمي إليها الفرد المسلم. وينبغي أن يُقال أولاً إن نزوع المرء للعمل ضمن مجموعة ينسجم معها في الأهداف والأساليب والوسائل المستخدمة لتنفيذها أمر طبيعي، فإن هناك أموراً كثيرة دينية ودنيوية يستحيل على المرء أن ينفذها بمفرده، ومن ثم فإنه يلجأ إلى من يتعاون معه على تحقيقها، سواء أكانت النتيجة على ما يحب، أو كانت غير ذلك.

ونظراً لقلة الخير الخالص فإن ما يدفع المرء إلى التناهي بالاعتزاز بحزبه أو تجمعه لا يخلو من غضٍ كبيرٍ للطرف عن أصل راسخ في هذا الباب، هو: أن النزاع بين الجماعات داخل إطار أهل السنة والجماعة هو نزاع قائم على الاجتهاد،

وليس على أصول قطعية، تجعل بعضها على الحق البين، أو الباطل البين. وما دام الأمر كذلك فإن اعتقاد المرء ذلك يُعد خطأً بيناً!.

وإن مما يقضي على التعصب، أو يحجمه في هذا المجال هو أن تقوم صلة المسلم بالجماعة أو الحزب على التعاون العملي، فإذا رأى أن بإمكانه أن يساعد جماعة أخرى في عمل من الأعمال، فعليه ألا يتردد، لا سيما إذا كان ذلك العمل يتطلب وجوده، لاختصاصه به، أو نحو ذلك.

إن مما وكّد التعصب هو أن كثيراً من الناس يعقد على صلاته هذه وِلاء وبراء، فهو يوالي فيها ويعادي، مع أن أمر الولاء والبراء محسوم ومواضعه محددة.

وكثير من الذين يعملون مع جماعات لا يصرحون إلّا بما هو حق، لكن الواقع العملي ـ في بعض الأحيان ـ يدل على أنهم يوالون في جماعتهم، ويعادون، لا سيما إذا خاضت جماعتهم حرباً إعلامية مع جماعة أخرى، بل إن بعض من ينتسب إلى تلك الأحزاب على استعداد لخوض حرب مسلحة مع جماعة أخرى إذا لزم الأمر!!.

وهو لإيمانه بجريان الخير على يد جماعته ـ في الجملة ـ غير مستعد لقبول النصح إلّا إذا جاءه من الجماعة نفسها، وصار من الشائع أن الإصلاح من غير الداخل غير ممكن، بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى القول: إن من كان خارج الحزب أو الجماعة لا يحق له النقد، ومن ثم فإن الحل هو أن تنتسب، ثم تنتقد!!. مع أن من مقتضيات الصدق والإخلاص قبول النقد والمناصحة من أي جهة كانت، لا سيما إذا كان ينسجم مع المنهج النظري للمنتقَد.

إن مقتضى قيام الجماعات على الاجتهاد، وأن ما هي عليه ظني لا قطعي ـ ما دام الخلاف في إطار أهل السنة والجماعة ـ يوجب أن تقول كل جماعة كما قال الفقهاء: (مذهبنا صحيح يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب). وهذا يعني أن نبقي مساحات في العقل والقلب لكل من يخالفنا من أجل التفاعل والتعاون والتكامل، وإلّا فقد يكون العمل مع جماعة معوقاً أكثر منه منتجاً.

ـ ومن ألوان التعصب التي نراها اليوم التعصب للوطن؛ وحب الإنسان لوطنه

أمر فطري، والحنين إلى الأوطان قد يُعد أمارة على فضيلة الوفاء، كما أنه دليل على التواصل العاطفي والتاريخي.. ومن الطبيعي أيضاً أن تكون صلات المرء بمواطنيه أقوى منها مع غيرهم، لاعتبارات شتى، لكن كل ذلك ينبغي أن يكون تحت هيمنة المنهج، بحيث لا يشكل حب الأوطان رابطة تحجز المسلم عن أخيه المسلم الذي ينتمي إلى رقعة مكانية أخرى. أن يحب المرء وطناً درج في مغانيه فذاك أمر حميد، لكن منح ذلك الوطن من الخصائص والفضائل ما ليس له فهذا من التعصب الذي ينبغي أن ينأى المسلم عنه.

وهناك اليوم دعوات منظمة تقف وراءها أحزاب ودول ومؤسسات تستهدف إحلال ولاء المسلم لوطنه محل ولائه لدينه. حتى يتمكن أرباب الشهوات والشبهات من تحقيق مصالحهم الرخيصة!!.

ولم يستطع كثير من الخيرين الخلاص من أسر مفرزات الوطنية مهما أقاموا من البراهين والأدلة على خلوهم من ذلك، حيث إن الاحتكاك العملي يعمق الشعور لدى الكثيرين بالتشرذم والتمزق وضعف الشعور بالوطن الإسلامي الكبير!! ويغذي ذلك باستمرار التصنيفات العامة للشعوب، فهذا الشعب منافق، وذاك يعشق الذل، وهذا مخادع، وذاك كسول، وهكذا... وهذا من أظلم الظلم الذي يعمق التجزئة، ويؤصلها. وسيظل الانحياز الجائر لبلد أو قبيلة أو حزب أو تخصص أمارة ظاهرة على التخلف عن المنهج والواقع، وأمارة على المحلية والمحدودية؛ والله المستعان.

* * *

٢ ــ المبالغة:

لا تبتعد الأسباب الرئيسة المسببة للأمراض النفسية والاجتماعية والحضارية عن بعضها كثيراً، لأن الأسباب الرئيسة عادة لا تكون كثيرة، لكنها تتسبب في الكثير الكثير من الأمراض، وأعراضها، وتنعقد بين تلك الأمراض علاقات جدلية، فيغذي بعضها بعضاً، ويؤكد وجوده. فالمبالغة مثلاً في تصوير خصائص شخص من الناس تؤدي إلى رسم صورة خيالية له، تدفع إلى إضفاء القداسة عليه، كما تدفع

إلى التعصب له. والتعصب حتى يمنح نفسه الشرعية فإنه يعتمد المبالغة والدعاية أسلوباً من الأساليب. والقهر السياسي يؤدي إلى إيجاد فئة من الناس ترتزق من وراء صناعة المديح، وتحاول إظهار المحاسن، وطمس المثالب، وهي حتى تؤكد مشروعية عملها تنزع إلى المبالغة، بل الكذب! ويعتمد المتسلطون على الثمار التي يجنونها من الدعاية في الاستمرار في تسلطهم وقهرهم، والتفنن فيه، لينتج ذلك من جهته طفيليات جديدة، تحاول الإبداع في النفاق والمبالغة في كيل المناقب من غير حساب، وهكذا. . .

وبإمكاننا بعد الإلمام بهذا الاعتبار أن نقول إن الدوافع للمبالغة كثيرة، منها: التعصب لمن يبالغ في مدحه، أو على من يبالغ في ذمه والتحامل عليه. ومنها: الولع بحب الغرائب، حيث إن الناس يستمتعون بسماع الغرائب، التي يقل نظيرها، أو ينعدم، وهم يكافئون رواتها والمشيعين لها بشيء من نظرات التقدير، حيث إن لهم ما يؤهلهم للاطلاع على الخفايا والإلمام بالنوادر. وأصحاب الغرائب يستمتعون بذلك، حيث يشكل ذلك عاملاً من عوامل جذب اهتمام الآخرين بهم، فتصير المبالغة إذن مصدراً للإشباع عند كثير من الناس. ومنها عدم إدراك طبائع الأشياء، فلكل ظاهرة من الظواهر طبيعة ذات حدود دنيا وعليا، ومن لم يدرك تلك الحدود أمكنه أن يصدق كل ما يسمع، ليشجع بذلك على انتشار الغرائب. وغموض تلك الحدود هو الذي جعل كثيراً من المفسرين ومِنْ ورائهم جيوشاً من الناس يعنون بالإسرائيليات رواية ونقلاً. والحكايات الإسرائيلية جزء من الثقافة التراثية والدينية عند اليهود، وهي خليط من بعض التوراة، وبعض شروحها، وبعض الأساطير التي كان يتناقلها القوم. . وأكثر ما ورد إلينا من الإسرائيليات كان في نطاق التفسير، وفي نطاق قصص الأنبياء، وأقوامهم، وما يتعلق ببدء الخليقة وشؤون الكون. وقد كان العرب أمة أمية لا عهد لهم بالكتابة، ولا الكتاب، ولذا كان استرواحهم لما عند أهل الكتاب أمراً طبيعياً. يضاف إلى هذا أن أسلوب القرآن الكريم في تناول أخبارالماضين كان يعتمد الإيجاز، لا يُعنى بالتفاصيل، وإنما يركِّز على موضع العبرة، فوجد الناس في عهد التابعين ـ بصورة خاصة ـ في الإسرائيليات ما يسد الثغرات، ويوضح المجملات، وقد قال النبي ﷺ:

«لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا...». وذلك لما رأى أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرية، ويفسرونها للمسلمين بالعربية[1].

وهذا يدل على وجوب تحكيم معاييرنا وأصولنا في أخبارهم، فما وافق ما عندنا قبلناه، وما خالف طرحناه، وما كان مسكوتاً عنه عندنا فإننا لا نصدقه، ولا نكذبه. وهذا في ابتداء الأمر، فإذا كان ما ورد عنهم مما لا يقبله العقل، ومما ترده طبائع الأشياء، وتكون سيما المبالغات والخرافات ظاهرة عليه فإن من الواجب ألا ندخله في كتبنا، ولا نشيعه بين الناس، وإذا شاع حاولنا دحضه حفاظاً على ذهنية المسلم من التلوث، لكن كثيراً من المفسرين الذين وقعت كتبهم من الناس موقعاً حسناً أدخلوا في كتبهم كثيراً من الإسرائيليات دون تقيد بأي قيد، ودون أي تنبيه على كثير مما فيها من الدخل والزغل.

وتلك الأخبار كانت تطفح بالخيالات والخرافات، مما شوش عقول كثير من المسلمين، وشوش على المنهج الصافي الذي اتبعه القرآن الكريم في التركيز على العظة والعبرة والإعراض عما سواها في قصص السابقين. والخطير في إشاعة الخرافات إلى جانب احتمال تصديق بعض الناس لها ـ أنها ترسم دوائر متسعة من الأخيلة والأوهام، وتترك طابعها المباشر على من صدق بها، وعلى من سكت عنها، ولا يكاد يسلم من ذلك إلّا من فنّدها تفنيداً كاملاً. وإنما أفضنا في هذا السبب لما كان له من الآثار السيئة في الذهنية الإسلامية في أحيان كثيرة.

ـ ومنها النزوع إلى الصناعة اللفظية. والعرب في الأصل أمة بيان تسحرها الكلمة الرائعة، وتسبيها الجمل المنمقة، وقد خنس شيطان الشعر فترة من الزمن في عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين لغلبة القيم الربانية على المجتمع وسيادة التوتر الروحي الذي يبدد فعاليات كثير من الجراثيم والأوبئة. وكان يظن أن المديح الرنان والهجاء المقذع قد انتهيا إلى غير رجعة، بما أنعم الله على الناس

---

(١) انظر: فتح الباري ٨/ ١٧٠.

من نعمة الهداية، ثم تبين أن (الفيروس) كان في حالة كمون، وأن شيطان الشعر كان في منتجع للاستجمام استعداداً لجولات جديدة!.

وقد (تقولبت) المحسنات اللفظية في علم البديع، لتصير منابع متدفقة لكل أولئك الذين يبحثون عن الألفاظ الجميلة مهما كانت العناية بها على حساب الصدق، ومهما كان نصيبها من تصديق السامع!!. وقد صارت مقولة: (أحلى الشعر أكذبه) تجد نماذج تطبيقية كثيرة في حياة الناس!.

ـ ومن أسباب المبالغة عدم إمكانات التحقق دائماً من صحة ما يقوله المسرفون، وذلك لعسر المسالك، وصعوبة وسائل الاتصال، وقد كان هذا في الماضي أكبر أثراً منه اليوم، فقد كان بإمكان الكذاب أن يقول: هنا محور الأرض، ومن لم يصدق فليقس! ومن الذي سيقيس؟!.

ـ ومن أسباب ذلك ضعف النقد الداخلي للخبر الذي اعتمده الفقهاء والمحدِّثون. والنقد الداخلي لا يستوي على سوقه عند أمة من الأمم إلاَّ عندما تنضج جوانب معرفية، وحضارية معينة، فهو ثمرة من ثمار نضج الأمة.

المبالغة تقوم في حالات الانحباس الحضاري بوظيفة اجتماعية، فهي تمثل من خلال تعظيم بعض بوارق الأمل، ومن خلال تقزيم بعض المشكلات الكبرى نافذة لاستعادة بعض الثقة بالنفس، وبعض التفاؤل بالمستقبل، لكن ذلك ـ مع الأسف ـ لا يكون إلاَّ مؤقتاً. كما أنها تصبح حلية لمجالس العاطلين عن العمل!.

ـ وفي حالات التحامل ضد بعض الأشخاص قد يكون الدافع إلى المبالغة شعوراً بنوع من أنواع النقص، مما يجعل بخس الناس أشياءهم وسيلة للتخلص من ضغط ذلك النقص. والرضوخ لأثقال خصلة ذميمة قد يكون دافعاً إلى (الإسقاط)، فيصير المتحامل إلى تأويل مناقب الآخرين تأويلاً يحيلها إلى مثالب، وكل ذلك لردم الهوة القيمية، بينه وبين الآخرين.

وقد أسهم كتاب التراجم والموسوعات التاريخية إسهامات ضافية في نشر المبالغات عن طريق الغرائب التي ساقوها، وربما كانت هي الجديد الوحيد في بعض الكتب، أي: هي مبرر الوجود.

ومن العسير على أصحاب الموسوعات وزن ما يكتبونه أو غربلته، لأن ذلك سوف يكون جنوحاً إلى الكيف الذي لا يرقى إلاَّ على حساب الكم الذي اختاروه.

وأخيراً فإن الدعايات المنظمة التي تستهدف عقول الأمة من الداخل والخارج تؤدي من خلال تتابعها وتنوعها إلى سيادة تركيب عقلي وثقافي تستروح الأمة من خلاله العيش في ظلال الأحلام والأوهام والأخيلة، وتصبح المبالغة غذاء ضرورياً لاستمرار الهجوع السعيد!!. وإليك الآن صورتين من صور مبالغات الأقدمين:

(أ) المبالغة في الإطراء:

ذكر ابن الجوزي أن رجلاً من خراسان قال: عندنا بخرسان يرون أن أحمد بن حنبل لا يشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة! وقال أبو زرعة: كان يُقال عندنا بخرسان، إن الجن نَعَتْ أحمد بن حنبل قبل موته بأربعين صباحاً[1]. وهل تعلم الجن الغيب، حتى يصح سياق مثل هذه الأخبار، وهل نزعت صفة البشرية عن الأنبياء حتى تنزع عن أتباعهم؟!.

ويرى بعض المداح أن الإمام أبا حنيفة كان يختم في ركعة واحدة، لعلها الوتر. وهذا من الكذب الصراح ويكذبون على ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ حين ينقلون عنه أنه قال: حدثني أمير المؤمنين علي في تفسير الباء من اسم الله من أول الليل إلى آخره[2]!!.

ومن روايات جهلة العباد أن عمر تزوج بامرأة أبي بكر ــ رضي الله عنه ــ ليسألها عن عمله في السرِّ، فقالت: كنت أشم منه رائحة الكبد المشوية!! وهذا من الكذب البين فإن الذي تزوج أسماء بنت عميس من بعد أبي بكر علي لا عمر[3]. ثم متى كان الوجد في الأكباد، ومتى كانت تشوى الأكباد إلاَّ على نيران الشعراء الذين في كل وادٍ يهيمون!!.

---

(١) مناقب الإمام أحمد: ص ٥١٣. وقد قدمنا بعض صور المبالغة عند الحديث عن التعصب لاستدعائه لها.

(٢) المنتقى: ص ٥٠٥.

(٣) السابق...

ومن المبالغات في المدائح النعوت التي صارت تكال بغير حساب لكثير من الأعلام، من ذلك ما ذكره أحد طلاب الشعراني في مقدمة (لواقح الأنوار) حيث قال: قال سيدنا ومولانا وقدوتنا إلى الله إمام المحققين وقدوة العارفين ومربي الفقراء والمريدين بأقوى قواعد التمكين، فاتح أقفال غوامض معنويات إشارات المحققين، ومعبر رموز مشكلات العارفين، واسطة عقد السالكين وريحانة وجود الواصلين»[1]!!..

وصار في عهود ذبول الحضارة الإسلامية العتيدة يطلق في ترجمة خمسين من المتعاصرين عبارة «فريد دهره، ووحيد عصره» دون أي اكتراث بتبعة دلالات هذه الألقاب! وصار من الشائع أسماء من نحو: (جمال الدين)، و (شهاب الدين)، و(محيي الدين) إلخ...

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل استمرأ عدد من المتعبدين إطلاق الدعاوى العريضة التي تحوم حول تمجيد الذات مما يمجه الطبع السليم، ويتحاماه الحسُّ الإسلامي الصريح، فمن ذلك ما ذكره الشعراني من أن واحداً من أولئك قال: والله العظيم لا أعلم في مصر كلها الآن أعلم مني، ولو أنني أعلم من هو أعلم مني لمشيت إليه، واستفدت منه! ويقول الشعراني أيضاً: ورأيت شخصاً آخر يدَّعي القطبية، ويقول: أطلعني الله على دائرة الأولياء كلهم، فلم أرَ فلاناً، وأشار إلى شخص من صالحي عصره. فقال له شخص في المجلس: إن كنت صادقاً فقل لي كم شعرة في لحيتك؟!. فما درى ما يقول، وخجل بين الناس[2].

وتأخذ المبالغة أحياناً صوراً أخرى تصطدم مع الأصول الاجتهادية والمنطقية والعرفية على النحو الذي ذكره السبكي حين قال: الحمد لله الذي جعلنا من مقلدي إمام إذا تاقت نفوسنا للنظر في مسألة لم تقع إلَّا على قوله! وذكر كذلك أن الذين بلغوا درجة الاجتهاد من علماء الشافعية مع عدم المخالفة ليسوا بمقلدة، إنما

---

(١) انظر: الصوفية معتقداً ومسلكاً: ص ٣١٩ ولواقح الأنوار: ص ٣.

(٢) التصوف الإسلامي: ص ١/ ٣٧٠.

وافق اجتهادهم اجتهاده، ولا يخرجهم ذلك عن الانتساب إلى الشافعي[1]. فهل هناك أعرق من هذا التحرير؟!.

(ب) **المبالغة في التشنيع:**

المبالغة في المديح والمبالغة في القدح وجهان لعملة واحدة، وهما في وجودهما وانعدامهما متلازمان، وكثيراً ما يكون أحدهما رد فعل على وجود الآخر، والمجتمع الذي يقبل الإسراف في المدح لا يتأبى على سماع الإسراف في الذم.

وإليك صوراً من الوجه الثاني للمبالغة:

هناك نصوص ونقول عن بعض القدماء تتهم مجتمعات بأسرها، أو مراحل كاملة من مثل ما ذكره صاحب (الأغاني) أن الخليفة الأموي الوليد بن يزيد كشف عن (هنه)، وأمر أشعب بالسجود له! وأضاف إلى ذلك حصول فاحشة اللواط في مجلس الوليد، إلى جانب ما ذكره من شغفه بإحدى جواريه وانشغاله بها، ثم انزعاجه ممن نبهه إلى حضور الصلاة، فردَّ على ذلك بأن أَمَر الجارية بأن تتلثم، وتخرج لتصلي بالناس إماماً بدلاً عنه[2]. ولم يكتف الأصفهاني بهذا كله حتى أضاف إليه أن الوليد افترع ابنته[3]!!.

ويمزج الشناعة باتهام الثقات المجاهدين بالسكوت عن المنكر حين يزعم أن الحسين دخل على يزيد وهو يشرب، فقال له الحسين: لا عين عليك مني! واستأذن عبد الله بن عباس فحجبه[4]!. ولا يكتفي بذلك من الطعن بالحسين ـ رضي الله عنه ـ، وإنما يتجاوز ذلك إلى اتهام ابنته سكينة بالخروج عن الآداب الشرعية والحمية العربية حين يزعم أنها ضربت موعداً لبعض النسوة مع الشاعرعمر بن أبي ربيعة، وأنه حدثهنّ إلى الفجر، ثم ذهب إلى مكة، ولم يسلم

---

(١) العلم الشامخ: ص ٢٧٦.

(٢) الأغاني: ص ٧/٤٦.

(٣) السابق: ص ٧/٦.

(٤) السابق: ص ١٥/٢٩١، والسيف اليماني: ص ٩٨.

على رسول الله ﷺ، ولم يزر مسجده، حتى لا يخلط زيارتهن بزيارة أخرى[١]!!.

وما ذكره أبو الفرج يرده، ويأباه كل المعلومات المتوفرة عن مقدار الخيرية الموجودة في ذلك العصر، وما نعرفه عن الشهامة العربية لا سيما عند أهل الأحساب، وفي المجالس المحترمة، وبعضه مما لا يحدث الآن في مجالسنا، فكيف يحدث في مجالسهم؟!.

ولا يقتصر نقل الشناعات واتهام المجتمعات الإسلامية على أمثال الأصفهاني، بل يتعداه إلى أقوام عرفوا بالزهادة والتنسك والعلم، فهذا الشعراني يذكر أن الرذيلة كانت شائعة في المجتمع المصري في زمانه حين قال: «حتى وقع أن جماعة من الأكابر ــ أكابر العباد ــ اجتمعوا في مجلس، فقال شخص منهم: من سلم منكم من الزنا فليحلف لنا بالله ــ تعالى ــ أنه ما زنى. فما تجرأ أحد منهم على الحلف، واعترفوا جميعاً بأنهم وقعوا في ذلك في شبابهم[٢]. ويذكر أيضاً أن زمانه قلَّ فيه الحلال حتى إنه لا يكاد يوجد منه شيء في يد شيخ من شيوخ الفقراء ــ أي الصوفية ــ فضلاً عن آحاد الناس[٣]!. وهذا أيضاً بعيد في زماننا فكيف في زمانهم؟!.

المبالغة إلى أين؟

سيظل هناك صنف من الناس يحب السير بالأمور إلى حدودها القصوى؛ لأن ما ذكرناه من دواعي ذلك وأسبابه موجود؛ وقد يكون القضاء على بعضه شبه متعذر! والمبالغون يملكون قدرة مدهشة على التكيف والتلون؛ فكلما لاحقهم وعي الناس، وإحاطتهم بحدود الممكن والمستحيل حاولوا النفاذ إلى أشكال من المبالغة (المعقدة) التي لا يكتشفها إلَّا خواص الناس! ويقف وراء المبالغات اليوم هيئات ومؤسسات كبرى تجيد فن التهويل، والتفخيم، كما تجيد فن (الاختزال)، ويظهر

---

(١) الأغاني: ص ١/١٠٥.

(٢) التصوف الإسلامي: ص ١/٣٧١.

(٣) السابق: ص ١/٣٧٢.

كل ذلك في صور ومجلات وإحصاءات ومواد دعائية! وحين تصبح (المبالغات) مصدراً للرزق والابتزاز فإن آلياتها تصبح أكثر تطوراً وأعظم أثراً؛ فالدعايات التي تنشرها وسائل الإعلام المختلفة قائمة على وصف ما يروجون له بالتفرد والغرابة والامتياز في نفعه وشكله وسعره! وهم لا يحملون الناس على استهلاك ما لا يحتاجون إليه، بل يشكلون عقولهم تشكيلاً جديداً يقوم على النزوع نحو التضخيم لكل ما يحيط بهم من غير أن يشعروا بذلك.

وتفسير الظواهر المختلفة تفسيراً يقوم على التضخيم صار جزءاً مهمّاً من لغة العصر وخططه وإذا أردت نماذج لذلك فاقرأ العناوين الكبرى لصحيفة سيارة، أو طالع صفحة واحدة لكتاب من كتب بعض المستشرقين حتى ترى إطلاقات هائلة تبحث لها عن مثال واحد، فلا تجد! وإن شئت فاستمع إلى إذاعة دولة متخلفة؛ لتقف على العجب العجاب من تمجيد الذات، وتحويل النكبات إلى بطولات تاريخية فريدة، ولتقف على أحط أنواع التعامل مع الخصوم، وتحويل كل ما لديهم من حسنات إلى سيئات مهلكة!!.

إن المبالغة اليوم أشد فتكاً، وأكثر تنظيماً، ولم لا ما دامت تدر عسلاً ولبناً. والحوافز موجودة، والرادع معدوم! والتحصن من الوقوع في أسرها كثيراً ما يكون عسيراً حيث تسلك مسالك الإيحاء والإشعاع، وحيث ترتكز على قواعد متسعة من المعلومات التي يجهلها كثير من الناس!!

* * *

٣ ـ عقلية البعد الواحد:

نعني بالعقلية: «مجموعة الصور الفكرية والعادات النفسية والاعتقادات الرئيسة في الفرد»[(١)].

ونعني بالبعد الواحد: «التأكيد على عنصر واحد من ظاهرة ذات عناصر متعددة إدراكاً وتعاملاً وإبرازاً».

---

(١) الفكر الاجتماعي الحديث: ص ٣٩.

والخالق ـ جل وعلا ـ أبدع الإنسان في أحسن تقويم، وأوجد فيه استعداداً كبيراً للسير في الخير والشر إلى أقصى مدى؛ والمجتمع بكل ما يسوده من أفكار وعقائد وعادات هو الذي ينمي أحد الخيارات المتاحة على حساب غيره[1]. وإذا أردنا أن نجمل أسباب تكون بصيرة مصابة بعمى الألوان أمكننا أن نذكر ما يلي:

(أ) فقر البيئة:

إن البيئة الطبيعية حين تكون فقيرة هشة فإنها تعكس فقرها على خيال أبنائها؛ إذ إن العقل لا يتمكن حينئذ من تركيب توافيق كثيرة، ومن ثم فإننا لا نعجب حين نجد شاعراً يشبه الهلال بالظفر، كما لا نعجب من علي بن الجهم ـ كما يقال ـ حين شبه الخليفة بالكلب في الوفاء، وبالتيس في العناد والصمود أمام الخطوب؛ على حين أن من يعيش في بيئة غنية متنوعة، فيها الجبال والسهول والأنهار والأشجار، وما يتبع ذلك من أنواع الحيوان والنبات، وما يقود إليه من ضروب الصنائع المختلفة ـ فإنه لا بد واجد أشياء كثيرة يشبه بها الهلال سوى الظفر! ثم إن كثيراً من ظلال المعاني سوف ينبثق من خلال تلك (الموجودات)، وهذا سينقل الفكر من دوائر المحسوسات؛ ليجول في أرجاء المجردات، وليتمكن في النهاية من عقد المقارنات، وإدراك المفارقات بين كل ما يراه.

وهناك لون آخر من فقر البيئة هو أهم وأبعد أثراً، ذاك هو الفقر الثقافي؛ فالبيئة التي يسودها الجهل ـ والجهل فنون ـ لا تتمكن من إدراك أبعاد عديدة للأشياء؛ ولذلك فإن عقلية أبنائها تميل إلى التصلب في تعاملها مع الأشياء، ويكون شعارها العملي:

. . . . (لنا الصدر دون العالمين أو القبر)

والخيارات الأخرى تكون منعدمة، أو ضعيفة. وهذا كله طبيعي؛ فالذي لم يقرأ سوى كتاب واحد في الفقه لا يستطيع أن ينصح بكتاب للمبتدئين، وآخر

---

(١) وردت الإشارة إلى هذا في الحديث الشريف: «فأبواه يهودانه، أو ينصرانه...» و(كلمة (أبوان) تتسع هنا لتشمل المجتمع بأسره.

للمتوسطين، وثالث للمحققين. والذي لم يقرأ إلَّا على شيخ واحد لا يستطيع المفاضلة بين ملكات عدد من الشيوخ؛ ومن ثم فإن القدماء كانوا على حق حين أعطوا الرحلة في طلب العلم ما تستحقه من الاهتمام والتقدير، وحين نزعوا كثيراً من الثقة ممن لم تغبرَّ قدماه في السعي للقاء الشيوخ، وسماع المرويات. إن الرحلة تنفي أنواعاً عديدة من الفقر، ولعل رحلة الإمام الشافعي إلى مصر كانت أكثر الرحلات في تاريخنا ثراء وتوليداً للجديد!.

ومن هذا الباب كان سكان السواحل ــ بصورة عامة ــ ألطف مزاجاً، وأكثر مرونة، وأقدر على التكيف من سكان المناطق الداخلية؛ لأن من ترسو في بلده كل يوم سفينة تحمل معها التجار ذوي الثقافات المختلفة، والتجارب المتنوعة، والبضائع المختلفة ليس كمن عاش في سجن كبير؛ فهو وإن كان يلتقي بعدد كبير من الناس إلَّا أنهم من نمط واحد، أو متقارب؛ مما يجعلهم عاملاً في التنميط الأحادي بدل أن يكونوا عاملاً في التنوع والإثراء. إن سكان السواحل هم سكان مساحات التفاعل بين الحضارات، ومن ثم فإن قراءة توجهاتهم هي قراءة للمستقبل القريب!.

وثمة نوع آخر من أنواع الفقر هو الفقر في الأدوات والوسائل، وهذا النوع ليس إلَّا ثمرة للفقر في النوعين السابقين؛ حيث إن الإنسان الذي يرى أنماطاً مختلفة يكون أقدر على إبداع الوسائل التي تمكنه من الاندفاع في ميادين الحضارة المختلفة، وتلك الوسائل نفسها تدفع بالفكر إلى مزيد من الإبداع حيث إن التجربة مع المشاهدة لأنماط مختلفة سوف تؤدي إلى مفاضلات ومقارنات كثيرة. وفكرة التطوير التي تلتصق التصاقاً كاملاً بكل المصنوعات والأدوات قائمة أصلاً على الوعي بعدم امتلاك ناصية الحقيقة النهائية دفعة واحدة، وعلى مشاهدة أنواع، وأنماط كثيرة للوسيلة الواحدة وهذا لن يتأكد إلَّا من خلال الممارسة الواقعية النشطة والمنفتحة!.

(ب) انعدام الحوار:

يعني الحوار في أبسط صوره أن تُري محاورك ما لم يره، وأن يُريك

مـا لم تره. وهـو في هذا مضـاد للمناظـرات التي تؤدي في أحيان كثيـرة إلى تعميق البعد الواحد.

إن الحوار يقوم على إدراك المحاور أن ليـس كل ما يراه قطعياً نهائياً في كماله وإصابته مفاصل الصواب، ومقاطع الرشد، وأنه من خلال الحوار يستطيع أن يضيف شيئاً إلى ما عنده في صورة إثراء، أو في صورة تغيير وتبديل. لكن الحوار لن يكون ذا فـائدة تـذكر إذا دار بين قـوم (تهيكلت) ثقافتهم على التقليـد والنقل لأقـوال زيـد وعمرو دون حظ من النظر الخاص القادر على استلال نماذجـه الخاصـة من أكداس المعلومات المتوافقة والمتضادة.

والذين تعودوا الاعتماد على غيرهم؛ ليفكروا عنهم غير قادرين على الدخـول في حوار جاد، وإذا دخلوه فإنهم غير قادرين على الاستمرار فيه؛ لأن الحوار متصل بالاجتهاد، والقدرة على التوليد والتجدد؛ وأصحاب الكسل الذهني والتقليد المطلق غير قادرين على شيء من ذلك.

والمشكلة التي تسبق كل ذلك هي نظر كثير من المثقفين إلى الحوار على أنه نـوع من التنازل للمخـالف، قد يخـدش صلابـة المعتقدات، ووثـاقة الإنسـان بمـا يحمـل من أفكار. وبعضهم ينـظر للحوار على أنـه مضيعة للوقت، وهـو (كـلام في كلام)، ولا يعدو أن يكون فراراً من ميادين العمل! ولا ريب أن حوار العوام وأشبـاه العوام هو من هذا القبيل، ولا ريب أيضاً أن الأمة التي لا تستطيع الدخول في حوار مـع ذاتها، ومـع غيـرهـا هي أمـة تفتقـر إلى الثقـة بـالنفس، أو إلى الـوعي بـذاتهـا. وسـوف يترتب على العجـز عن الحوار المـزيد من التـوتـر الاجتمـاعي، والانقسـام الداخلي، والذي سيؤدي أيضاً إلى وجود جزر فكرية داخل المجتمـع الواحـد، مما سيؤدي من جهته إلى طفرات متنـوعة تحـول دون التواصـل بين الأجيال في دائـرتي الزمان والمكان!!.

وإذا كان الحوار صعباً أو مستحيلاً فهـذا يعني أن النقد سيكـون أصعب؛ لأن الذي يرفض الحوار سيكون رفضه للنقد أشد؛ لأن الحوار كثيراً ما يشتمـل على نقد مخفف. مبـطن باللبـاقة والكيـاسة؛ فـإذا رُفض الحـوار فهـذا يعني أن فـرص عقـد

جلسات للنقد البناء والتناصح المخلص ستكون ضئيلة جداً؛ وحينئذ فإنه لا مناص من الدخول تحت قوله عز اسمه:

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾(١).

(ج) التعامل مع الواقع على أنه كتلة صلدة:

الذين يفكرون في اتجاه واحد ينظرون إلى كل المشكلات الكبرى التي تحيط بهم أنها أحادية التركيب، عديمة المنافذ، مستحيلة التجزئة، فلا يمكن التعامل معها، فيلجأون إلى تجاهلها، أو رميها، والخلاص منها، لكن يكتشفون بعد مدة أن تبخير المشكلة كلها غير ممكن، وتقسيمها أيضاً غير ممكن، والنتيجة هي القعود والجأر بالشكوى مع بقاء المشكلة على ما هي عليه، بل تفاقمها؛ لأن حركة الزمن تأتي دائماً بتكاليف جديدة، وتركم المشكلات القائمة؛ فإذا لم يكافئها حل ولو جزئياً كان تفاقمها آلياً، لا محيد عنه. وسبب التعامل مع الواقع على هذه الصورة يرتكز على نقاط عديدة، منها: عدم النظر إلى بدايات المشكلة، وظروف النشأة والعوامل المؤثرة فيها؛ ولو فعلنا ذلك لأمكننا الوقوف على العناصر الأساسية التي كونت المشكلة موضع المعاناة؛ ومن ثم جاء الأمر من الله ـ تعالى ـ بالسير في الأرض:

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾(٢).

ومن تلك الأسباب قصر عمر الإنسان؛ فهو لا يدرك الكثير من أطوار المشكلة، بل قد لا يدرك إلاَّ بعض طور! والنقل التصويري للمشكلات قد لا يكون أميناً، أو دقيقاً بل قد يكون مضللاً. ونظراً لكون عمر الحضارات أطول بكثير من عمر الإنسان فإن ذلك يدفع الإنسان دفعاً إلى استعجال النتائج التي عمل من أجلها طول حياته!.

ومن ذلك الغفلة عن سنة التدرج التي تحكم كل الظواهر الاجتماعية، وهذه

---

(١) سورة المؤمنون.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.

السنة تحكم النشأة والانحلال معاً؛ ومن ثم فإن كثيراً من الناس الذين يؤمنون بالطفرة يظنون أن أعمالهم لم تثمر مع أن التحول والتغير الداخلي في الظاهر مستمر لكن على مقتضى الفطرة، لا على قانون الطفرة!.

ومن ذلك الغفلة عن سنة التدافع في هذا الكون، هذه السنة التي لا تسمح بتجمهر الخير وحده، كما لا تسمح بتجمع الشر الخالص. فمن خلال امتزاجهما ذي النسب المتحركة تتخلق توافيق جديدة تسمح باستمرار بإيجاد موطىء قدم لمن شاء أن يعمل.

ونتيجة لهيمنة عقلية البعد الواحد ــ البعيدة عن منهجنا وأصولنا ــ التي يحملها كثير منا سادت في الأوساط الإسلامية مقولة: (لن يدعوك تعمل)، و (لن يدعوك تربي)، و (لن يدعوك تمسي عملاقاً)! وهذه النافيات تأتي عقب إسقاط كل الاحتمالات الأخرى للتغيير؛ وهذا يعني أننا وصلنا إلى طريق مسدود، أو كدنا؛ وهذه المقولة أدت إلى تهيب كثير من الخيرين من الإقدام على أي عمل كبير، والزهادة في الأعمال الصغيرة مع أن الإنسان يملك قدرة هائلة على التكيف مع أقسى الظروف التي يمر بها.

وترتب على ذلك مقولة أخرى ــ على المستوى النظري ــ هي: «خذوا الإسلام جملة، أو دعوه». وهذه المقولة صحيحة على المستوى الإيماني، فنحن من هذه الجهة مكلفون بأخذ الإسلام كله بعد أن استقرت جميع الأحكام الأساسية. وصحيحة نسبياً على المستوى العلمي إذ إن أنظمة الإسلام يكمل بعضها بعضاً، ويفعِّل بعضها بعضاً، لكن من جهة أخرى فإن الحكمة التي اقتضت التدرج في التشريع على زمان النبي ﷺ ما زالت قائمة في أكثر مجتمعات العالم الإسلامي، والناموس الذي يحكم التطبيق هو قوله ــ سبحانه ــ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1]، ومبدأ: (تحقيق خير الخيرين ودفع شر الشرين).

وحين يمن الله على أمة بفكر قادر على رؤية كل أجزاء الصورة، وكل

---

(١) سورة التغابن: الآية ١٦.

عناصرها الفاعلة، وهو في الوقت نفسه قادر على إدراك العلاقات التي تربط بين تلك العناصر فإن أكثر المشكلات استعصاء تصبح ممكنة الحل، ولو جزئياً، ولو حلاً غير مرض. وذلك من خلال «تغيير علاقات السيطرة فيها، وتبديل وضعها بالكشف عن عناصر القوة فيها، واستثمار الإمكانات القائمة في تناقضاتها ذاتها... فمن خلال تبديل موقع العناصر في تركيبة معينة يمكن الوصول إلى علاقات ووحدات ووظائف جديدة تستجيب أكثر لحاجات العصر، أو النظام العام الذي تدخل فيه هذه الوحدات»(١).

فالعناصر الكيميائية والفيزيائية في هذا الوجود ثابتة، ولكن من خلال إدراك العلاقات بين تلك الثوابت أمكن إيجاد عشرات الألوف من الصناعات، منها ما يخدم الإنسان، ومنها ما يُجهز عليه!.

مشكلة كمشكلة الفقر التي يعاني منها مجتمعنا الإسلامي ينظر إليها كثيرون منا نظرة أحادية؛ الشعب الفلاني فقير؛ لأنه كسول، والفلاني لأن رقعة الأرض عنده ضيقة، والفلاني؛ لأن نظامه السياسي غير مستقر، وهكذا...

وفي البداية فإن من الغلط تفسير أية ظاهرة اجتماعية بعامل واحد؛ لأن ذلك يعني تمزيق أعمال الإنسان الاجتماعي ومظاهر نشاطه إلى وحدات منفصلة؛ فلكل ظاهرة عوامل عدة تسهم في وجودها، واستمرارها بنسب متفاوتة، ومن خلال إدراك تلك العوامل بصورة حسنة يمكن الضغط على أحدها ضغطاً شديداً من أجل تلافي الصعوبات التي توجدها العناصر الأخرى؛ فاليابان مثلاً تعاني من ضيق شديد في مساحة الأرض، ومن فقر شديد في المواد الأولية، ومصادر الطاقة، وهما أمران خطيران في موازين التنمية، ومع هذا فقد استطاعت من خلال الضغط المكثف على الصناعات الثقيلة والدقيقة التغلب على مشكلة النقص في المواد الأولية، كما استطاعت من خلال الزراعة المتطورة استثمار الرقع الصغيرة لتعطي بأقصى طاقة(٢). ولبنان ذو المساحة الصغيرة استطاع من خلال الاستغلال الحسن لأراضيه

---

(١) انظر اغتيال العقل: ص ٥٨.

(٢) رأيت مرة صورة لشجرة (طماطم) زرعت في اليابان تحمل عشرة آلاف قرص، أي: نحواً

تصدير الخضار والفاكهة إلى بلدان تفوق مساحتها مساحته عشرات المرات وقد ضغط اليهود على عنصر واحد، هو (الذهب)، وعن طريق امتلاكه ملكوا الإعلام، وملكوا الضغط على القرار السياسي في دولة عظمى، وملكوا التقنية العسكرية اللازمة للقيام بدور الشرطي في بحر من الأعداء، واستطاعوا تهميش العوامل الأخرى كالشتات وقلة العدد وكره الناس لهم...

ولماذا نذهب بعيداً ونحن ندرك أن العرب من خلال الاستجابة للتوتر الروحي الهائل الذي أحدثه الإسلام في نفوسهم استطاعوا التخلص من كل ضغوطات المناخ الحار المتمثلة في الفوضى، وقصر النفس في العمل، والميل إلى الدعة، والرضا بما يسد الرمق... فيمكن من خلال بذل جهد كبير في الضغط على عنصر من عناصر المشكلة توسعة رقعة تأثير ذلك العنصر، ليحيد، أو يحجم الآثار السلبية لباقي العناصر ذات العلاقة.

وذلك لا يكون ذا فائدة تذكر إلَّا إذا كان الهدف منه واضحاً وواقعياً. وعندئذ فإن شعار التغيير يصبح: إذا عملنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً!.

(د) الميل إلى التبسيط(١):

من أركان (عقلية البعد الواحد) الميل إلى تبسيط الأمور، مع أن النظر المتأمل ينتهي إلى أنه لا يوجد شيء بسيط، لكن الإنسان يندفع نحو التبسيط لعوامل كثيرة، منها:

إدراك جزء من الأسباب الفاعلة، وغياب بقية الأسباب عنه، وهذا شأن أكثر

مما يعطيه فدان كامل في دولة متخلفة!!. وواكب كل ذلك عدم إضاعة المال في التسليح ومظاهر الترف مما جعل طوكيو هي المركز المالي الأول في العالم منذ خمس سنوات بدلاً عن (نيويورك) وأرقام العجز في الميزان التجاري الأمريكي مع اليابان هائلة. ويجري تعويضها بقروض من المصارف اليابانية!!.

(١) البسط في أصل اللغة ضد القبض وقد شاعت الكلمة في عصرنا في الدلالة على السهل والأحادي غير المركب، وقد استخدمناها هنا على هذا النحو.

الناس؛ لأن إدراك الأسباب الموضوعية لحدث من الأحداث يحتاج إلى وعي ومتابعة واستقراء، ومن هنا فإن الناس يعبرون عما يرونه، وغالباً ما تكون رؤيتهم للأسباب القريبة الظاهرة؛ فالقشة هي التي قصمت ظهر البعير!.

ومنها: الفقر في المفردات اللغوية؛ فقد ثبت أن الشخص العادي لا يحفظ أكثر من بضعة ألوف (قد لاتزيد على أربعة آلاف) من الكلمات، فحين يريد أن يتحدث عن موضوع معقد فإن مفرداته اللغوية لا تسعفه إذا ما حاول التفصيل، ومن ثم فإنه لا مناص له من الإجمال! وإذا ثبت هذا فإن قدرة العامة على تجاوز تبسيط الأمور ستظل محدودة!.

وإذا عرف هذا وجب أن نقف موقف الحذر من استخدام الشعر في حقول تقرير الأحكام الدقيقة؛ حيث إن الشاعر مقيد في إطلاقاته بضرورة مراعاة الوزن والقافية واللغة الشعرية، ومن ثم فإن الإجمال والتبسيط والتجوز بالنسبة له أمور لا مفر منها! والخطأ في المعاني، أو التقصير في تصويرها لا يدركه إلَّا الخاصة، أما الأخطاء العروضية فإن أذن العامي تستطيع ملاحظتها في بعض الأحيان، ومن ثم فإن العناية بالتناغم الصوتي تكون أكبر من العناية بالمعاني. والشعراء الذين يتمكنون من أداء ما يستحقه اللفظ والمعنى بشكل متساوق نادرون . ومن هنا فإني أرى أن الشعر ينبغي ألا يتناول إلَّا المسلمات من الأفكار، كما ينبغي أن يبتعد عن التحديدات الصارمة، وله في طيوف الكلمات وإيحاءاتها متقيل ظليل يركن إليه متى شاء.

ومن الأسباب الباعثة على التبسيط الرغبة في السهولة في تصور الأشياء والأحداث، فالجمهور من الناس في حالات المعارضة يميلون إلى انتقاد المواقف، لا المبادىء مع أن انتقاد المبادىء هو الأصل حيث إن المفهومات العامة والمبادىء العليا هي التي تملي المواقف، ولكن إدراك الخطأ في الموقف أسهل من إدراك الخطأ في المبادىء والمناهج لا سيما إذا ظهرت النتائج السلبية السريعة لذلك الموقف؛ ومن هنا يجري غالباً تقويم المواقف، وإهمال تقويم المبادىء.

ونحن نعمد إلى الإيجاز وضغط تفصيلات كثيرة في كلمات قليلة طلباً لسهولة

الحفظ والتداول والانتقال؛ ولذا نجد أن (الأمثـال) تعيش فترات طـويلة جداً بسبب هذا الضغط ومن السهل أن يتعزز الإيمان بسلامة مضمونها بسبب قوة الإيحاء الناتج عن الضغط الشديد! لكن هذا سيكون في الحقيقة ضرباً من التبسيط في النهاية.

وأحياناً نعمـد إلى التبسيط لإشباع حـاجة نفسيـة أو اجتماعيـة؛ فالمـرء يبتهج ابتهاجاً منقطع النظير إذا ما شعر أنه توصل إلى صياغة قـانون يـنطبق على عدد كبيـر من الجـزئيات؛ والتقعيـد والتنظيـر من أكثر المغـريـات قـوة في جـذب النـاس إلى ممـارستهما؛ لكن ذلـك يكون عنـد كثير من النـاس على حساب الـدقة المـطلوبة. وهذا الإشباع كما يكون بصياغة قوانين جديدة يكون باختزال قوانين معقدة؛ فنـظَرية الضرورة في الفقه الإسلامي مؤطرة بضوابط كثيرة محددة، وقد اختـزلها النـاس إلى (الضرورات تبيح المحظورت)، ونظرية (أنشتاين) في الفيزياء الرياضية صعبة جداً؛ وقد اختزلها الناس في قـولهم: (كل شيء نسبي). إن لفظ (كـل) أسهل علينـا من لفظ (بعض)؛ لأن الأخير يوحي بوجود (بعض) آخر مختلف يجب أخذه بالحسبان؛ وهذا ما ينافي السهولة المرجوة!.

أما تلبيتنا للحاجات الاجتمـاعية عن طـريق التبسيط فتكون أكثـر ما تكـون في أوقات الأزمات حيث يتشوف الناس إلى كلمات فاصلة تدلهم على المخرج مما هم فيه، وحين تبلغ الأزمات ذروتها ـ كما في حـالات الحرب ـ يكـون تعقيد الصـورة أمراً مكروهاً، وقد يدعو بعضهم إلى اتهام من يفعل ذلك بالتواطؤ مع العدو، فالذي يـذكر بعض محـاسن العدو، وإمكـانـاتـه، يعـرض نفسـه فعـلاً إلى أن يصنف مـع (الطابور الخامس)! لكن إذا وضعت الحرب أوزارها، وظهرت الأمـور على حقيقتها فـإن موجـة ضخمة من الإحبـاط تحـل بـالنـاس الـذي يميلون إلى التبسيط كمـا أن المكروهين من المنصفين يصبحون حكماء، لكن بعد فوات الأوان!!.

إن تبسيط الأمور عدو لدود للملاحظة والتجريب والتخصص، لأن هذه الأمور الثلاثة لا تأتينا عادة إلاّ بالتفريع والتفصيل، وهو ما لا يطيقـه الإنسان البدائي الـذي يتسم ـ في جملة ما يتسم به ـ بقلة الصبر على الملاحـظة، والمسارعـة إلى إطلاق أحكام عامة بسيطة دون أدنى حيطة أو حذر.

ونشاهد اليوم هذه الظاهرة عنـد بعض الشباب المسلم ـ وإن كـانت الموجـة

بـدأت تنكسر ــ حيث يسـارعون إلى الفتـوى في أمور فيهـا كلام كثيـر، ويصدرون الأحكام في قضايا لو سئل عنها عمر ــ رضي الله عنه ــ لجمع لها أهـل بدر، على حد قول أحدهم. إن إدراك التفاصيل لا يقدر عليه الذين يفكرون في اتجاه واحـد، أو لا يملكون لكل قضية إلَّا بعداً واحداً.

وبعـد هذا كله فممـا لا ينبغي أن يعزب عن البـال أن التبسيط يشكـل منـاخـاً صالحاً للعمل وحافزاً قوياً عليه لدى عدد كبير من الناس الذين يعدُّون أنفسهم جنود تنفيذ، والتفاصيل الكثيرة قد تحد من انـدفاعهم نحـو العمل وإنجـازه، وحينئذ فـإن العامة سيكونون خيراً من النخبة الذين يقعد بهم تعقيد الأمور عن العمـل بحماسـة! ومن هنـا كان لا بـد من البحث عن آليات جـديدة لتـوليد الحمـاسة لـلإنجـاز عنـد أولئك.

وأخيـراً فإن التعـامل مـع الأشياء على أنهـا كتلة صلدة، والميـل إلى التبسيط يؤديان إلى نتيجة واحدة هي (عطالة الفكر)، لأن التفكير في الحالـة الأولى لا فائـدة منه، وفي الحالة الثانية لا حاجة إليه!!.

(هـ) الرؤية النصفية:

إن أخـطر ما يشكـل عقليـة البعـد الـواحـد أن يـرى المـرء نصف الحقيقـة، ويحجب عنه النصف الآخر، وذلك لأن أكثر الأشيـاء والأحداث والأشخـاص يمتزج فيها الخير والشر، أو تكمن فيها القابلية لهما، وحين يبصر المرء ما يراه بشكل كامل فـإنه تتشكـل لديـه (العقلية التـرجيحية)، فتـرى (ولـو بشكـل تقـريبـي) الحسنـات والسيئات والإيجابيـات والسلبيات، وحينئـذ فإن أحكـامه تكـون موضـوعية متـوسطة بعيدة عن التفاؤل المفـرط، لأنه يـرى الجانب السلبـي، وبعيـدة عن التشاؤم، لأنـه يلمح الجوانب المشرقة.

وإذا كان التعذيب الجسدي للمخالفين في الرأي والمصلحة يُعـد جريمـة في كـل الشرائـع والأعراف فـإن تضليل النـاس، وتشكيـل عقـولهم على نحـو خـرافي مضطرب يُعد ــ في نظري ــ جريمـة أكبر، إن التعـذيب الجسدي مهمـا اتسع فلن ينال الملايين، على حين أنه من الممكن أن تضلل شعوب بأكملها على مدى قرون

ـ مع اختلاف الأساليب والوسائل ـ، وقد ينتج عن ذلك الكثير الكثير من الجرائم العظمى، وقد يسبب ذلك معاناة يومية وتعذيباً نفسياً لأعداد هائلة من البشر!!.

وإذا ما تركنا التفصيل في شأن الخاصة ـ وأكثرهم لا يختلف في هذا عن العامة ـ وجدنا أن الشعوب الإسلامية تعرضت لحملات رهيبة من الداخل أولاً وثانياً ومن الخارج ثالثاً استهدفت حجب الحقائق الكاملة، كيما تظل الرؤية في حالة من التشوش والاضطراب!!.

فإذا ما قُدِّر للحقائق أن تنكشف ـ لكن طبعاً بعد فوات الأوان ـ صارت الأمة إلى حالة أخرى من الاضطراب تتمثل في التلاوم واليأس والانكسار، إنها أطوار تضحك، وتبكي، دون أن يكون بين الضحك والبكاء فاصل! بكاء على أيام الضحك، وضحك على أيام البكاء، وقد تذهب أجيال وتأتي أجيال وما زال بعض الحقائق في زوايا الغموض، إنه نفق مظلم في تيه تباعدت أطرافه، وشاب السارون فيه، والنهاية ما زالت مجهولة!!.

وإذا تساءلنا بعد هذه المقدمة (البكائية) عن الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى استفحال هذه الظاهرة أمكننا أن نسلط الضوء على ما يلي:

الاستبداد والقهر السياسي:

إن تراجع القيم في نفوس الناس بعد مرحلة الخلفاء الراشدين كان يصاحبه اتساع للحيز الذي تحتله المصلحة الشخصية على صعيد الدولة والأمة والجماعات والأفراد، وبما أن كل شيء يظهر في حياة الدولة مكبراً، فإن ظهور آثار تراجع القيم يكون صارخاً جداً حيث تملك الدولة (ذهب المعز وسيفه)، وهي من خلالهما تستطيع تشكيل دوائر متسعة من الخائفين بالجهر بالحق، ومن المدارين، ومن المرتزقة الذين تنمو لحومهم على حساب دينهم وكرامتهم. وتؤدي هذه الأنماط الثلاثة دوراً متكاملاً بطريقة لا شعورية في إخفاء النصف الذي لا ينبغي أن يظهر من الحقيقة! أما المستعدون لكسر الطوق في حالات تراجع القيم فهم قلة، ولهم من التدابير ما يلحقهم بأحد الأصناف الثلاثة، فإذا بقي بعد ذلك من يتأبى على المداجاة فإنه يكون شاذاً (ولا تعدم الحسناء ذاماً)! وهو أيضاً مفيد لأنه يدل على أن

هناك من يقول الحق، وأن البلاد في دائرة الضوء لا يخفى فيها شيء!!. وفي هذا الإطار فإن بعض الدول الإسلامية تدفع مساعدات لصحف المعارضة فيها، لتقول ما لا تستطيع الحكومة قوله، أو ما لا يصدِّقه الناس إذا قالته!!.

ومساعي الحكومات والدول في تزوير الحقائق، أو حجب بعضها تفوق العد والحصر عند المسلمين، وعند غيرهم في القديم والحديث، ويتخذ ذلك أشكالاً وألواناً، ولعل أقرب تلك الأشكال متناولاً هو الإشادة برموز الدولة وإنجازاتها والحط من رجالات المخالفين وما يتمتعون به من محاسن، وما أنجزوه من أعمال، ومما يروى في هذا السياق أن هشام بن عبد الملك أرسل إلى الأعمش المحدِّث يقول له: اكتب لي مناقب عثمان ومساوىء علي! فأرسل له الشيخ: أما بعد يا أمير المؤمنين: فلو كانت لعثمان ــ رضي الله عنه ــ مناقب أهل الأرض ما نفعك ذلك شيئاً، ولو كانت لعلي مساوىء أهل الأرض ما ضرتك فعليك بخويصة نفسك، والسلام. وهذا لا يحتاج إلى تعليق!!.

ومما ذكره الجاحظ في هذا السياق أن غيلان بن خرشة الضبي مرَّ مع عبد الله بن عامر على نهر عبد الله الذي يشق البصرة، فقال عبد الله: ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر! فقال غيلان: أجل أيها الأمير يُعلِّم القوم فيه صبيانهم السباحة، ويكون لشفاههم ومسيل مياههم، وتأتيهم فيه ميرتهم!. قالوا: ثم مرَّ غيلان يساير زياداً على ذلك النهر ــ وكان قد عادى ابن عامر ــ فقال زياد: ما أضر هذا النهر بأهل هذا المصر! فقال غيلان: أجل والله أيها الأمير، تنز منه دورهم، ويغرق فيه صبيانهم، ومن أجله يكثر بعوضهم[1]!.

لقد قال غيلان لكل واحد من الأميرين نصف الحقيقة ابتغاء الزلفى.

ــ ومن المؤثرات في الرؤية النصفية ما تركه فنّا المديح والهجاء في ماضينا وحاضرنا من آثار سيئة في تركيبنا العقلي، إن كل واحد منهما يمثل قمة التحيز، كما يمثل قمة التصوير الأعرج لما يتناوله في موضوعه! وقد ذكروا أن أحد الشعراء

---

(١) البيان والتبين ١/ ٣٧٠، ٣٧١.

مدح رجلاً، فأجاد في مدحه، ولما غضب عليه هجاه، فأقذع في الهجاء! فلما قيل له في ذلك التناقض قال: رضيت، فقلت أحسن ما علمت وغضبت، فقلت أسوأ ما أعلم!.

ـ وكان لكتاب التراجم أثر سلبي في هذا حيث عدل أكثرهم عن منهج المحدِّثين القائم على عرض المناقب والمثالب وصارت مهمة أكثرهم كيل الثناء والمديح من غير حساب. كما أن تجريد كثير من كتب الفقه من الأدلة على نحو ما صنع المتأخرون جعل القارىء يطلِّع على أحكام جازمة قاطعة دون معرفة مصادرها، ولا معرفة أدلة الأقوال المخالفة، وهذا يُوجد الغلو والانغلاق والرَؤية الناقصة، كما يوجد آلية التصلب، وإيراد الظنيات مورد القطعيات.

وكل هذا محدود التأثير إذا ما قورن بحملات الدعاية الواسعة المنظمة التي تستهدف حمل الناس على اعتقادات خاطئة والانصراف عن كثير من المشكلات الحقيقية، والتلهي بالقشور والتوافه. والدعاية عبارة عن محاولة للتأثير في عقول الجماهير ونفوسهم والسيطرة على سلوكهم. وبما أن التفكير نوع من تردد العقل في ظاهرة ما، فإن مهمة الدعاية هي تقصير أمد ذلك التردد، وتضييق دوائر إعمال العقل(١). والدعاية تتكامل مع الاستبداد في أكثر الأحيان حيث يغلق المستبد كل مصادر المعلومات من الخارج ويخنقها في الداخل، ليفسح المجال أمام ما يريد بثه من أفكار عن طريق الدعاية.

وقد عنيت الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر عناية فائقة بالدعاية، حيث كان الدعاة يؤلفون جهازاً كبيراً من أجهزة الدولة، وكانت وظيفة داعي الدعاة تلي وظيفة قاضي القضاة. ونظراً لإدراكهم ما لاجتماع الناس وحشدهم في تقبل الأفكار فإنهم أنشؤوا عدداً ضخماً من الأعياد والمهرجانات من أجل استغلالها للدعاية(٢).

ونظراً لأن الدعاية في جوهرها هي نوع من الاستبداد، فإنه ليس من المصادفة

---

(١) الإعلام له تاريخه ومذاهبه: ص ٣٣.
(٢) السابق: ص ٥٣.

أن ترتبط نظريتها الأولى بمؤسس المذهب الاستبدادي في العصر الحديث (لينين)، كما أنه ليس من المصادفة أيضاً أن تجد بعد ذلك شكلها الحاسم، يبدو بوضوح في كتاب كفاحي لهتلر[1].

وتظهر نتائج كل تلك المؤثرات التي تتعرض لها الشعوب الإسلامية في ردود أفعالها تجاه أحداث عصرها، فكلما وقع حدث جلل انقسمت الأمة إلى قسمين متناحرين، وما ذلك إلَّا لضعف قاعدة المعلومات التي يحرمون من الحصول عليها، وإلَّا لتشوه الحقائق في أذهانهم!.

وصار شأن كثيرين منا كشأن مجموعة من العميان وضع كل واحد منهم يده على جزء من فيل، ثم قيل لهم: صفوا لنا الفيل، فظن كل واحد منهم أن ما مسه هوالفيل، فصوروه صوراً متضاربة بعدد ما للفيل من أعضاء!.

إن رؤية نصف الحقيقة شر من الجهل بها، لأنها توجد إنساناً يظن أنه يعرف كل شيء، وهو لم يعرف إلَّا الجزء الذي يجعله مسماراً في آلة كبيرة، دون أن يعرف شيئاً عن تلك الآلة!!.

(و) الانغلاق:

ويساهم الانغلاق مساهمة فعالة في تشكيل عقلية (البعد الواحد)، وللانغلاق أشكال كثيرة، فقد يكون بضرب ستار حديدي يحول دون حدوث تمازج ثقافي بين دولة ودولة أخرى، وقد يكون انغلاقاً على مستوى التخصص العلمي، وقد يكون عبارة عن شك المرء في كل ما حوله، وقد يكون على مستوى حزب سري يعمل تحت الأرض، وقد يكون...

ولسنا نبحث هنا في الضرورات الملجئة إلى الانغلاق، كما أننا لا نبحث في مشروعية ذلك وميزاته، وإنما نبحث فيه من حيث إنه عامل من عوامل تكوين عقل لا يفكر إلَّا في اتجاه واحد.

إن من المسلَّم به أن الوعي بالذات كثيراً ما يتوقف على الوعي بالآخر، وأن الجهل بما عند الآخرين سوف يحرمنا قطعاً من جزء من وعينا بذاتنا!. إن التقدُّم

---

(١) الإعلام: ص ٣٤.

شيء نسبي، كما أن النجاح كذلك، كما أن الإخفاق كذلك، ولن ندرك حجم ذلك إلَّا من خلال الانفتاح على الآخرين انفتاحاً يمكننا من رؤية نافذة إلى جوهر ما هم عليه. والانغلاق يحرمنا من ذلك. وليس الانفتاح ضرورياً للوعي بالذات، فحسب ولكنه ضروري أيضاً من أجل حل الأزمات الداخلية، ذلك لأن كل ثقافة، بل كل تخصص علمي يواجه أزمات داخلية نشعر معها أنه استنفد كل طاقاته التجديدية الخاصة، وحينئذ فلا مخرج إلَّا بإضافة عناصر تمكننا من إعطاء توافيق جديدة، وإمكانات أوسع للتغير نحو الأفضل، فعلم المنطق (القديم) سينتهي ما لم ينفتح على المنطق الحديث، وعلم (النحو) سيستنفد الكثير من طاقاته ما لم ينفتح على الدراسات اللغوية الحديثة، وهكذا. . .

نعم إن الانغلاق قد يكون ضرورياً حين تتعرض ثقافة الأمة إلى دفق حضاري يخالف مكوناتها الأساسية، وحينئذ فإن نوعاً من العطالة يكون ضرورياً مؤقتاً ريثما تتمكن الأمة من استيعاب الوافدات الجديدة وهضمها وتمثلها وتحديد الموقف منها، لكن إذا دام الانغلاق فإنه سيعني وجوداً محروماً من النمو الطبيعي المتفاعل القائم على انتخاب أفضل ما عند الآخرين مما ينسجم مع مقدماتنا النظرية وأطرنا الثقافية!.

هذا الانغلاق قد يكون متعمداً في كثيرٍ من الأحيان من قبل جهات لا ترى إمكانية لاستمرارها في ظل الانفتاح على الآخرين، لأن وجودها غير مشروع، أو لأنها تحمل ثقافة هشة، أو أفكاراً غير مشروعة. وحين تنعدم أجهزة الاتصال فإن التلاعب بالناس يصبح سهلاً، وللأقوياء على حد قول (وينر) طريقهم الذي يسلكونه، أما الضعفاء فإنهم يتصرفون بطريقة أقرب ما تكون إلى صراع الفأر داخل المصيدة[1]!!.

ولم نشاهد انغلاقاً شديداً في دولة إلَّا رأينا بعده انفتاحاً غير متوازن لا يقل ضرره عن الانغلاق، والنتيجة هي فقد التوازن في الحالتين!!.

---

(١) الإعلام والدعاية: ص ٣٣.

وأخطر ما في الانغلاق هو تشكيل العقل الخيالي الذي يحمل الأفكار المغلوطة عن الواقع المعاش، وعن الفكر العالمي ، مما يجعله ينهار عند الاحتكاكات الجادة مع من يعيشون خارج دائرته. وما ذلك إلَّا لأن الأحادية تصبح السمة المميزة لكل ما يتعلق بالمنغلقين، وتنعكس سلبياتها على طرق تفكيرهم انعكاساً مكبراً، مما يحرمها من التنوع والثراء ورؤية الكون على ما هو عليه.

إن الانفتاح لا يكون إلَّا ممن يثقون بما عندهم، وقد بنى الإسلام عقلية الانفتاح عند المسلم بأمره بالسير في الأرض، وبإطلاعه على تجارب الأمم الماضية ومواقفها من أنبيائها، ولذلك انطلق المسلم يجوب العالم معرضاً نفسه وثقافته إلى الاحتكاك بأمم وثقافات كثيرة، ودخل معها في حوارات صامتة متفاعلة دون خوف من ذلك على هويته وعقيدته. وحين دخلنا دورة الانحطاط والانكماش الحضاري صارت القوقعة من أهم مايسم حياتنا!!.

إن الانطلاق يولِّد الخبرة، والخبرة تولِّد الثقة بالنفس، والمنغلقون على ما لديهم لا يستطيعون إلَّا أن يكونوا خائفين، ولا يستطيعون إلَّا أن يكونوا غرباء، والخوف والغربة عاملان من عوامل الاضمحلال!.

* * *

٤ ـ التفسير التآمري للتاريخ:

سوف يستمر الجدل بين الحق والباطل إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، لأن ذلك من مقومات الابتلاء الذي يصاحب كل ساعة من حياة المكلفين:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾(١).

ومتاع الدنيا مهما يكن كثيراً فائضاً عن حاجات البشر فإن النفس الإنسانية

---

(١) سورة الملك.

شحيحة به نزّاعة إلى اقتنائه، ولو لم تكن بحاجة إلى أكثره.

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

ونتيجة هذين العاملين سوف تظهر في الأسباب التي يتذرع بها بنو البشر للحفاظ على وجودهم المعنوي والمادي الذي ينشدونه. وبما أن التوسع الذاتي سيكون في أكثر الأحيان على حساب الآخرين فإن الكثير من الجهد سوف يبذل في سبيل إبطال فعاليتهم بجعلهم أتباعاً، أو بقهرهم باستخدام الوسائل المختلفة التي تجعل نزع شيء منهم أمراً ممكناً. هذه هي شرعة الحياة، وهي من مقتضيات الابتلاء وملابساته.

إذا اتضح هذا فإن تعرض المسلم للتآمر ممن يخالفونه في المعتقد وممن ينازعونه ساحات البقاء أمر طبيعي ومفهوم، وهذا التآمر لا يخلو من إيجابيات، فالصراع يُوجد روح المقاومة، والأمة التي لا تنازل غيرها، أو لا تشعر بأن هناك صراعاً محتدماً تصاب بالترهل والانحلال، ويتراجع إنتاجها الحضاري بشكل عام! إن التآمر حين يوجه إلى أمة حية فإنه يكون بمثابة تعرض جسم الإنسان لفقد كمية من دمه، فتهبُّ مصانع الدم فيه لتعويض المفقود بدم جديد، وتمتلك الأمة مع هذا التجديد آليات الحفاظ على الذات والدفاع عنها.

إن المشكلة الحقيقية لا تبدأ بمعرفة التآمر واكتشافه، فوجوده أصل، لكنها تبدأ حين يكون جهاز المناعة لدى الأمة ضعيفاً أو مدمَّراً، فتصبح مطمعاً لكل طامع، وهدفاً لكل طالب توسع، وهذا ما يسميه مالك بن نبي ــ رحمه الله ــ بـ (قابلية الاستعمار). إن هناك دولاً كثيرة لم تستعمر في تاريخها، أو استعمرت لفترات قصيرة، لأن المستعمر لم يستطع القرار فيها، مع هذا فحالها أسوأ بكثير من حال بعض الدول التي استعمرت! وهناك دول كانت حالتها أيام الاستعمار أحسن من حالتها بعد الاستعمار!!. وقد قرأنا كثيراً في التاريخ عن عبيد أعتقهم سادتهم، فرأوا أن العتق كان وبالاً عليهم، فهم يتشبثون بالرق، لأن حياتهم في الحرية غير ممكنة!.

إن القرآن الكريم يعلمنا أن أساس المشكلة لا ينبثق من وجود الآخر، فالآخر موجود، لكن بوجودنا الخاطىء الضعيف المقصر:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾(١).

ويقول ـ جل وعلا ـ : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾(٢).

والقارىء لتاريخنا يخرج بانطباع واضح هو أن أهل القرون المفضّلة وعوا مفهوم هذه الآيات وعياً جلياً، ومن ثم فإنا نجد تحليلاتهم لأزماتهم وانكساراتهم كانت تلقي بالتبعية على القصور الذاتي، ولذا فإن أدب الشكوى قديماً لم يكن يتمحور حول تآمر الأعداء على نحو ما نجده اليوم، إنما كان يتركز على إشكالات الخروج على المنهج الرباني الذي أمرنا بالسير عليه!. إننا لا نستطيع أن نمنع الآخرين من التفكير بمصالحهم والاستجابة لنزواتهم، لكن بإمكاننا أن نسلح أنفسنا بما يجعل كيدهم باطلاً، أو مؤقت التأثير.

إن الموقف من التآمر ينبغي أن يكون مبنياً على العلم، أو الظن الراجح، لا على الشكوك، والقياسات الفاسدة، ذلك لأن تضخيم التآمر سيكون له رد فعل خاطىء، والاستهانة به ستؤدي إلى عدم مواجهته، وكلا الأمرين ضرر وخطر!.

وتتمثل المشكلة في أن فينا من يشعر بأن العالم كله متآمر عليه، وأنه الضحية التي قتلها العالم، وهو يسعى الآن لاقتسامها، كما يشعر كثير من المسلمين أننا على مدار التاريخ كنا ضحية للتآمر من أيام سيء الذكر عبد الله بن سبأ إلى يوم الناس هذا!. وهذا يعني أننا بخير، وأننا مؤهلون لقيادة العالم وسيادته، لكن مشكلتنا هي التعرض للدسائس والمؤامرات على اتساع أمداء الزمان والمكان!!. ويخيل إلى أنصاف المثقفين لدينا أن في التآمر ما يصلح لتفسير كل نكساتنا التي مُنينا بها في الماضي والحاضر، والتي ستقع في المستقبل!.

والثمرة التي سوف نجنيها من وراء هذا التفكير لخصها د. القرضاوي حين

(١) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٥.

قال: «إن هذا التفسير التآمري للتاريخ وللأحداث داخل أوطاننا سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو تربوية يثمر ثمرتين رديئتين:

الأولى: أنه إذا زاد هذا الشعور فإنه يثمر نوعاً من (الجبرية) التي لا تملك إزاء هذه المخططات الجهنمية حيلة؛ لما تملكه تلك الدول من الإمكانات الهائلة مادياً وأدبياً إزاء ما نحن عليه من عجز ووهن حيالها، وبهذا نصبح (أحجاراً على رقعة الشطرنج) كما قيل؛ ومثل هذا الشعور لا ينتج إلاَّ اليأس والهزيمة النفسية القاتلة!

الثانية: إن هذا يعوقنا عن النقد الذاتي لأنفسنا والمحاولة المخلصة لاكتشاف عيوبنا، ومعرفة أمراضنا، ودراسة أخطائنا وخطايانا، والاجتهاد في تقصي الأسباب؛ ليمكن تشخيص الداء، ووصف الدواء ما دام كل قصور أو تقصير أو فساد أو خراب سببه تخطيط أجنبي ماكر، وليس السبب من عند أنفسنا»(١).

ومما يتصل بقضية التآمر اتصالاً وثيقاً قضية (البحث عن مبرر)؛ فالعدو حين يريد اختراق دفاعاتنا يبحث دائماً عن مبرر؛ فلا بد من أسباب وجيهة لجعل التآمر علينا والتدخل في شؤوننا أمراً مشروعاً ينسجم مع الأعراف الدولية التي يضعها عادة الأقوياء. فنجده يتدخل هنا للدفاع عن الأقليات التي طحنتها الأكثرية، ويتدخل هناك ليضمن استرداد الأموال الضخمة التي أقرضها للبلاد، ويتدخل في مكان ثالث لمنع تهريب المخدرات، وفي مكان رابع لإغاثة المنكوبين الذين لم تصنع لهم حكوماتهم شيئاً! التدخل في كل هذه الأحوال يجد ما يسوغه من المنطق والسوابق التاريخية والعرف الدولي؛ وإن كانت الأهداف الكامنة من وراء التآمر والتدخل تظل غير ما يعلن عنه، بل إن ما يعلن عنه كثيراً ما يكون غطاء للأهداف الحقيقية!.

ونحن حين نكون أقوياء لا نعطي المسوغ لأحد بالتدخل في شؤوننا، وذلك لا يكون (بالعزة بالإثم) ولكن بحل خلافاتنا الداخلية بأيدينا، وبإنتاج كميات من

---

(١) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة: ص ٨٩.

المواد التي تغني أبناءنا وشعوبنا عن تكفف الآخرين والاستغاثة بهم، وبفرض ثقافة أصيلة متجددة تسهم في تكوين الأعراف والمعايير الدولية!.

* * *

٥ ــ لكل قاعدة شواذ:

تميل القوانين المتعلقة بمظاهر الطبيعة إلى الصرامة والدقة، وذلك من رحمة الله ــ تعالى ــ بنا حين سخر لنا هذا الكون على وجه يسهل فهمه والتعامل معه؛ ولولا اطراد السنن والأنظمة لعشنا حالة من الخوف الدائم من كل ما حولنا، ولاستنفدنا قسطاً كبيراً من طاقاتنا وأوقاتنا في اختبار كل ما يحيط بنا، ولكثرت المشكلات التي سنتعرض لها!.

أما على الصعيد الإنساني فإن الأمر مختلف حيث تكون القواعد غير صارمة مهما حاولنا أن نكون دقيقين في صياغتها؛ وذلك تابع لطبيعة الظواهر الإنسانية نفسها، وهذا يعطيها التنوع والثراء والتكامل. ومن جهة أخرى فإن اللغة التي نستخدمها وسيلةً للتعبير عن تلك الظواهر هي الأخرى غير صارمة، بل كثيراً ما تستخدم اللغة أداة من أدوات التضليل عن الحقائق! ونظراً لكثرة العوامل المكونة للظواهر الإنسانية يجد الباحثون في حقولها صعوبات متزايدة كلما غذوا السير في ميادينها؛ ومن ثم فإن القواعد في المجالات التربوية والنفسية والاجتماعية تكون معبرة عن اتجاهات ومسارات أكثر من أن تكون محددة لماهيات معينة.

وبناء على هذا انطلقت القاعدة المنهجية الجميلة: «لكل قاعدة شواذ». وهذه الشواذ لا تحتاج إلى استقراء وتتبع ما دمنا نعلم أن التعبير في الأساس عن القاعدة لم يكن صارماً؛ فنحن نعلم يقيناً أنه ليس كل من عاش في بيت يتشاجر فيه الأبوان سيكون في المستقبل معقداً أو نزاعاً إلى الانتقام أو يائساً. ونحن نعلم أيضاً أنه لا يكون أهل بلدة جميعاً من النوابغ، أو البلهاء، كما أنهم لا يكونون جميعاً من الكرماء أو الأشحاء. والسبب في هذا أن العوامل التي تتحكم في إبراز ظاهرة اجتماعية كثيرة جداً، وموزعة على مجالات مرئية وغير مرئية، بعضها بيئي، وبعضها وراثي، بعضها أساسي، وبعضها ثانوي إلخ...

إن كثرة العوامل المؤثرة في ظاهرة ما على نحو متشابك متداخل متفاعل سوف تُظهر لنا عدداً كبيراً من الظواهر ذوات الأوساط المتغيرة تغيراً تدريجياً، وهذا يتطلب الدقة المتناهية في إطلاق الأحكام حتى لا نضاعف الفوضى التقعيدية.

إن إيماننا بأنه لكل قاعدة شواذ يملي علينا إلى جانب الدقة والحذر في التعبير أمراً آخر، هو دراسة كل حالة خطيرة دراسة منفردة تنطلق من الاتجاهات العامة التي تحكم تلك الحالة لكن مع التدقيق في التفاصيل التي منحت الخصوصية لتلك الحالة.

ونحن نشاهد اليوم ميلاً هائلاً إلى إطلاق الأحكام العامة على كل شيء من حولنا، والإطلاقات العامة مخالفة للواقع، كما أنها مخالفة للمنهج القرآني الذي أمرنا أن نزن بالقسطاس المستقيم، وهي إلى جانب ذلك عنوان السذاجة عند من يطلقها. وهي بعد هذا وذاك سبب من أسباب التوتر الاجتماعي؛ لما فيها من الظلم والإجحاف، كما أنها تترك ظلالاً قاتمة في تركيبنا العقلي العاجز عن التفصيل للآخرين، وإدراك تفصيلاتهم!.

إن التعبير بأكثر، أو ببعض، أو بقولنا: السمات العامة، أو الاتجاه العام لكذا هو المنهج الذي أرساه القرآن الكريم، وهو المنهج الذي يؤيده الواقع، وإن التغافل عنه سيجرنا إلى مواقف غير حميدة.

* * *

٦ ـ إسقاط القاعدة بالمثال الشاذ:

هذا لون آخر من الخروج عن الموضوعية، وهو مغاير لِلَون السابق في الظاهر، لكنهما ـ حسب المشاهد ـ يخرجان من مشكاة واحدة؛ فالذين يعممون أحكامهم هم ـ في الغالب ـ الذين يُسقطون القاعدة بالمثال الشاذ. وقد وضع أهل التفكير المستقيم قاعدة جميلة في هذا الباب، هي: «الشذوذ يؤكد القاعدة». وهذه القاعدة تنسجم وتتكامل مع القاعدة: «لكل قاعدة شواذ»، فحين نقول: إن الحروب الطاحنة تترك وراءها فساداً أخلاقياً وخراباً اقتصادياً نظراً لسوء الظروف التي تفرزها، فإن هذا يعني أن الاتجاه العام يكون كذلك، ولكن على الصعيد الفردي فإن بعض

الأشخاص يستفيدون من الحروب كتجار الأسلحة، أوالمحتكرين لبعض السلع أو . . .

هذا هو الوضع المنطقي، لكن يأتي من يقول لك: إن الحروب لا تفعل شيئاً مما تقول بدليل أن فلاناً من الناس خسر ماله وأهله في الحرب، لكنه صابر محتسب، وسلوكه الآن أكثر استقامة من قبل!!. وهذا ما نريده من وراء قولنا: «إسقاط القاعدة بالمثال الشاذ».

هذا الإلغاء للقواعد عن طريق الأمثلة الشاذة يكون عادة عند الذين يشعرون بالنقص وعند الذين يعانون من أزمات حادة مزمنة، كما هو الوضع فيما يسمى بالعالم الثالث. وهذا الإسقاط يمثل مشكاة من الأمل في نظرهم يخففون به من عناء الشعور بالدونية، ويربتون به على أكتاف المتشائمين والشاكين من سوء الأحوال!. ولطالما سمعت من كثير من المثقفين فيوضاً من الكلمات والتعابير التي تصور ذلك؛ فالمسلمون عند كثير منا على صلة بعلوم الفضاء؛ لأن (فاروق الباز) عربي مسلم، وله مركزه في وكالة بحوث الفضاء في أمريكا، بل إن منهم من يرى أنه لولا هذا الرجل لكانت مسيرة الفضاء عند القوم على غير ما هي عليه اليوم! وهذا من التضليل؛ لأن (فاروقاً) ما هو إلَّا مسمار في آلة ضخمة كبيرة رمزها (ناسا)، وهو من إفراز البيئة العلمية التي تدرب فيها، ووجوده هناك إدانة للوسط العربي الذي ينتسب إليه، والذي عجز عن تفجير الإمكانات المبدعة التي لديه، وتوظيفها!.

وإذا ما وُجِد عالم فذ في مدينة كان ذلك كافياً لإضفاء العبقرية والعلم على أهل المدينة كلها؛ أو ليست تلك المدينة هي التي أخرجت فلاناً من الناس الذي لا نظير له!!. وهكذا. . . مع أن المدينة التي يسكنها مئات الألوف، ثم لا تخرج إلَّا نابهاً واحداً مدانة من وجهة القاعدة التي نتحدث عنها! هذا الخطأ مبني على عدم إدراك الآلية التي تمنح الخصوصية والاتجاه للظواهر الاجتماعية، وهذه الآلية تنطلق من تنوع المجتمع واشتماله على كثير من التناقضات التي تؤدي إلى تنوع إنتاجه ونماذجه. والذي يحدد اتجاهه وسماته هو النسب الإحصائية بين تلك التناقضات؛ فالسجون مجتمعات مجرمين خارجين على النظام بشكل عام، مع أن

فيها بعض المظلومين، كما أن فيها من ارتكب جريمة في حالة الدفاع عن عرضه، وفيها من تاب، ورجع، لكن ذلك كله لا يقدح في سلامة الحكم بشكل عام، وليس لأحد أن يقول لنا إن السجون مجتمعات صالحين؛ لأن فيها من يصلي، وفيها من يذكر الله؛ لأن هذا معتاد مألوف، لكن كم هم أولئك الذين هم على هذه الشاكلة!! فإذا ما فرض أن أكثر من في السجن هم من المصلين الذاكرين أهل السمعة الحسنة فإن هذا لا يكون حينئذ سجناً بالمعنى المتعارف عليه، وربما كان الأليق أن نسميه (معتقلاً)؛ حتى لا نقع في الخلط بين المصطلحات!.

إن غياب اللغة الكمية عن استعمالاتنا اليومية، أو ضعفها هو الذي يسبب لنا إسقاط القاعدة بالمثال الفذ، وهو الذي يدفعنا إلى التعميم، ومن ثم فإنه لم يكن غريباً ارتباط التقدم بالإحصاء الذي يعطي القاعدة مساحتها، ويعطي الشذوذات حجمها الطبيعي.

* * *

٧ ـ تقديس الفرد[١]:

لا ينكر أحد أن الناس يتفاوتون تفاوتاً كبيراً فيما بينهم في ملكاتهم وخصائصهم، وما تفيض به عليهم ظروفهم الخاصة من مكنة وسلطان، لكن الله تعالى جعل لنا سقفاً لا نستطيع أن نتجاوزه مهما كان شأننا، وهناك صفات مشتركة بين الناس تجعلهم جميعاً بين عتبة وسقف محددين على اختلاف مواقعهم بينهما.

ويقوم منهج التصور الإسلامي في هذه المسألة على أن البشر عبيد الله تعالى، وأنهم يخطئون ويصيبون؛ حتى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قد يخطىء الواحد منهم إذا اجتهد، ولكن الله لا يقره على الخطأ، وإنما يبين له وجه الصواب، حتى لا يصبح الاجتهاد الخاطىء جزءاً من المنهج، وحتى لا يشوب القدوة شائب. وهناك مواضع عدة في القرآن الكريم مشهورة عاتب الله فيها نبيه ﷺ على بعض

---

(١) تحدثنا عن بعض صور التقديس أثناء حديثنا عن التعصب والمبالغة لشدة التلازم بينها.

اجتهاداته[1]. وحين أكرم الله نبيه بالإسراء والمعراج ذكره بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[2]؛ ليشير للناس كافة أن الإنسان مهما سما ورقى فإنه لا يستطيع أن يتجاوز دائرة العبودية لله تعالى.

إن مشكلة تقديس الأشخاص تنبع أساساً لدى الأمم والشعوب من غياب المنهج أو غموضه أو تعقيده وقد ذكرت من قبل[3] أن العلاقة بين المناهج والأشخاص حساسة جداً، وقد تكون غامضة في بعض الأحيان مما يوجب علينا الحيطة والحذر. ومن السوابق التاريخية الهامة لاختلال هذه العلاقة ما حدث من ردة أعراب المدينة عند وفاة النبي ﷺ ظناً منهم أن علاقتهم به أكبر من علاقاتهم بهذا الدين الذي ما جاء ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلَّا لتبليغه، والذي كان هو نفسه منضبطاً بكل تعاليمه. أما أبو بكر رضي الله عنه فقد كشف عن فهم مخالف حين قال: «أيها الناس من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات»!![4].

إنه لم يرتد أحد من سكان المدينة ـ فيما نعلم ـ كما لم يرتد أحد ممن أسلم قبل الهجرة؛ لأن عند هؤلاء من معرفة المنهج، ومعرفة مهمة الرسول ﷺ ما يحول بينهم وبين ما هو دون ذلك.

وحين أدرك عمر ـ رضي الله عنه ـ نوعاً من الخلل في العلاقة بين الأشخاص والمنهج، وأحسَّ بنوع من الطغيان على المنهج في حس الناس ونظرهم قام بعزل خالد ـ رضي الله عنه ـ عن إمرة الجيش وتولية أبي عبيدة، حيث ارتكز

---

(1) انظر: سورة التوبة: الآية ٤٣، وسورة الأنفال: الآيتان ٦٧، ٦٨، وسورة عبس: الآيات ١ ـ ١٠.

(2) سورة الإسراء: الآية ١.

(3) انظر: ص ١٧١ من هذا البحث.

(4) سيرة ابن هشام: ٣٠٦/٤.

في حس الناس أنهم لن يهزموا ما دام قـائدهم خالداً؛ وهـذا ـ ولا شك ـ خـطير، وقد فعل عمر ذلك حرصاً على رؤية الأمور على وجهها الصحيح.

وحين يصاب الناس بأزمات حادة فإنهم يحـاولون الـوقوع على مخـرج؛ وبما أن إدراك المـواقف أسهل من إدراك المبـادىء، وإدراك إنجازات الأشخـاص أسهل من إدراك إنجـازات المنهج فـإن الناس حينئـذ يرمقون شخصـاً تناط بـه الآمـال في الخـروج من التيه، ونفض غبـار المشكلات التي يعـانون منهـا. ومن خلال دنـدنـة الناس حول (البطل المنقذ) تتبلور المواصفات التي يـرغبون في تـوفرهـا لدى بـطل أحلامهم، من الصدق والأمانة والعدل والقوة والحزم والتواضع وبعد النظر والشفافية والرحمة والجاذبية إلخ. . . وهنا يبدأ الطامحون ـ وما أكثـرهم ـ في وزن ما لـديهم من هذه الصفات المطلوبة شعبياً، وبعد ذلك تبدأ محاولات الطفـو على السطح من خلال إبراز المـواقف والتصريحـات التي تنم عن توفـر ما يـرغب فيه النـاس، وتبدأ أنـظار الناس بـالتوجـه إلى أولئك الـطامحين لحسم الجدل لصـالـح أحـدهم! وفي الوقت ذاته تكـون الأجهزة الاستعمـارية السـاهرة على مصـالح دولهـا في حالـة من الترصد والترقب لسوق عرض المنقذين الطامحين؛ ليقع الخيـار على فتى الأحلام، ويبدأ فصل جديد من الـدعايـة المركـزة ببيان خصـائصه تـارة، وشتمه تـارة أخرى، ومنحه الأوسمة في حين، وقـطع المساعـدات في حين آخر إلى أن يـوقن الناس أن اختيـارهم كـان صحيحـاً، وأن منقـذهم مستقـل الإرادة حـريص على مصـالـح من اختـاروه، فهي عنده المبتـدأ والخبر، والـوسيلة والغايـة معاً. فـإذا تمكن صاحبنـا، وصار فوق الشبهات، وفوق الشـورى، وفوق المنهـج، وفوق الخـطأ ـ لأنه ملهم ـ بـدأت مرحلة سـداد الثمن لمن مكن له في الـداخل والخـارج. . . وحينئذ يصـاب الناس بالإحباط مرة أخرى، وينسون الأزمة الأولى؛لينشغلوا بالأزمـة الجديـدة، التي صار البطل الملهم أبـا عذرتهـا، ويبدأ بعـد ذلك فصـل جديـد من البحث عن منقذ جديد!!.

هذا باختصار شديد تاريخ ما يسمى بـ (العالم الثالث) مـع أزماتـه وانكساراتـه ومع أبطالـه ومنقذيـه!. ولست أدري من أين تولـد تقديس الأفـراد لدى أمـة يعلمها دينها ألا تركع إلاَّ لله، كما يعلمهـا أن المنهج فـوق الجميع، حتى الـذين يجتهدون

فيه، ويعلمونه الناس؟! هل نظام القبيلة(١) الذي كان سائداً في الجاهلية هو البذرة الكامنة التي أخذت تورق بعد أن صار المنهج غامضاً في أذهان العامة الذين ارتفعت أسهمهم بعد خفوت صوت أهل الحل والعقد، أو أن ذلك تولد عن تقصيرنا عبر القرون في بلورة مؤسسات شورية قوية تعبر عن رأي الجماعة ومصالحها، وتنمي في الوقت نفسه ضمير الجمعية، أو أن ذلك من طبيعة تعشق التفرد في ذاتها وغيرها، أو أن ذلك إفراز طبيعي من إفرازات التخلف حيث يكون الجميع في انتظار من سيحل لهم مشكلاتهم، وحيث يكون الرجوع إلى المنهج مكلفاً. أو أن معالم الشخصية الإسلامية اندرست من خلال عمليات الضغط والقهر لتصبح صالحة للتشكيل حسب ما يريد الطغاة والمتنفذون؟؟ هذه كلها احتمالات، وإن كان لا يمنع مانع من أن تكون هذه الأسباب وغيرها قد تعاونت جميعاً في الصيرورة إلى ما نحن فيه.

ونحن بعد كل هذا لا ننكر أثر الأفراد في الريادة والإصلاح وتجميع الطاقات والمشاعر وتوجيهها، كما لا ننكر دورهم في إعطاء النماذج العملية الواقعية، لكن الذي ننكره هو تضخيم التقدير لهم بحيث يُؤمَّن لهم غطاء معنوي يمكنهم من تجاوز الشورى والنصح والمنهج، ويجعل الناس يهابون نقدهم وبيان أخطائهم...

بعد هذا وذاك ما هي الإشكالات والملابسات التي تترتب على تقديس الأفراد، وإناطة آمال الإصلاح بهم؟

(أ) إن تعليق أمة أو جيل من أمة **آماله** على (بطل ملهم) للخلاص من نكساتها، وانحباساتها الحضارية يدل على عدم معرفة حسنة بآليات تكون تلك المشكلات، وعلى عدم معرفة بآليات حلها. إن الحضارة الإسلامية ـ على سبيل المثال ـ بلغت مرحلة جيدة من النضج خلال قرن من الزمان، وظلت تقاوم عوامل الفناء قرابة عشرة قرون، والحالة التي وصل إليها المسلمون هي الحصيلة النهائية لكل أشكال الإحباط والانكسار وكل ألوان الصمود والمقاومة. هذا على المستوى

---

(١) شيخ القبيلة في النظام القبلي هو بطلها المتفرد؛ فهو المشرع والمنفذ والقاضي، وهو المفسر لتاريخها والمقر لأعرافها، وهو قائد جيوشها، وأهل حلها عقدها، وهو بيت مالها وخزائنها في النوائب، هو باختصار القبيلة، لكن بشكل (مكبر)!!.

التاريخي؛ أما على مستوى الواقع فإن كل مسلم هو جزء من إشكالات الأمة بسلوكه ومنهجه وخلقه وفعاليته. ومن هنا فإن من المستحيل على جيل من الأجيال أن يعيد كل الأمجاد المفقودة، فكيف إذا علقت إعادتها برجل أو رجال محدودين؟! لا سيما والأمة اليوم تجاوز عددها ألفاً ومئتي مليون نسمة، وهم موزعون على سائر المعمورة!.

إن الحل ليس مدخراً عند شخص، لكنه مذخور في دم كل مسلم مهما كان شأنه، وذلك بأن يقلل من سلبياته، وأن يضاعف من فاعليته، وأن يساعد في إيجاد الوظائف للمبادىء الإسلامية تخطيطاً وتنفيذاً. والانصراف نحو الأشخاص لحل المشكلات دون ذلك سيكون ضرباً من إضاعة العمر، ومنبعاً ثراً للإحباطات المتتالية!!.

(ب) إن تقديس الأشخاص يساعدهم مساعدة مباشرة على تجاوز المنهج والأنظمة والأعراف ومصالح الأمة إنْ كانوا من الساسة، ويشجعهم على الاندفاع نحو الاجتهادات غير المؤصلة، وعلى الخروج على السلوكيات الإسلامية إن كانوا من العلماء؛ وذلك لأن كل من يريد الخروج على ما هو موضع إجماع بحاجة إلى مساعدة من أهل الإجماع أنفسهم، أو بعبارة أخرى عليه أن يشق عصا الإجماع أولًا، وذلك لا يكون إلَّا حين تنحاز إليه فئة من المجتمع واضعة ثقتها فيه، ومؤكدة صحة كل ما يقوله، ويقوم به من أعمال؛ وتتلقف أجهزة الدعاية الخاصة ذلك، فتضخمه عشرات المرات، ويؤدي الحزب الحاكم ذلك الدور بمهارة، ويرسم حوله دوائر متسعة من العامة وأنصاف المثقفين الذين لا يدركون ما يدبر، ويحاك! فإذا ما شعر البطل أنه منح ثقة لا بأس بها فإنه ينتقل إلى المرحلة الثانية، وهي تأويل كل ما هو ثابت تأويلًا جديداً يقلل من قيمة الأنظمة، أو يلغيها، أو يحرفها، أو ينسخها... من أجل امتداد سلطانه الشخصي لملء الفراغ الذي تتركه! وما كان لذلك أن يتم لولا تصوير الناس له بأنه متفرد في كل شيء، وأن تجاوزه ليس بتجاوز، وإنما أملى عليه ذلك المصالح الوطنية والضرورات الآنية، ومحاولات الاكتشاف للأحسن!! والمشكلة ليست في تجاوزات فرد، لكن في ذيول ذلك؛ حيث إن الشرائح التي تؤمن له الغطاء الدعائي تربط مصالحها بمصالحه، وتستمد

نفوذها من نفوذه، وهو لا يستطيع أن يمنعها من التجاوز؛ لأنها هي التي تساعده عليه. وتلك الشرائح تشكل من جهتها طبقات تقتات على التجاوز الذي يؤمنه لها النفوذ[1]! وهكذا يتم نشر ما لا يحصى من الأحقاد الاجتماعية، ويصبح العدل كلمة حبيسة في بطون المعاجم، وترتفع الأسعار ارتفاعاً مذهلاً؛ لوجود أقوام ينفقون مما لم يتعبوا بالحصول عليه، ويدخل المجتمع في دوامة من الأزمات التي لا يجد لها حلاً ولا مخرجاً.

(ج) والمرض الثالث الذي يترتب على تقديس الأشخاص هو تهيب الناس لنقدهم، أو مراجعتهم في شيء مما فعلوا؛ ذلك لأن البسط كثيراً ما يصاحبه الطغيان، كما قال ـ سبحانه ـ :

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

وهذا البغي يحتاج من الأمة إلى نقد وتمحيص ومواجهة؛ ولا يستغني العدول والثقات عن مراجعة أعمالهم فضلاً عن غيرهم؛ لأنه يتعاقب على حياة البشر نوعان من العمل بناء ونقد، والنقد يرقي العمل، وينضجه، ويوجهه، لكن هالات التقديس التي ترسم حول الشخص تحول بين الناس وبين نقدهم له. وهي تظهر بأشكال لا تكاد تنفد، فتارة يكتسب ذلك من خلال مكتب فخم، أو موكب يسير خلفه، أو أمامه، وتارة يكون من خلال نسب شريف، أو خوارق تنسب إليه، أو جهود جبارة بذلها في سبيل خدمة الأمة...

وهذه الحال وجدت في بعض الأوساط الإسلامية حيث بزغت فكرة (المرشد الكامل)! ومع أن الكمال لله وحده، ومع أن الذين يطلقون هذا اللقب لا يقصدون منه عصمة ذلك المرشد، إلّا أن الظلال والدوائر التي يرسمها ذلك اللقب كافية لأن تجعل كثيرين يترددون قبل توجيه أية نصيحة، أو انتقاد أي مسلك، وتكون العاقبة هي انتشار الغيبة والحقد والمكائد وترسخ الأخطاء، وتفاعلها، ثم الانهيار...

---

(١) انظر: إنباه الرواة: ١/١٦٠ ـ ١٦٣، لترى لذلك نموذجاً تاريخياً فيما جرى بين الزجاج النحوي وبين وزير المعتضد والمكتفي القاسم بن عبيد الله.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٧.

ورحم الله عمر حين علمنا وضع الأمور في نصابها؛ فقد قال له رجل: يا أمير المؤمنين اتق الله، فنهره أحد الحاضرين، فقال عمر: دعه فلا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها!.

إن الأخطاء حين لا تجد من يصححها تتجمع؛ لتتضاغط كما يتضاغط البخار، حتى إذا طفح الكيل انداحت في صورة انفجار مروع يذهب بالصالح والطالح. وفي حالة المجتمعات الشيوعية اليوم عبرة لمن يعتبر!!.

وأخيراً فإذا ما قدر للشخص المقدَّس أن ينتهي ـ وكل منا سوف ينتهي ـ فإن كارثة سوف تحل، فإن كان حاكماً ترك فراغاً هائلاً، لا يُدرى كيف يُسد بعد؛ لأن كل خيوط الحكم في يده، وإن كان شيخاً تبددت جماعته من بعده، وكأن شيئاً لم يكن؛ على حين أن المجتمعات التي لا تولي الفرد ذلك الاهتمام يكون ذهاب الأشخاص ومجيء غيرهم فيها طبيعياً، ويتم التغيير عن طريق التدرج المتزن.

* * *

٨ ـ الخلل في علاقة المتقابلات:

يتفق بنو البشر جميعاً على وجوب إعطاء كل ما يتعاملون معه من حولهم قدراً معيناً من الاهتمام، كما يتفقون على أن هناك علاقات ووشائج معقدة تربط بيننا، وبين ما حولنا؛ وهذه الروابط نفسها تعد في الوقت نفسه قنوات ومعابر لتبادل التأثير بين ما حولنا من متقابلات. وهناك إحساس عام مشترك أن الخلل في العلاقة بين المتقابلات سيؤدي إلى تضخيم بعضها على حساب بعضها الآخر، بل إلغائه كما يلغي المكانُ الزمان والامتدادُ الاتجاه! أما تحديد المقادير الدقيقة التي ينبغي مراعاتها في عمليات الموازنة بين كل ما حولنا من متوافقات ومتقابلات، وترتيبها في سلم الأولويات فهذا يعود في الحقيقة إلى عوامل عدة، منها: الإطار النظري لثقافة الأمة، والمقدمات المنطقية التي تلقنها البيئة التربوية لمن يعيش فيها، وطبيعة المشكلات التي تتعرض لها الأمة، ومدى وعيها بذاتها، وبما حولها...

ومع قناعتي بأن كثيراً من هذه المحدِّدات ليس صارماً، لكننا من خلال تفاعل الآراء حول قضية ما، وضرب بعضها في بعض وقسمتها نحصل على أعداد من

الضوابط والمشخصات والأعراف الموضوعية العامة التي تركز في حسِّ العامة والخاصة (لا موضوعية) من يخرج عليها خروجاً ظاهراً. هذه المشخصات والضوابط قد لا تكون مكتوبة، ولا محفوظة، وإنما يعبر عنها من خلال المزاج العقلي والنفسي والمجتمعي للأمة. هذا المزاج الذي يعد خلاصة فكرة مركزة لكل أنواع تفاعل مبادىء الأمة وقيمها مع الظروف المختلفة التي تعايشها.

وإليك نماذج عدَّة من المظاهر التي تنافي الموضوعية في هذا الباب:

(أ) ما بين الكم والكيف:

هناك في هذا الوجود علاقة جدلية بين الكم والكيف؛ فكلما زاد الكم نقص الكيف، وكلما زاد الكيف نقص الكم، ويستحيل على الإنسان المحدود الطاقات أن يحول كل كم إلى كيف؛ فالميزان التجاري يميل دائماً لمصلحة الكم. إن كل ما يسعى إلينا، ولا نبذل فيه جهداً يذكر هو كم سواء أكان ذلك زمناً أو سلعة مصنَّعة (كيَّفها) غيرنا. وإن كل ما نسعى إليه، ونترك فيه شيئاً من حركة الفكر أو اليد هو كيف، والكيوف درجات؛ فرب (كيف) هو (كم) بالنسبة لكيف آخر[1]. إن كل ما حولنا كم: الزمان والمكان والمواد الخام والطاقات الكامنة والفكر الهاجع، وكل أولئك في حالة من التحدي للإنسان المكلف المبتلىٰ؛ ليحوله إلى كيف بإضافة جهده إليه؛ كيما يخرجه عن وضعه الفطري.

ونحن في تعاملنا الحياتي نمجد الكم تارة، فنجعله مقياساً للنجاح، ونمجد الكيف تارة أخرى، فنزهد في الكم؛ مع أن للكم وظائفه، وللكيف وظائفه، وحين نعرف العلاقة التي تربط بينهما، والوظائف الحيوية التي يؤديها كل منهما نتمكن من إعطاء كل منهما حقه من الاهتمام والعناية. وإذا نظرنا في القرآن الكريم والسنّة المطهرة وجدنا من النصوص ما يؤكد على أهمية الكيف، وما يؤكد على أهمية الكم؛ فمما يشير إلى أهمية الكيف قوله ـ سبحانه ـ:

---

(١) انظر: حول الكيف والكم جدلية الحرف العربي: ص ١٧٤، وما بعدها.

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾[1].

وكقول النبي ﷺ: «غلب درهم مئة ألف درهم»[2].

وبعض النصوص أشار إلى أهمية الكم، كما في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «من كثَّر سواد قوم فهو منهم»[3]. وحين نريد أن نكون موضوعيين في التعامل مع الكم والكيف لا بد لنا من فقه لمجالات تأثير كل منهما، وخصوصية الظروف التي تمر بها الأمة. ويلاحظ أن التأكيد في بعض الظروف على الكم يكون هو الموضوعية، كما في قضية الانتشار الأفقي للمعرفة؛ فإن ذلك يقتضي عدداً كبيراً من الكتب والدروس والمحاضرات والوسائل التثقيفية الأخرى التي تخاطب العامة ومتوسطي الثقافة، على ما نشاهده في الملايين من كتب المناهج الدراسية، وما تعج به الساحة الإسلامية من الكتيبات التي تنشر المستقر من الأفكار والأحكام التي تجاوزت مرحلة الجدل والخلاف. وتؤدي هذه الوسائل وظائفها حين تكون في الاتجاه الصحيح، وحين تكون منفتحة تقبل الإضافة، وتشوق إليها. ولو أننا ألَّفنا كتباً راقية إلى تلك المجالات من ذلك النوع من العلم الذي يعرض أفكاراً ما زالت في أعالي النظر لكنا غير موضوعيين، ولربما كان الإفساد أكثر من الإصلاح!.

ونحو من هذا المجال الاجتماعي فإن الظواهر الاجتماعة تتكون على سبيل التدرج، وإذا ما استقرت كانت قاهرة لا يسع الأسوياء إلَّا التكيف معها بصورة من صور التكيف. والظواهر الاجتماعية تعتمد على الكم لا على الكيف، ومن ثم جاء الحديث: «من كثر سواد قوم...» لأن الناس حين يتأثرون بظاهرة ما لا يملكون في العادة النفاذ إلى معرفة أسبابها، والجهات التي تروج لها، وإنما يندفعون إلى تقليدها، والتظاهر بها؛ لمجرد أن السواد الأعظم من مواطنيهم يستحسنها، بل إنهم مضطرون للرضوخ لها، ولو لم يقتنعوا بها! ويلاحظ في هذا المضمار أن الصحوة

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٥.

(٢) سنن النسائي: ٥/٥٩.

(٣) من حديث لابن مسعود يرفعه. انظر: فتح الباري: ١٣/٣٧.

الإسلامية في العصر الحديث اتجهت إلى الصفوة، فصار جل أتباعها من المثقفين أساتذة وطلاباً، ومن على شاكلتهم؛ فأدى ذلك إلى خلل في العمل حيث عجزت عن القيام ببناء مؤسسات كبرى، تقوم بدور الوسيط بين مرحلة الجماعة، ومرحلة الدولة؛ لأن ذلك يتطلب أموالاً طائلة، كتلك الموجودة عند فئة التجار ـ مثلاً ـ على حين أن أتباعها ينتمون إلى الطبقات الفقيرة والمتوسطة.

وفي بعض الأحيان يكون التوكيد على الكيف هو المطلوب؛ وتكون الموضوعية تحقيقه، وقطع النظر عن الكم، كما في الانتشار الرأسي للمعرفة؛ فإن كتاباً واحداً يحمل أفكاراً جديدة تفتح آفاقاً رحبة في لون من ألوان المعرفة أجدى على الإبداع والمبدعين من ألوف الكتب التي تجتر معلومات مستقرة يعلمها الخاصة وكثير من العامة؛ فالأشخاص الذين يسهمون في تقدم المعرفة لا يقوَّمون من خلال أعداد كتبهم، وتردد أسمائهم على صفحات المجلات، ولكن من خلال الإضافات الجديدة التي جاؤوا بها! ويقال نحو من هذا في الوظائف الإدارية والقيادية العليا؛ فشخص موهوب مؤهل أجدى بكثير من عشرات الأشخاص (الخام). وقد أدركت الشركات الكبرى هذا فصارت تعتمد على الكيف في الوظائف العليا التي تتطلب نوعيات خاصة من الأكفاء، وتعتمد على الكم في الأشخاص المنفذين. ونحن في كثير من الأحيان لا ننتبه لهذا فنحشد أشخاصاً كثيرين غير مؤهلين في موضع لا يحتاج إلَّا لشخص مؤهل واحد! وأخيراً فإن التوسع في الكم لا يكون أبداً إلَّا على حساب الكيف ونحوه التوسع في الكيف، والذين يخرجون في كل ثلاثة أشهر كتاباً وأصحاب الموسوعات الضخمة هم من أهل الكم، وعلينا قبل أن نتورط في شراء إنتاجهم أن نتأمل ملياً!.

(ب) ما بين الوحدة والحرية:

كان المحور الذي يجذب أنشطة (أهل السنة والجماعة) على مدار التاريخ هو محور التوحد؛ وقد ضحوا، وما يزالون بأغلى التضحيات في سبيل توحيد الكلمة، وعدم شق عصا الجماعة، وإن كان ذلك يقابل ممن لا خلاق لهم بالنكران والاستخفاف! والوحدة والحرية مطلبان أساسيان للشخصية الإنسانية؛ فعن طريق الحرية يحقق الإنسان ذاته، ويخلصها من الاندماج في الآخر، وعن طريق الوحدة

يحقق الإنسان حاجة مهمة، هي الانتماء، والخلاص من الشعور بالغربة والضعف، كما أنه بالوحدة يحقق مزيداً من الحرية.

ونقف مواقف غير موضوعية من الوحدة والحرية في كثير من الأحيان نظراً لدقة العلاقة بينهما، وهذه العلاقة تكون تارة التعاون، وتبادل التأثير الإيجابي، وتارة تكون التضاد والتدافع! وهذا يجعل من الموضوعية ضرورة التوازن بينهما.

فالحرية والوحدة تشتركان في أن كل واحدة منهما تساعد في تحقيق ذاتنا وحاجاتنا المختلفة؛ فإذا ما حققنا التوحد نكون قد عمقنا الحرية؛ حيث إن كثيراً من الضرورات التي تحيط بنا لا يمكننا التحرر منها إلَّا بشيء من الوحدة والتكتل؛ فأنت لا تستطيع أن تكون باني الجامعة وأساتذتها وطلابها في آن واحد، بل لا بد من شيء من أنواع التوحد مع الآخرين من أجل إقامتها تماماً كما أنك لا يمكنك أن تكون صاحب المصنع ومستهلك بضاعته إلخ...

ووجه التقابل بين الحرية والوحدة أن الوحدة مع كونها تساعد على تحقيق الحرية في كثير من الأحيان إلَّا أنها في الوقت نفسه قيد على المتحدين؛ حيث إن كل مساهم في شركة ما هو إلَّا قيد على شريكه، وهم رضوا بهذا القيد؛ لأن الوحدة نفسها تحقق لهم الانطلاق من قيود أخرى تحيط بهم، وهي كثيرة جداً؛ فالمال الذي لا يستثمر ضرورة وقيد، والمادة الخام التي لا نستطيع تصنيعها هي ضرورة وقيد إلخ... وهنا تقوم العلاقة الحساسة بين الوحدة والحرية؛ فإذا صارت الوحدة قيداً دون أن تحرر من قيود أخرى ـ أي وحدة غير بناءة ولا منتجة ـ فإن الناس حينئذ يميلون إلى التخلص منها، بل قد يكونون مستعدين للنضال والتضحية في سبيل الخلاص من ذلك القيد الذي كان حلماً!! وهذا هو أكبر الأسباب التي أسهمت في تفكيك (الاتحاد السوفياتي) اليوم، وهو نفسه الذي يقسم الحزب الواحد إلى قسمين، وهو نفسه الذي يؤدي إلى الطلاق بين الزوجين...

إن المحافظة على الحرية تعني في بعض الأحيان المزيد من التوحد المجدي المنتج، كما أن المحافظة على الوحدة قد تستلزم المزيد من تطوير أطر الوحدة؛ لتكون أكثر مرونة، أي: لتكون قيودها أقل ثقلاً...

والذي يحصل لدينا الآن هو عدم إدراك هذه المفارقات بين الوحدة والحرية، ولذا فإننا كثيراً ما نظل هاجعين في أحلام اليقظة على أنغام أهازيج الوحدة، فإذا ما تحققت تحققاً يجعلها قيداً لا تحريراً من القيود وجدتنا عدنا إلى الثورة على حداء متطلبات الحرية!!. والذي نشاهده اليوم في عالمنا الإسلامي هو رفع شعارات الوحدة دون وعي بعقابيلها ومضاعفاتها؛ وقيودها كما نجد في الوقت ذاته صعوبات بالغة في تحقيق الوحدة نظراً لعدم إدراك حقيقة منافعها وفرص تحقيق الوجود التي توفرها!!. إن مما ينافي الموضوعية حقاً أن نسعى إلى حرية تنطلق من كل القيود، حتى قيد الوحدة، كما أن مما ينافيها أن نسعى إلى وحدة كلها قيود!!. والوعي الدقيق بطبيعتيهما هو الذي يقيم التوازن الدقيق بينهما. ويجعلنا نحسن توظيف كل منهما في تحقيق وجودنا وتدعميه كما يجعلنا نتحامى مضاعفات تمادي كل منهما خارج حدودها الفاعلة.

(ج) ما بين المسار والطاقة:

العلم والعمل، والإرادة والقدرة، والمسار والطاقة مترادفات لمعان واحدة. وما منا إلّا وقد أعطي إرادة وقدرة، وإن كانت درجة اشتدادهما تختلف من شخص إلى آخر. ومن البدهي أن إرادتنا تتوجه إلى الشيء، ثم تتبعها القدرة؛ فالإرادة أولاً، أو كما يقولون: العلم سابق للعمل. وبين العلم والعمل علاقات متنوعة، تارة تقتضي الاستتباع، وتارة تكون علاقات تأثير متبادل، إيجابي وسلبي؛ ولا بد لجهدنا أن يوزع بينهما توزيعاً متوازناً ولا بد أن ندرك طبيعة كل منهما؛ حتى لا نقع في الأوهام، وتغمرنا مشاعر اليأس والإحباط نتيجة التصورات الخاطئة!.

إن المسار الذي أكرمنا الله ــ تعالى ــ به من خلال نعمة الوحي ينتمي إلى عالم المطلق، عالم الحقيقة الخارج عن تأثير دوائر الزمان والمكان، ومن هنا يأتي ثباته وخلوده. أما تنفيذ ذلك المنهج على الوجه الأكمل فإنه يتوقف على طاقات المكلفين، وظروف التطبيق، وإدراكهم للمنهج إلخ...

ومن هنا فإن هناك مفارقة قديمة بين النظرية والتطبيق، وهذه المفارقة تتسع، وتضيق من شخص إلى آخر. ولعل عدم وضوح هذه النقطة في أذهاننا هو الذي أوجد أدب التشكي من الزمان، وهو الذي جعل كثيراً من الخيرين الصالحين يظن

نفسه بعيداً عن الإسلام إلى حد اليأس، وجعلهم يصورون الالتزام بالإسلام التزاماً يعجز عنه أكثر البشر! وهذا انحراف في التصور للتكليف الذي بني، ويبنى على الوسع والطاقة. وقد عصم الله ـ تعالى ـ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من الخروج على المنهج، وأمدهم بطاقات خاصة، ليُروا الناس إمكانات تحقيق المنهج كاملاً. وكلما تمكن الواحد منا من ردم الهوة الفاصلة بين المنهج والواقع كان أقرب إلى هدي الأنبياء، وأقرب إلى عالم الحقيقة. وهذا المنهج مع وضوح ثوابته وأطره العامة يحتاج لتنزيله على الواقع إلى فقه عميق له، كما يتطلب ذلك فقهاً عميقاً للواقع أيضاً. إن الثوابت في أي منهج تلقي الضوء على المتحركات، كما أن المتحركات تلقي الضوء على الثوابت، أي: إن كل واحد منهما يجد كيفه في الآخر. وفقه الواقع وفقه المتحركات والثوابت في المنهج الرباني، وعلاقة كل أولئك مع بعضه بعضاً يحتاج إلى اجتهاد مستمر يبذل فيه أقصى الجهد من أهل الكفاءة والأهلية؛ حتى نظل دائماً متشبثين بالمنهج، وحتى تظل طاقاتنا موظفة في المسار الصحيح.

الخلل الذي يجعلنا غير موضوعيين في هذه القضية هو اتجاه كثيرين منا على المستوى الفردي والجماعي إلى رسم (المسار) والتنظير له، وهم يثيرون من الافتراضات والإشكالات الكثير الكثير، ويطرحون حلولاً لمشاكل متوهمة، كما يتخيلون حلولاً غير قابلة للتطبيق لمشكلات قائمة؛ وهم في الجانب السلوكي بعيدون جداً عن المنهج الذي ينظِّرون له، ويجتهدون فيه، كما أنهم بعيدون عن الواقع الذي يتحدثون عن إصلاحه!!. ولست أزعم أن عملهم غير ذي فائدة لكنني أرى ذلك حياداً عن الموضوعية التي نسعى إليها. فإذا كان هؤلاء لا ينتفعون بشيء مما يتحدثون عنه، فلمن ينظِّرون، ولمن يفصلون إذن أثواب الهدى والفضيلة، وواقعهم شاهد على عكس ما يقولون؟!. ثم إن الرسم في الفراغ من شأنه إثارة الإشكالات، وقلب الثوابت إلى متحولات والمتحولات إلى ثوابت، وبث روح التطرف والنرجسية في آن واحد؛ ذلك لأن شفافية خاصة يكتسبها الباحثون في قضايا الأمة إذا ما هم مزجوا العلم والعمل، وشعروا بحرقة الوالدة! وحين تكون المفارقة يكون الحرمان منها.

وفي مقابل ذلك نجد آخرين من المسلمين الطيبين يعتقدون أن في كل حركة بركة وأن المهم هو العمل، كما يعتقدون أن التنظير والتفكير بضاعة الهاربين من ثقل التكاليف، وما يقولونه هو كلام في كلام! وهذا أيضاً خروج عن الموضوعية؛ فليس كل حركة بركة؛ فالقعود في الفتنة ـ مثلاً ـ خير من الحركة، والقعود عن الحركة خير من تحركات خاطئة لا ترتكز على شيء من الفكر والاجتهاد، وربما ترتب عليها من الضرر أكثر مما يترتب على الجرائم الكبرى!! ثم إن العمل بدون تحسس مستمر للمسار الذي يوظَّف فيه معرض للانحراف المزمن، كما أنه معرض لمشكلات كثيرة لا يحلها إلّا الاجتهاد. . .

وهناك منافاة أخرى للموضوعية تتمثل في استمداد آليات رسم المنهج من غير مكامنها؛ فنلجأ في ذلك إلى أحد عباد الله الصالحين؛ ليضع لنا خطة لإصلاح أمة؛ كما أننا نعمل عكس هذا حين نلجأ إلى الفكر لنستمد منه طاقات العمل، ومقارعة الشهوات!!.

إن هذا وذاك خروج من الموضوعية؛ فمن النماذج الراقية الحية نستمد طاقات العمل التنفيذي، ومن الفكر البصير المستنير ملامح الطريق ومعالمه.

(د) ما بين الشكل والمضمون:

لا شكل من غير مضمون، ولا مضمون بدون شكل، فالشكل مهما جردناه هو رمز لشيء مهما كان. ولا يمكن أن نتعرف على المضامين إلّا من خلال الأشكال. والمضامين التي لا تتراءى في شيء من المحسوسات يسهل تجاهلها وتأويلها وإلغاؤها! إن كلاً منهما يجد كيفه في الآخر، ويستمد شيئاً من قيمته منه، وقد ثارت معارك في النقد الأدبي حول هذه القضية، واختلف النقاد في منبع القيمة الفنية للنص أهي من الشكل، أم من المضمون أم منهما معاً، والراجح الأخير.

وما دام الشكل والمضمون شريكين متلازمين فإن من طبيعة الشركاء البغي والحيف، ولا ريب أن بعض ما نلابسه يُطلب فيه الشكل، كما أن البعض الآخر يطلب فيه المضمون، وذلك بحسب الهدف من حيازته واستخدامه، وبحسب النسق الذي نسلكه فيه، فمن النصوص التي تساوق فيها الشكل والمضمون في جمعية خلّابة قول الله ـ جل وعلا ـ :

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾[1].

ومن النصوص التي أكّدت المضمون الحديث الشريف: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم». ومن النصوص التي أشارت إلى الشكل قوله ـ ﷺ: «إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة بين الناس»[2].

ومن خلال استعراضنا لمواقفنا في الحياة نجد أن الميل إلى المضمون هو الغالب، وكأن الشكل يمثل في أكثر الأحيان إضافة غير أساسية للمضمون، بل إن هناك من النصوص ما يهون من قيمة الشكل، ويزري به، كما قال ـ سبحانه ـ في المنافقين:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[3].

وكينونة الإنسان لا تكمن في اللحم والعظم، كما لا تكمن في الأشياء التي يملكها، وهي مضامين مستقرة في أعماق (اللاشعور)، ولذا فإن من البدهي أن نولي المضمون، وليس الشكل جل اهتمامنا، وأظن أن هذا ليس موضع نزاع عند العقلاء إذا ما ابتعدوا عن نداء الأهواء والشهوات. لكن الذي حدث في حياة الناس اليوم هو الجنوح إلى جانب الشكل على حساب المضمون بصورة فجة، وكان ذلك خروجاً صارخاً على الموضوعية التي ترفض التحيز على غير أساس.

ولعل السبب في هذه الظاهرة يكمن في أن العلاقة بين الشكل والمضمون كثيراً ما تكون علاقة (الطرد)، فلا يتسع أحدهما إلاَّ على حساب الآخر. ونظراً لأن القيم قد تراجعت على الصعيد العالمي تراجعا مخيفاً فإن النتيجة الطبيعية هي

---

(١) سورة النحل. وانظر أيضاً الآيتين: ٧، ٨.

(٢) سنن أبي داود: ٥٨/٤.

(٣) سورة المنافقون: الآية ٤.

اتساع الاعتماد على الأشكال في تحقيق الذات. ومظاهر الجنوح إلى الشكل كثيرة جداً، نذكر منها ما يلي:

(أ) هناك نزوع شديد إلى الاستهلاك، حتى صار الإنسان الاستهلاكي هو الرضيع الأبدي الذي لا يكف عن الصياح في طلب الرضاعة[1]. قد كانت العلاقة بيننا وبين الأشياء التي نمتلكها علاقة محافظة، ورعاية، لأننا بذلنا الكثير حتى حصلناعليها. أما الآن فقد قامت عداوة عميقة بيننا وبين كل ما امتلكناه، فنحن لا نتفاخر بطول مدة استخدامنا له، ولكن بسرعة استهلاكنا له! وبقطع النظر عن استنفاد موارد الطبيعة بالإضافة إلى تلويثها فإن هذا الاستهلاك الهائل يستخدم جزء كبير منه للمباهاة والمفاخرة، حيث صار محور إثبات الذات ما يمتلكه الإنسان، لا ما يتمتع به من خصائص وملكات، كما أن جزءاً منه يستخدم للتعويض عن منابع السعادة الداخلية التي أصيبت بالجفاف، والتي لا يعيرها الإنسان المعاصر إلّا القليل من الاهتمام، وصارت حالة كثير من الناس أشبه بأحوال نزلاء السجون الذين يقاومون مشاعر الإحباط والعجز بالمزيد من الطعام والشراب! لكن هذا الاستهلاك الضخم لم يكن بدون ثمن، لقد كان الثمن غالياً، إذ إن ذلك كان ــ في كثير من الأحيان ــ على حساب كرامة الإنسان وعزته ودينه، وهذا كله سارع في تدهور القيم والأخلاق التي هي ماء الحياة ورواؤها!!.

(ب) تبدل جوهر العلاقات بين الأصدقاء، فقد كان يتمحور حول الانجذاب، وتبادل المحبة والتفاخر ببذل النفس والمال في سبيل مصلحة الصديق، وكانت الصداقة تلبي من جملة ما تلبيه حاجة الشعور بالجمعية، وطرد شبح الشذوذ والغربة والانغلاق.. أما اليوم فقد صارت الصداقات بين بعض الناس تتخذ وسيلة للتسلق الاجتماعي، وأحياناً لتزجية الوقت وطرد السأم، وتارة لتبادل المصالح والنفوذ الاجتماعي.. قد كانت الصداقات رصيداً مذخوراً للشدائد، وأصبحت الآن عبئاً ــ بكل ما تعنيه الكلمة ــ وحين تصبح العلاقات عبئاً فإنها تصبح شكلية و (رسمية)، وحينئذ فإنها تفقد خاصية الدفء والإسعاد!.

---

(١) انظر: الإنسان بين الجوهر والمظهر: ٤٦.

وهذه الحالة راجعة أيضاً إلى تراجع القيم النبيلة التي تأبى تقديم المنافع على المشاعر وأدّى هذا إلى وضع خطير يتمثل في تهلهل شبكة العلاقات الاجتماعية التي تقوم بمهمة خطيرة في التقدم والحفاظ على تماسك المجتمع في أوقات الأزمات الطاحنة!!.

(ج) كان من نتائج الجنوح إلى الشكل على حساب المضمون زيادة الأعمال الإجرائية زيادة مخيفة وخادعة على حساب الحقائق والمضامين انسجاماً مع كل مفردات الحياة الأخرى، فقد يختلف متفاوضون حول مسألة خطيرة على مستوى التمثيل لكل طرف، وعلى مكان عقد الاجتماعات، وعلى شكل الطاولة هل هي مستديرة، أو مستطيلة، وأين يجلس كل واحد منهم، وهذا يوحي للعامة تكافؤ الأطراف المتباحثة، ووقوف كل منها عند حقوقه مهما تكن شكلية! لكن الفاجعة تكون حين يكتشف الناس أن مسودات القرارات كانت مكتوبة من قبل، وأن (التمنع) الذي كان يظهر إنما كان لذر الرماد في العيون!.

ويجري الآن على هذا النحو ما تعورف عليه من رسوم في العلاقات (الدبلوماسية) في الاستقبال والوداع إلخ... فحين يرى الإنسان صرامة تنفيذها، ودقته يظن أنه لا يوجد في هذا العالم دول كبرى وصغرى، ولا مستعمِرون ومقهورون، فالدول سواسية كأسنان المشط!!.

إن مثل هذا الاعتماد على الشكليات يؤدي إلى تهوين كل صعب وتسهيل كل معقد، كما يبني عقلية سطحية لا تقرأ ما بين السطور!!.

(د) اتجهت عناية الناس نتيجة سيادة المظهرية والشكلية نحو كل ما هو مادي محسوس والانصراف عن كل ما هو معنوي مكنون، فنظافة الثياب وكيها وحسن ترتيب المنزل وأثاثه قضايا أساسية في الحياة اليومية، لعلنا نلفت نظر الآخرين إلينا، بل قد يستخدم ذلك وسيلة لنيل ما قعدت بنا عن الوصول إليه إمكاناتنا واستعداداتنا!.

وفي مقابل ذلك صارالحديث عن طهارة القلب وصفاء الروح، ومعالجة المهلكات النفسية من ذميم الصفات حديثاً من أحاديث الماضي يدل على أن صاحبه لا يعيش عصره..

لقد أدّى الاهتمام العجيب بالشكل إلى وجود أجيال في وجوهها إشراق، وفي أرواحها ظلمات، في ثيابها أناقة، وقد انطوت النفوس على ما لا يحصى من العلل الخلقية!.

لقد غُم علينا وزن الأمور، ووضعها في نصابها، ونحن نحسب أننا على شيء! إن السعادة لا تنبع إلاّ من الداخل، وإن التماسها في غير ذلك مضيعة للعمر، إن قانونها هو (خذ)، وليس (هات) وإن الذين ينفقون من نفوسهم ودينهم على بطونهم لن يكونوا أبداً سعداء ولا محترمين!!.

* * *

٩ ــ الكيل بمكيالين:

تتيح مرونة الفواصل بين القضايا الإنسانية، وهشاشة الحدود التي تنتهي عندها الفضائل، لتبدأ أضدادها، واستخدام (اللغة الكيفية) في التعبير عن الظواهر الإنسانية، يتيح كل أولئك لنا أن نكيل بمكيالين ــ إذا نحن شئنا ذلك ــ فإذا كنا آخذين كلنا بمكيال، وإذا كنا معطين، فللعطاء مكيال آخر، ولذا جاء القرآن الكريم محذراً ومتوعداً لأولئك الذين تعودوا ممارسة مثل هذا العمل، حيث حكى لنا موعظة شعيب ــ عليه السلام ــ لقومه:

﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ﴾(١).

وقد قص علينا ذلك، ليعلمنا أن مسألة التطفيف في المكاييل قديمة، وأن معالجة الأنبياء لها أيضاً قديمة. وقال لنا القرآن الكريم نحواً مما قال شعيب لقوبه:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٥.

(٢) سورة المطففين.

إن الهوى وحب الأثرة هما الدافع الأكبر إلى التطفيف، لذلك كان الخوف من العواقب هو الرادع عن ذلك. وهذا التنوع في استخدام المكاييل والمعايير تساعد عليه ظروف متعددة، نود أن نسلط الضوء على ثلاثة نماذج منها بغية المزيد من الرشد في علاقاتنا وأحكامنا.

(أ) قضية النقد من القضايا الخطيرة والحساسة، فوجودها ضروري للبقاء ضمن المسار الصحيح، ولرفع وتيرة العمل كلما أصابنا الكلل والملل، ولمحاصرة الأخطاء التي تحدث أثناء التطبيق.

ومبدأ وجوب النقد، وضرورة استمراره نابع من أن الإنسان لا يستطيع القبض على كثير من الحقائق دفعة واحدة، وإنما على مراحل، وهذا مشاهد لا يحتاج إلى برهان، لكن المشكلة تكمن في تحسس الناس من النقد، وسبب هذا التحسس إما اعتقاد الكمال في النفس مع اعتقاد النقص في الناقد، وإما عدم القدرة على الفصل بين القضايا العلمية، والقضايا الشخصية، فصار الانتقاد ـ في حسِّ الكثيرين ـ لفكرة من الأفكار تجريحاً شخصياً لصاحب الفكرة! وهذا خطأ كبير نرتكبه في جانب الحقيقة، إذ إن الفكرة حين نسمح لها بالذيوع والانتشار فإنها سوف تؤثر في الآخرين إن إيجاباً، وإن سلباً، وحينئذ فمن حق المجتمع أن يقوِّم تلك الفكرة التقويم البنائي الصحيح بتشجيع النافع، والتحذير من الضار، وإبداء وجهات النظر فيما هو موضع اجتهاد، وأخذ ورد. وعلى المنتقَد ألا يقف كثيراً عند البحث عن نوايا الناقدين ودوافعهم، لأن هذا يتنافى مع الصدق في التعامل مع الحقائق، ومع الإخلاص للحق. نعم قد نثور حين يكون أسلوب النقد قاسياً، أو على الملأ، لكن إذا ما هدأت الخواطر وجب أن نتأمل فيما قيل لنا، وهل هو صحيح أو غير صحيح؟.

ونتيجة للربط في أذهان الكثيرين بين القضايا العلمية والشخصية صارت أضواء النقد لدينا توجه باستمرار نحو الخارج، فالشعوب لا تتحدث عن مثالبها، ولكن عن مثالب الآخرين والآخرون يقابلون ذلك بنظيره، والحزب أو الجماعة يوجه النقود للأحزاب الأخرى، ويدخر ألفاظ الثناء والتبجيل لمنهجه ورموزه وإنجازاته

التاريخية وهكذا حتى عم الداء الجميع، ووصل إلى الأفراد، ليصبح خلقاً عاماً، ولنلقن ذلك للأجيال القادمة!!.

وكانت المحصلة النهائية لذلك هي: المزيد من التوترات الاجتماعية والمزيد من حوار الصم، والمزيد من إفرازات المناعة ضد أي نقد يأتي من الخارج، فالنقد الذاتي معدوم والنقد الخارجي مرفوض!.

وهذا هو الكيل بمكيالين حقاً، فمعايير النقد تطبق على الآخرين أما نحن ففوق النقد! وأول الخاسرين من هذه الحالة هم المطففون أنفسهم حيث تتراكم الأخطاء، وتتفاقم، لتظهر في صورة انفجار بعد ذلك، وتصبح مادة دسمة مكشوفة لتناول الآخرين المتربصين خارج الوسط!.

(ب) عدم وضوح الحدود الفاصلة بين الإيجابيات والسلبيات في كثير من الأحيان يتيح للمطففين أن يكيلوا كيف شاؤوا، ذلك لأن الفارق بين الشجاعة والتهور قد لا يكون شديد الوضوح، وهو لذلك قد يكون موضع نزاع بحسب خلفية المقوِّم، والزاوية التي ينظر منها، ونحو من ذلك الفارق بين الفصاحة والفيهقة، والإسراف والكرم، والجدية والقسوة.. وتساعدنا اللغة في هذا مساعدة كبيرة، فإذا كان الخطيب ممن نحب قلنا إنه بلغ أرقى درجات البيان، وإذا كان من شيعة أخرى أمكننا أن نقول بسهولة: إنه يتفيهق، ويتفلسف، وما فائدة الكلام، ونسأل الله العمل...

ومثل هذا نفعله مع الشجاعة، فإذا قام أحد ممن نشايع، ونؤيد بعمل لقي فيه حتفه قلنا: هو شهيد، وقد أخذ بالعزيمة، وهكذا تكون الرجال.. وإذا قام به من لا نرتاح له أمكننا أن نقول: عاطفي متهور، لا يقدِّر عواقب الأمور، ألقى بنفسه إلى التهلكة!!. إن إصدار الأحكام يحتاج إلى كثير من التريث والبصيرة والتجرد، حتى لا نقع ضحية لسوء التقدير، وحتى نقوم لله بالقسط. وهنا تحمد الأمة عاقبة معرفتها بالضوابط الشرعية المختلفة، وصبرها على الحوار المثمر الدؤوب، وتمتعها بنعمة التجانس الثقافي والقيمي!.

(ج) من الكيل بمكيالين ما يمكن أن نسميه بـ (فن التبرير)[1]، هذا الفن الذي تتقنه الأمم العاجزة المهزومة **إتقاناً** عجيباً، فكل انتكاساتنا الحضارية لها ما يسوغها، فقد كانت التحديات فوق الطاقة، أو كان التآمر فوق الوسع، وكل أخطائنا القاتلة التي استمرت قروناً دون إصلاح كانت عن اجتهاد، فنحن أبداً بين الأجر والأجرين!.

ولو أننا اتخذنا التماس الأعذار قاعدة عامة نسير عليها في التعامل مع أنفسنا، ومع الآخرين لهان الخطب وقلنا: إننا نتمتع بفضيلة العدل، ونسوي بيننا وبين غيرنا في الظلم، لكن الآلية الثقافية التي دفعت إلى تسريغ كل ما نفعله لا يمكن إلَّا أن تأخذ أبعادها كاملة، وذلك لا يكون إلَّا بتفنيد كل عذر يعتذر به عن الخصوم، وحينئذ فالخطأ غير المقصود هو أمر بيت بليل، وطبخ على نار هادئة، وما قصر فيه الخصم نتيجة ضعف إمكاناته كان كسلاً وتقاعساً، والفتن والخلافات التي تقع عند الآخرين ليست عن اجتهاد ـ كما هو الشأن عندنا ـ وإنما هي بلاء وعذاب صبَّه الله ـ تعالى ـ عليهم لسوء مقاصدهم وأعمالهم.. وهكذا تنقلب الممكنات عندنا إلى مستحيلات عند غيرنا والمستحيلات إلى ممكنات!! وهذه العلة قديمة جداً، فمن المعروف أن المجتمع حين يبدأ بالتراجع على صعيد من الصعد يكون تراجعه عاماً كالسفينة حين تغوص في الماء، أو تغير اتجاهها فإن الجميع سيغوصون معها، ويتجهون باتجاهها، وحين ينخفض مستوى القاعدة فإن ذلك سوف ينعكس قطعاً على القمة والدولة بشكل من الأشكال، لكن الناس تعودوا الفرار من هذه الحقيقة على نحو ما يُروى عن جماعة أنهم قالوا لعلي ـ رضي الله عنه ـ: إنك لا تسير فينا سيرة الشيخين أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ؟! فقال: نعم الشيخان كانا أميرين على أمثالي، وأنا أمير على أمثالكم!! فعلَّمهم كيف يكيلون بمكيال واحد. ويُروى أن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال لابنه يزيد: كيف ستسير في الناس بعدي؟ فقال: بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر!!.

---

(١) المقصود: التسويغ، وكلمة (برر) بمعنى سوغ محدثة، ولكن سيرورة الكلمة على الألسنة شفعت في استعمالها.

قال معاوية: «لقد حاولت أن أسير فيهم بسيرة عثمان فلم أستطع». لكن الناس يريدون من غيرهم الكمال، ويتسامحون به مع أنفسهم!.

والغريب أن كثيراً منا يتضايق من قادة المستعمرين إذا هم قاموا بخدمة بلادهم، ويتضايقون من قادتهم إذا هم قصروا في خدمتهم، وكأن الآخرين ليس لهم أمان وطنية، وليس لهم شعوب تطالبهم بالعمل من أجل مصالحها! إننا إذا بقينا على هذه الحال فلن نستطيع أن ننصف أحداً، ولا أن ننتصف من أنفسنا!.

* * *

١٠ ــ الخضوع لسلطة الجماهير:

تقدير الناس للمواقف والأحداث يختلف تبعاً لاختلافهم في أشياء كثيرة، وحين يكون نصيب المرء من الخبرة التاريخية والثقافية العامة ضئيلاً فإنه يكون ميالاً إلى الانقياد نحو العاطفة، والغوغائية، والاستسلام لردود الأفعال، وصفات أخرى سلبية كثيرة.. لكن لأن الظواهر الاجتماعية تعتمد في سيرورتها وشدتها على (الكم)، لا الكيف فإن لمواقف عامة الناس وآرائهم سلطان مؤثر في البيئة الاجتماعية بصورة عامة، ولهم ضغوطهم الملموسة على الخاصة من القادة والحكام والمثقفين. ويبدو أن الناس حين تجتمع أعداد وفيرة منهم على رأي أو موقف يتولد من ذلك الإجماع قوة إقناعية متبادلة بينهم، أي: يتحقق ما يسميه المناطقة بـ(الدور)، فتصفيق (س) لفكرة سمعها هو عينه الذي يمنح الشرعية والقناعة والقبول لتصفيق (ص)، ويفعل نحواً من ذلك تصفيق (ص) في (س)، وهكذا.. وقد كان الإعلام النازي مدركاً لهذا من الجماهير، ومن ثم فإن (هتلر) كان يأمر بجمع الأعداد الهائلة من الألمان حين يريد إلقاء خطاب مهم! وخلفاء (هتلر) في هذا ما زالوا ملء السهل والجبل!.

وقد علَّمنا القرآن الكريم هذه القضية منذ زمنٍ بعيدٍ حيث قال ــ سبحانه ــ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم

مِّن جِنَّةٍ﴾(١).

فالمناقشات والمناظرات العلنية تجعل الذين يتراجعون القول من الطرفين خاضعين بصورة ما للحاضرين، وتوجهاتهم ومواقفهم، ومن ثم فإن القرآن الكريم يعظ الكفار أولاً وكل من يريد استجلاء الحقيقة ثانياً أن يتفكروا فرادى، أو في أضيق دائرة من الناس.

وعلاقة العامة بما يحيط بهم هشة، وسطحية، ومضطربة، وذلك لعدم امتلاكهم قاعدة جيدة من المعلومات حول الأحداث والأوضاع، ولاسيما الطارئة منها، ولعدم امتلاكهم منهجاً واضحاً في التفكير، ولضعف خبرتهم التاريخية، ولذا فإن التقلب والتحول من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار من سمات تفكير الجماهير! وبما أن الجماهير (كم) يفقد التجانس الجيد، والتماسك الحسن فإنها تكون مرتعاً خصباً للشائعات التي تنطلق من هنا وهناك، وهذا يزيد الطين بلة! إن أكبر مشكلة يواجهها قادة الرأي والفكر في تعاملهم مع الجماهير هي أن الفواصل التي تفصل بينهم متدرجة، فهناك العامة السذج، وهناك العامة المتنورون، وهناك أنصاف المثقفين، وهناك المثقفون المتخصصون تخصصاً مغلقاً، وهناك الصفوة الطامحة إلى تأييد الجماهير في انتخابات أو غيرها، وهناك الجماهير الممولة لمؤسسات يشرف عليها المثقفون.. هذا التنوع يجعل الصفوة المالكين للقدرة على التفكير السليم واقعين تحت تأثير الجماهير بصورة من الصور مهما حاولوا الفكاك من ذلك!.

فقد واجه أهل البيت ـ مثلاً ـ على مدى صراعهم مع الحكام مشكلة الجماهير التي تحبهم، وتدفعها عواطفها إلى مساعدتهم من لدن علي ـ رضي الله عنه ـ، فأهل الكوفة خذلوه، وخذلوا ابنيه من بعده الحسن والحسين، وترك أهل المدينة محمد بن عبد الله بن حسن وأخاه إبراهيم بن عبد الله في أحرج ساعات

(١) سورة سبأ: الآية ٤٦.

المواجهة مع العباسيين، وحصل نحو من هذا لزيد بن علي في خروجه على هشام بن عبد الملك، وفي معارك عبد الله بن الزبير مع الحجاج بن يوسف[1]. إن الجماهير تستدرج الخاصة حتى إذا جد الجد كان على الخاصة أن يدبروا حلاً..

وعدم الإحساس المرهف بطبيعة الجمهور التي أشرنا إليها هو الذي يجعل الخاصة يعتمدون عليه، ويطلبون النصرة منه، والذي يناصرك ويؤازرك لا بد أن يكون له رأي في التخطيط، وبعض العوام عنده من الحزم وقوة الشخصية ما يمكنه من السيطرة على بعض الخاصة، والأمثلة في هذا تفوت الحصر..

إن مهمة المبصرين هي التبصير، لا سيما في أوقات الفتن حيث يكون العلماء الفاقهون وحدهم هم المستشرفين لنتائجها في لحظات إقبالها على حد قول الحماسي:

تبين أعقاب الأمور إذا مضت ... وتقبل أشباهاً عليك صدورها

وقول الآخر:

لَوَانَّ صدور الأمر يبدون للفتى ... كأعقابه لم تلفه يتندَّم

لكن المشكلة الكبرى هي ندرة هذا الطراز الرفيع في المجتمعات، مما يجعل العامة ومن هم على شاكلتهم من الخاصة يغمرون بارتجاليتهم كل صوت راشد، وتصبح مقالة علي ـ رضي الله عنه ـ (ولكن لا رأي لمن لا يطاع) لا زمة تتردد على أفواه أهل الخبرة النابهين!!.

من صور الخضوع للجماهير ما نراه اليوم عند من يخطب مرتجلاً حيث يسمع تكبير المستمعين، أو تصفيقهم، فيبدأ بترديد ما أثار إعجابهم إرضاء لهم وانتزاعاً لمزيد إعجابهم، مع أن ذلك قد يكون غير ذي شأن في حسه وفكره، فقد صار بعض الخطباء أشبه بالمطربين..

ومن مظاهر الخضوع لسلطان الجماهير عدم انتقاد البدع المنتشرة في طول

---

(١) انظر: تفصيل ذلك في (حركة النفس الزكية).

بلاد المسلمين وعرضها فالمخالفات تتم أمام بصر بعض أهل العلم وسمعهم، وخوفاً من ألسنة العامة التي لا ترى في كثير من البدع ما يضر يسكت أولئك العلماء، بل يصيرون إلى إحسان الظن بفاعلها، وتأويل تصرفات المبتدعة والتماس الأعذار لهم، مع أن العامة حين يرون العالم العامل يكونون معه أشبه بالطفل في حجر أمه!.

الصحوة الإسلامية التي كانت مفاجأة لأوساط كثيرة ما زالت تقوم على الشباب، والشباب بشكل عام يشكلون نسباً عالية من المجتمعات الإسلامية، هؤلاء الشباب يرون الظلم والجور والمساومة على الحقوق والأوطان ومعاداة الدين وأهلَه، فلا يستطيعون ـ بحكم براءتهم وضعف خبرتهم ـ فهم أسباب ذلك، أو آلية تكونه، وطرق الخلاص منه، مما يدفعهم دفعاً إلى الثورة على الأوضاع القائمة، وتقديم أرواحهم في سبيل الخلاص، ويغذي مشاعر هؤلاء الشباب المخلصين رجالات ناضجون تغلي في عروقهم دماء الشباب، وأمزجتهم لا تبتعد كثيراً عن أمزجتهم، فيمنحونهم الغطاء الشرعي والمنطقي، ووهم الخبرة بالماضي والحاضر، فيزيدون بذلك النار اشتعالاً.. وإلى هذا الحد تظل الأمور مألوفة، لكن الذي يحدث بعد ذلك هو أن كثيراً ممن يبصر الأمور على حقيقتها يسير في ركب الشباب، ويتابعهم ويفتش عن الأسباب والمسوغات لتصرفاتهم وأعمالهم، وذلك خشية أن يحرق الشباب أوراقه بانصرافهم عنه، أو رغبة في أن تظل النعال تخفق أمامه، ووراءه، لأن الشباب وجد الرجل الذي يَفهمه، لا الذي يُفهمه!.

هذا الأمر من الأدواء الخطيرة التي أصبنا بها اليوم، حتى إنه ليحق لنا أن نقول إن النفاق للحكام هو النفاق الجلي الواضح، أما النفاق للشباب والعامة فهو النفاق الخفي..

وهذا مع تقديرنا بأن بعض المجاملة للعامة إنما يتم نتيجة ضعف الخبرة، أو رغبة في احتواء الشباب حتى لا يفلت زمام الأمور.. لكن دوام ذلك وانتشاره سيكون وخيم العواقب!.

ولا بد من القول إن أي جهد يبذل في توعية الناس وتثقيفهم من قبل الخاصة لا بد أن يعود على الخاصة أنفسهم بالنفع حيث إن كثيراً من شغب العامة سوف

ينتهي، كما أن الحوار الدائم مع الشباب والصبر عليهم مع النصح سوف ينقل إليهم حكمة الشيوخ وتجاربهم...

* * *

١١ ـ سوء التعامل مع الألفاظ:

اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لكل ما تخضع له الظواهر الاجتماعية، وهي تمر في كل أطوارها بعين المراحل التي يمر بها الكائن الحي. وكثيراً ما يُظن أن الطفل وحده هو الذي يجاهد للسيطرة على اللغة الأم السائدة في مجتمعه، لكن الصحيح أننا في صراع دائم مع اللغة بغية متابعة ما يستجد من ألفاظها، وبغية متابعة تنوع المعاني نتيجة تنوع السياقات التي توظف فيها... ونظن في كثير من الأحيان أن معرفة عدد كبير من المفردات سوف يحل لنا إشكالات الاستخدام والفهم، لكن الذي ثبت أن هذا غير صحيح؛ لأن (المعنى المعجمي) لا يعطينا في كثير من الأحيان إلَّا معنى واحداً للكلمة على حين أن الناس يستخدمون الجملة الواحدة، ويريدون من ورائها معاني عدة؛ ليس المعنى المعجمي إلَّا واحداً منها؛ خذ مثلاً كلمة (صباح الخير)؛ فالمعجم يفيد أنها كلمة تحية نقولها وقت الصباح، لكن استخدامنا الفعلي يتنوع بتنوع المواقف، والظروف المحيطة بالمتكلم والسامع معاً؛ فالأم حين تقول هذه الكلمة لطفلها الرضيع لا تريد أكثر من التعبير عن الابتهاج باستيقاظه من نومه، ومدير المصنع الذي وقف على باب مصنعه ينتظر عاملاً تأخر، يقولها بنبرة خاصة، ويريد منها معنى ثانياً وهكذا... ولذا فمن المألوف أن يقول المرء لمحدثه: لم أفهم ماذا تعني، أو يقول: كلامك غير واضح، مع أن جميع مفرداته واضحة الدلالة.

والمعنى المعجمي نفسه لا يظل ثابتاً، فقد يحدث أن يتغير المعنى وتنفك العلاقة بينه، وبين اللفظ ولكن ذلك لا يكون في يوم واحد، ولا على ألسنة جميع الناس، كما أن التجديد اللغوي يتم في البداية عن طريق استخدام فرد، أو أفراد، ويظل ذلك الاستخدام في مرحلة من الغموض والإبهام إلى أن يلقى القبول من

الجماعة اللغوية، فيصبح جزءاً من النظام اللغوي، أو يوأد في مهده[1]. وأخيراً فإن الكيـان اللغوي كيـان مبدع؛ فنحن نستخـدم في كثير من الأحيـان أساليب لم نسبق إليها، وقد يفهم عنا السامعون ما نريد، وقد لا يفهمون، وقـد ننسجم فيها مـع روح اللغة، وقد لا ننسجم.

كـل هذه المـلابسات جعلت إمكـانات التـلاعب بالألفـاظ، واتخاذهـا وسيلة للتضليل بدل أن تكون وسيلة للإبانة والتوضيح واسعة جداً، وأدى ذلك إلى نزاعات وخصـومـات كثيـرة؛ بـل ربمـا قـامت فـرق ومـذاهب تنحـو نحـواً خـاصـاً في فهم النصوص، وتحمل الألفاظ من المعاني ما تأباه طاقـاتها المعتـرف بها عنـد جماهيـر اللاغين بها!!. ويمكن أن نستخلص من كل هذا أن اللغة تعد مرتعاً خصباً للخروج عن الموضوعية من خلال تحريف الدلالة، أو تجاهل ظروف النص التي قيـل فيها، وغير ذلك...

ولو أننا نظرنا في كتب التفسير لوقفنا على مئات الأقوال التي تشير إلى تعسف أصحابها وخروجهم عن الموضـوعية في تفسيـر النص القرآني، والـذهاب بـه بعيداً عن أسباب نزوله، وعن أوضاع المخاطبين به، وعن النصوص الأخرى التي تتحدث عن الموضوع نفسه! ولا بأس أن نورد هنا بعض الأمثلة التي تجلو هذا المعنى حتى نتبين مدى خطورة الموضوع، وكثرة المزالق فيه.

في قوله ــ سبحانه ــ:
﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ﴾[2].

روي عن بعضهم أنـه قال: إنمـا قالت: قـرة عين لي، ولـك لا. ثم قـالت: تقتلوه! أي: أنهـا وقفت على (لا). ولا ريب في أن هذا خـطأ صارخ، واللغـة تـرد هـذا الفهم، وهذا الـوقف؛ لأن الواجب كـان (تقتلونه)، كمـا أن قراءة ابن مسعـود

---

(١) انظر الجوانب الدلالية في نقد الشعر: ص ١٥٥، ودور الكلمة في اللغة: ص ٣٥.
(٢) سورة القصص: الآية ٩.

جاءت على الفهم الصحيح حيث قرأ: (وقالت امرأة فرعون. لا تقتلوه قرة عين لي ولك) على التقديم والتأخير[1].

وفي قوله ــ سبحانه ــ:

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾[2].

ذهب بعضهم إلى أن المراد باليقين هو معرفة الله ــ تعالى ــ، وخلصوا من ذلك إلى إسقاط التكاليف عن العبد إذا وصل إلى المعرفة[3]!!.

وهذا الفهم لم يكن معروفاً في المتقدمين، وهو مخالف لما عليه عمل النبي ﷺ وأصحابه، وما كان الله ليعلق التكاليف الشرعية بما يخيل للناس، ويتراءى لهم! وقبل هذا وذاك فإن في هذا التفسير اتهاماً للنبي وأصحابه أنهم لم يعرفوا الله تعالى؛ مع أنهم كانوا على الغاية من الالتزام بالتكاليف والعبودية لله عز وجل!.

وإذا أردت أن تقف على قمة الاستخفاف بكل الأعراف اللغوية فما عليك إلّا أن تقرأ شيئاً من تفاسير الروافض؛ لتعلم أن هؤلاء القوم قد أداروا ظهورهم لكل الدلالات اللغوية المعترف بها جرياً وراء أقاصيص مكذوبة لفقوها تلفيقاً من أجل خدمة مذهبهم العجيب الغريب؛ ففي قوله ــ سبحانه ــ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[4].

نرى ملا محسن الكاشي يحمل مهمة التبليغ لدين رب العالمين على تعليم النبي ﷺ الناس إمامة علي وولايته، ويروي لنا قصة طويلة لا يبالي في آخرها بزيادة كلمة (في علي): بلغ ما أنزل إليك في علي إلخ...

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٥٤.

(٢) سورة الحجر.

(٣) فتاوى ابن تيمية: ١٠/ ٦٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦٧.

ويحمل عتاب الله لنبيه ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ الآيات على عثمان؛ فعثمان ــ رضي الله عنه ــ هو الذي عبس[1]. وهناك المئات من الأمثلة التي تعج بها كتب الإمامية والتي تدل على الاستخفاف باللغة، وبعقول الناس معاً!!.

ولم يذهب الشيعة وحدهم بالقدرة على تزوير معاني الألفاظ، بل شاركهم في ذلك أقوام من أهل الأهواء والشطحات؛ وفي ثنايا التفسير الإشاري الكثير من ذلك! ومن النماذج المعبرة عن ذلك ما نقل عن بعضهم أنه قال في قوله ــ تعالى ــ : ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾[2].

إن (لمع) فعل ماض بمعنى: (أضاء)، و(المحسنين) مفعول به!! ونقل عن آخر أنه قال في قوله ــ تعالى ــ : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: معناها: (من ذلّ): من الذل، (ذي) إشارة إلى النفس، (يشف): من الشفاء، (ع): أمر من الوعي[3]. وهذا من الإلحاد في كلام الله!!.

وما دام السيوطي قد نقل عن بعض من سماهم (علماء) أنه قال: لكل آية ستون ألف فهم[4]!! فليقل من شاء ما شاء، ولن تبلغ العدة مئة، ولا ستين؛ ولا حول ولا قوة إلّا بالله!!. لم أرد من وراء هذه النقول القليلة إلّا الإشارة إلى شيء واحد هو قدرة العقل الإنساني على ابتداع المعاني الكثيرة إذا ما هو أدار ظهره لدلالات الألفاظ، وتجاهل سياقاتها، وما منحتها إياه البيئة الاجتماعية من المعاني المحددة!.

واليوم نعاني مشكلات كثيرة من وراء عدم الاستخدام الصحيح للغة، ومن

---

(١) التفسير والمفسرون: ٢/١٦٧، ١٦٩.

(٢) سورة العنكبوت.

(٣) السابق: ٢/٣٧٧.

(٤) الإتقان: ٢/١٨٥.

وراء الفهم المبتسر المتعجل لكلام الآخرين. فما هي التدابير التي تمكننا من التخفيف من غلواء هذه الظاهرة يا ترى؟

لا بد من القول: إننا سنظل عاجزين عن إدراك ما يقوله محدثونا بشكل جيد، حتى لو أخبرناهم بحقيقة ما فهمناه؛ لأن ظلال المعاني تختلف من شخص إلى آخر تبعاً لعوامل عدة؛ ومن ثم فلا بد من القناعة بما يؤدي إلى الفهم العام مع الحرص على الدقة بقدر الإمكان. ومما يؤسف له في هذا المقام أن الضعف اللغوي صار عاماً اليوم، وأن القدرة على استيعاب محددات اللغة قد تراجعت لدى الكثيرين، كما أن الشفافية التي نحتاجها لإدراك ظروف النص، ومرامي المتحدث هي الأخرى قد أصابتها الخدوش؛ وهذا كله سوف يسهم في تعقيد المشكلة القائمة، وسوف يزيد من التوترات على الصعيد الاجتماعي!!.

إن من الموضوعية أن نحدث نوعاً من الانسجام والتناغم بين الألفاظ التي نستخدمها، وبين الموضوع الذي نتحدث عنه؛ فإذا كانت الأفكار التي نعبر عنها دقيقة فمن واجبنا نحو سامعينا ألا نبالغ في الإيجاز؛ حتى لا نحوجهم إلى طلب تفسير ما نقول، أو نترك الواحد منهم يفسره كيف شاء، والتفاوت الثقافي بين الناس يجعل تفسير النص متفاوتاً؛ مما يجعل تحميل كلامنا ما لم يحتمل أمراً وارداً! ومن الموضوعية كذلك ألا نحدث الناس عن قضايا لا يملكون أية خلفية عنها، إلّا إذا عزمنا على تبسيط تلك القضايا إلى حد كبير، لكن التبسيط قد يعد إخلالاً بالموضوعية من جانب آخر؛ ومن ثم فمن الخير لنا وللناس أن ندرك خلفيتهم الثقافية بشكل جيد قبل أن نحاول إيصال شيء إليهم؛ وهذا من مراعاة المقام التي قد تكون هي البلاغة كلها في بعض المواقف!.

ومن الموضوعية أيضاً أن نستخدم الألفاظ المحددة التي لا تحتمل إلّا معنى واحداً إذا كنا نتحدث عن قضايا علمية، أو عقدية أو فقهية؛ لأن العبارات الشاعرة الحمالة لوجوه متعددة من الفهم سوف تحدث عند السامعين بلبلة قطعاً، لأن المرء حين يكون حديثه متمحوراً حول القواعد والقوانين الدقيقة فإنه يثير في أذهان سامعيه كثيراً من التساؤلات، والتفريعات؛ فإذا لم يكن دقيقاً في تعبيره فربما يضرهم أكثر مما ينفعهم!.

وإذا ما كنا نتحدث في مجالات حضارية أو أدبية فإن المطلوب حينئذ هو عبارات، وأساليب موحية، لا تسجن المعنى، ولا تكون تقريرية مباشرة؛ حتى لا نحرمها من إمكانات الإضافة والفهم المفتوح المتنوع!.

هذا بعض ما يجب علينا إذا كنا متحدثين أو كاتبين، فإذا كنا مستمعين أو قارئين فإن من واجباتنا الموضوعية ـ في تصوري ـ ما يلي:

(أ) إن مما يجب علينا إدراكه أن الفكرة حين تتخلق تكون خلاصة تفاعل ضخم لكل الظروف والأحوال والآلام والآمال التي وعتها البيئة الاجتماعية لصاحب الفكرة مضافاً إليها التجربة الشخصية لصاحب النص؛ ومن هنا فإن الإحاطة الحسنة بالخلفية الثقافية والتاريخية لبيئة الفكرة مهمة لاستيعاب الفكرة، وفهمها على الوجه الصحيح؛ ولما كان القرآن الكريم موجهاً أساساً إلى العرب، وكذلك الحديث الشريف كان الصحابة ـ رضوان عليهم ـ أحسن الناس فهماً لهما، ومن ثم وجب اعتماد فهمهم لهما معياراً من معايير التعامل معهما. وإني أعتقد أننا لم نبذل جهداً يذكر في رصد النتائج التي ترتبت على هجرة النصوص، والفهوم لها من الجزيرة العربية إلى الأقطار الإسلامية المفتوحة حيث تلقفها الألوف من ذوي الثقافات المختلفة الذين لا يملكون إلّا النزر القليل من المعلومات عن البيئة العربية. إن تعلم الإنسان لقواعد لغة ما، وحفظه لعدد من مفرداتها لا يمنحه أهلية الاجتهاد في قضايا أهلها الكبرى، إن مثل هذا الإنسان لم يمس من اللغة إلّا بناها السطحية، أما البنى العميقة، والتي يمكننا الإحساس بها، وفهمها من إدراك (معنى المعنى)، وتمنحنا شفافية خاصة لقراءة ما لم ينطق به النص ـ فهذه لا يتم الوقوف عليها إلّا من خلال الغور في أعماق الثقافة الخاصة بالأمة صاحبة اللغة. ومن هنا فإن من غير الموضوعية أن نسارع إلى تحليل النصوص والأفكار قبل أن نتيقن أننا قبضنا على أدوات فهمها بشكل كاف...

(ب) من غير الموضوعية أن نقبس نصاً واحداً في قضية فيها نصوص كثيرة، أو أن نأخذ قولاً واحداً من أقوال واحد من العلماء، ثم نقيم له محاكمة بناء عليه دون النظر إلى الأقوال الأخرى الواردة عنه؛ إذ إن الإنسان النامي يظل في حالة مستمرة من التعديل والتحوير لأحكامه وإطلاقاته العامة؛ ومن ثم فإن من الظلم له

وللحقيقة أن يؤخذ بقول قديم له، ويترك ما انتهى إليه من الرأي. وقد جرى في تاريخنا المديد، وفي واقعنا المعاصر الكثير من عمليات الانتقاء للأقوال والنصوص على ما يناسب هوى المنتقي الذي يهمه تشويه صورة الخصوم والأنداد بعرض جزء من أفكارهم وآرائهم، وإسدال الستار على الباقي، وهذا مناف لأبسط درجات الالتزام الخلقي والعلمي!.

ومن ثم فإن أرقى أنواع التفسير للنص تفسيره بنص آخر لصاحبه، حيث تدعو الظروف المختلفة إلى تنوع التعبير بين الإيجاز والإطناب، والوضوح والغموض، وحيث نقف من خلال المقارنة الداخلية غير المنظورة على الخيوط التي تربط بين مجموع تلك النصوص؛ ونتمكن بالتالي من استنتاج حكم منها بدل ضرب بعضها ببعض! وجرى في تاريخنا ـ ويجري في واقعنا ـ أمر مشابه لذلك، وهو بتر النصوص عن سياقها وأسباب ورودها على مذهب الاستنباط من «ويل للمصلين»! إن هناك فارقاً دقيقاً بين نص سيق لإثبات قضية إثباتاً مبدئياً، وآخر سيق لرد شبهة، أو دفع عداوة باغ، وبين نص قيل على سبيل التهديد والردع، ونص عام يقرر قضايا كلية. وما لم ندرك ذلك على الوجه المطلوب سنكون بعيدين عن بلوغ قاع النص، وإبراز مكنوناته! وفي المقابل فإنه كثيراً ما تطلق أقوال صحيحة مليحة في حد ذاتها؛ لكن توظيفها يجعلها من الباطل الصريح على نحو ما فعل الخوارج حين قالوا: «لا حكم إلاَّ لله» وقد أصاب من قال لهم: (كلمة حق أريد بها باطل)! والتطرف في ديننا مذموم ونحو منه تخويف الآمنين وترويع الأبرياء، لكن حين يطلق على المتمسك بدينه لفظ (متطرف) وعلى المدافع عن أرضه وعرضه لفظ (إرهابي) تفقد الكمات معناها، بل تؤدي عكس ما وضعت له!.

وختاماً فإن عنايتنا سوف تتجه إلى الاستخدام اللغوي أداء وفهماً إذا ما علمنا أن اللغة ليست أداة للتوصيل فحسب، وإنما هي أداة لتشكيل الفكر أيضاً، إنها شكل ومضمون في آن واحد، وهي مع هذا وذاك مرآة حقيقية للفكر والوجدان والتكوين التراثي والتاريخي والرمزي للأمة!!.

* * *

١٢ ــ اضطراب ردود الأفعال:

إن العوامل والظروف التي تشكل قناعاتنا، وتحدد اتجاهاتنا نحو كل ما يحيط بنا تختلف اختلافاً كبيراً؛ فقد تكون عوامل وراثية تلقاها الفرد عن أصوله، كأمراض السكر وضغط الدم وتصلب الشرايين ونسب الذكاء وقوة الإدراك إلخ . . .

وقد تكون مكتسبة، كما نلاحظه في تفاوت التنشئة الأسرية والاجتماعية التي يخضع لها الفرد، والتي تجعله يتأثر قيمها وعاداتها وأعرافها ومشكلاتها، وكما في تفاوت الثقافة والتعلم والاكتساب إلخ . . . كل ذلك يؤثر بنسب متفاوتة، وغير ثابتة في مركبنا العقلي ومزاجنا النفسي، وهذا من جهته يجعل ردَّ أفعالنا على كل المثيرات التي نتعرض لها مختلفاً في نوعه وشدته.

ومن خلال الاحتكاك الشديد والتأثير المتبادل بين أفراد بيئة معينة ينشأ ما يمكن أن نسميه بالمزاج العام لتلك البيئة، والذي يعني نقطة التعادل، أو الخلاصة المركزة لكل أوجه التشابه والتخالف بين أفراد تلك البيئة؛ حيث يكون كل واحد فاعلاً ومنفعلاً بصورة ما، وبنسبة ما. وحين يتضح المزاج العام لفرد، أو أمة فإن ذلك يعني إتاحة إمكانات هائلة لفرض التأثير في آرائه، وذلك عن طريق تحسس ردود أفعاله تجاه ما يقال له؛ ومن ثم نشأ فن يمكن أن نسميه (بهندسة ردود الأفعال)، حيث يلجأ الخصم إلى طرق خفية وحيل بارعة مبتكرة يؤثر من خلالها في خصمه دون أن يثير ردود أفعاله، ودون جعله يحمل سلاحه دفاعاً عن وجوده، إنه الصيد بشباك من حرير ــ كما يقولون ــ! وقد طبق المستعمرون ــ وما زالوا ــ ألواناً عديدة من ذلك على الضعفاء والمقهورين، وذلك من خلال الدراسات النفسية والاجتماعية المكثفة التي يقومون بها عادة لاستكشاف نوعية ردود أفعال أولئك والمسارات التي يمكن أن تسلكها! إن العدو العالم يستعمرك، ويجعلك تتمنى عودته إذا خرج، **ولكن الأمر يكون مختلفاً حين تبتلي بعدو لا يأبه لردود أفعالك، وهو يصيدك بقسوة وغلظة!! هكذا يمكن أن نصنف العدو الواحد إلى صنفين متغايرين نتيجة تحييد أحدهما لردود أفعالنا!**

ولا بد من أن يقال هنا: إن ظاهرة ردود الأفعال هي ظاهرة صحية، حيث يتم

من خلال الفعل ورد الفعل حفظ التوازن العام لحياتنا العقلية والنفسية والاجتماعية؛ وإن عدم وجودها قد يعني انهياراً كاملاً لأشياء كثيرة، كما أن الابتلاء الذي خلق الله ـ تعالى ـ الخلق له لا يكون تاماً إلّا من خلال وجودها، ومن ثم كانت سنة التدافع التي تعصم الأرض من الفساد:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[1].

إن محصلة اصطدام الآراء المتطرفة بآراء متطرفة أخرى ستكون في النهاية ولادة مزاج معتدل بين أبوين غير شرعيين؛ فالعقل البشري يضرب الآراء المتطرفة ببعضها بعضاً مع إضافة شيء من إكسيره الخاص إليها؛ ليحصل من ذلك على توافيق جديدة منحوتة منها جميعاً!.

والآن بعد هذه المقدمة الضافية كيف تحدث «اللاموضوعية» في ردود الأفعال؟

من الواضح أن هناك مساحات ثابتة في عالم العقائد والأفكار والأعراف انقطع حولها الجدل منذ زمن بعيد عن أهلها ـ سواء أكان ذلك موضوعياً أم خاطئاً ـ، وهناك إلى جانبها مساحات أخرى ثابتة كذلك؛ ولكن تخالفها مخالفة تامة في الاتجاه والركائز، وبين هذه وتلك مناطق فراغ، أو (مياه دولية) محايدة يحق للمرء أن يتحرك فيها بحرية شبه مطلقة دون أن يثير حفيظة أحد وحين يتعدى (الحدث) القولي أو الفعلي تلك المنطقة إلى الجهة المقابلة المضادة فإن ذلك سيعني إفسادها بسبب دخول عنصر مضاد لطبيعتها، ويكون الرد غالباً ليس الوقوف عند حدود المنطقة المملوكة، وإنما الاندفاع إلى الجهة المقابلة تماماً لاختراقها على مبدأ «الهجوم خير وسيلة للدفاع»؛ فحين يتهم شخص آخر بالسرقة فإن الرد لا يكون بالقول: إن هذا الكلام غير صحيح، أو فيه مبالغة، أو سوء فهم ـ لأن هذ الرد موضع شك لضعفه ـ وإنما يكون باتهام المتهِم أنه كذاب، وأنه هو السارق، وأنه من أسرة

(١) سورة البقرة.

عرفت باللصوصية[1] إلخ . . . لا شك أن هذا ليس مطرداً، ولكنه غالب. وهذا يحتم علينا أن ندرس (جغرافية الفكرة)، والدوافع التي أنتجتها؛ حيث نتمكن بذلك من معرفة قدر الانطلاق الحر فيها، وقدر رد الفعل الذي أذكاها.

وتاريخنا، وواقعنا مليء بالمواقف التي أنتجت أقوالاً متطرفة؛ لأنها انبعثت أصلاً في سياق رد الفعل على قول متطرف؛ فحين تجاوز بغض الشيعة لمعاوية ـ رضي الله عنه ـ وتشهيرهم به كل حد اندفع بعض أهل السنة إلى تسميته بخال المؤمنين[2]. وحين قتل بعض الشيعة خليفة الشيخ عدي بن مسافر انطلق بعض أتباعه من الأكراد إلى الاعتقاد في يزيد بن معاوية أنه إمام من أئمة المسلمين، وبعضهم بالغ، فجعله نبياً[3].

وحين زادت جرعة العصبية للعرب في زمان بني أمية، وظهرت بعض التصرفات التي تحتقر الموالي[4] كان الرد هو قيام الحركات الشعوبية ضد العرب، كما كان رد الموالي بالاتجاه إلى العلم لإثبات الذات في مواجهة النسب!.

وحين فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني الهجري، وما بعده، وغلب على كثير من الناس البذخ والترف كان رد الفعل هو اتجاه بعض المسلمين إلى الزهد في الدنيا، والانقطاع عن كثير من أسباب العيش إلى حد التفريط!.

---

(١) أشار القرآن الكريم إلى طبيعة التجاوز في ردود الأفعال حين قال ـ سبحانه ـ : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٨].

وورد نحو ذلك في الحديث الشريف حيث أخرج البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه! قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟! قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». انظر: الفتح: ٤٠٣/١. وهذا مع أن الشاتم الأول قد يكون ذكر ما هو موجود في المشتوم ولكن المشتوم سيرد بالشتم سواء أكان ما يقوله في أبي الشاتم حقاً أو باطلاً!.

(٢) المنتقى: ص ٢٤٥.

(٣) السابق: ص ٢٧٩.

(٤) انظر تفصيل ذلك في التاريخ الإسلامي العام: ص ٣٢٨.

وفي العصر الحديث نشطت الطورانية في تركيا، فكان الرد استيقاظ القومية العربية! ولما حكم كثير من العلماء بإغلاق باب الاجتهاد قام أناس كثيرون بممارسته دون أهلية حتى تصدى له بعض الفتيان!!.

وفي صحوتنا المباركة زادت في بعض الأوساط الدعوة إلى الحكمة والتعقل في معالجة الأخطاء عن حدها، حتى صارت تعني المسايرة والسكون؛ فأدى ذلك إلى لجوء بعض الشباب إلى العنف وحمل السلاح!

وعلى المستوى النظري فمن المألوف في ماضينا وواقعنا أنه كلما زاد الضغط على جانب (النقل) في المنهج، أدى ذلك إلى وجود تيارات عقلية تدير ظهرها للنصوص مهما كانت درجة صحتها وكانت قطعية دلالتها!!.

وإذا نظرنا في كل الأمثلة السابقة وجدنا أن ردود الأفعال فيها خارجة عن الموضوعية، ومجاوزة لحدود القصد والاعتدال؛ ومن ثم فإنه يمكن أن نقول: إننا حين نكف عن الفعل فسنقع ضحية لردود الفعل، وحين لا نقرأ محيط الفكرة وخلفيتها فإننا قد نساق خلف تطرفها دون أن ندري!

إن الناموس العام لردود الأفعال هو عدم الاتزان، وعدم الموضوعية، وإن الكسالى والعاجزين والفوضويين سيظلون باستمرار على هامش الفعل، وفي بؤرة ردود الفعل تتقاذفهم أمواجه العاتية!!.

إن فقه دين الله والتمسك بالمنهج الرباني في السراء والضراء والمنشط والمكره، وفقه الواقع المعاش حصون منيعة تعصم من الانسياق وراء ردود الأفعال.

ولعلنا بهذه الصور التي سقناها عن بعض المظاهر التي تنافي الموضوعية نكون قد جلينا الرؤية حول كثير من نواحي الخلل في حياتنا الفكرية مع الاعتراف بالقصور والتقصير؛ ونسأل الله إحساناً وتوفيقاً.

• • •

الفصل السادس

في

كيفيّة بناء التّفكير الموضوعيّ

«كيفَ نبْني المَوضُوعِيَّةَ»؟

تحدَّثنا فيما مضى عن الأطر النظرية للموضوعية، وعن تجلياتها في أفكار علماء المسلمين، ومواقفهم، كما تقدَّم الحديث عن بعض الصور والمواقف التي تنافي الموضوعية. والآن فإن التسلسل المنطقي يقضي بأن نتساءل عن كيفية بناء التفكير الموضوعي؟.

في البداية لا بد من القول: إن كثيراً مما سنقوله هنا ربما سبقت الإشارة إليه في ثنايا هذا البحث، فإذا كرَّرنا القول فيه فمن باب تجميعه في موضع واحد، حتى يسهل استيعابه.

ومن البدهي أن استجابة المسلم للإطار النظري، وبعده عن الثغرات التي ظهرت نتيجة التفاعل مع ذلك الإطار في معايشتنا اليومية سيكون التزاماً بالموضوعية، لكن واقع الأمر ـ على ما شاهدنا ـ لم يكن على ما نحب دائماً، ولن يكون، لأن القدرة على أن نكون موضوعيين لا تتخلق في يوم وليلة، وإذا ما وجدت فهي متفاوتة بين الناس إلى حد بعيد، ولأن امتلاكنا سيكون غير ممكن إلاَّ عبر صراع طويل دائم مع الجهل والهوى ومع الإحاطة المطلوبة بالمتغيرات المطردة في جميع نواحي الحياة.

وانطلاقاً من هذا يمكن أن نذكر أهم ما يساعدنا في بناء تفكير موضوعي على الصورة التالية:

١ ـ إن بداية الرقي في سلم الكمال لا تكون إلاَّ من خلال الشعور بأننا لسنا في آخر مراقيه، فالذين يشعرون أنهم موضوعيون لا يمكنهم أن يستفيدوا شيئاً من جميع ما قلناه، وهم ليسوا بحاجة إلى شيء منه! إن علينا أن ندرك أن

الموضوعية ليست درساً نحفظه، ولا هي شعارات، نرددها هنا وهناك، ولا هي نصائح نسمعها من هذا وذاك، كما أن علينا أن ندرك أن الذين يريدون بناء الحس الموضوعي لا يتحركون في فراغ، بل إن هناك من العقبات ما يعرقل كثيراً من مساعيهم!.

إن الموضوعية إرادة وقدرة، وعلم وعمل، فالإرداة تساعدنا في مقاومة الأهواء والشهوات التي يكون الانقياد لها ـ في أكثر الأمر ـ مضاداً للموضوعية. وإن القدرة تعني أشياء كثيرة، فهي تنم عن أننا ندرك حدود وجودنا المعنوي بشكل جيد، كما أنها تعني إدراكنا لما ينبغي أن يثبت في هذا الوجود، فلا يتحول أبداً، وإدراكنا لما ينبغي أن يتغير فلا يثبت أبداً، وليس هذا من الأمور اليسيرة كما قد يتوهم! وهي تعني بالإضافة إلى ذلك اعتقادنا بأن تفاعل الوجود المعنوي والمادي يسفر باستمرار عن حقائق جديدة، واستيعابنا لهذه الحقائق متفاوت، وهذا يعني أن قبضتنا على كثير من الحقائق متجددة، وأن القبض على الحقيقة النهائية ـ في أشياء كثيرة ـ لم يتهيأ لنا، ولا لغيرنا، وربما تنقضي هذه الحياة، وتظل حقائق كثيرة خارج إدراكنا، بل إحساسنا!.

ويترتب على هذا امتلاك فضيلة المرونة تجاه ما عرفناه، وما لم نعرفه، إذ قد تجدُّ معطيات جديدة تقلب كثيراً من معارفنا السابقة رأساً على عقب! وتعني القدرة أيضاً على تحديد علاقاتنا بشكل مقبول مع ما حولنا من أفكار وأشخاص وأحداث، لأن ذلك سوف يعني تعاملاً موضوعياً، كما يعني انتظام ردود أفعالنا بشكل موضوعي كذلك.

٢ ـ حتى نكون موضوعيين فلا بد لنا من التعمق في الدراسات التاريخية والنفسية والاجتماعية حيث تكشف لنا الدراسات التاريخية عن سنن الله تعالى في قيام الحضارات والدول وأفولها، وتلك السنن ثابتة ثبات القوانين الفلكية والفيزيائية، ومن خلال معرفة تلك السنن نميز المقدمات من النتائج، ونرى سلسلة التغيرات المتصلة بينها، وحينئذ نكون قد دخلنا من الباب الأمامي المشرع لفهم الواقع الذي لن نكون موضوعيين في التعامل معه ما لم نتمكن من معرفة مختلف العناصر الفاعلة فيه.

أما الدراسات النفسية فإنها ضرورية لمعرفة الظروف الشخصية لأصحاب الأفكار من حيث المكونات العامة والدوافع وردود الأفعال والأمزجة الخاصة، ولكل ذلك آثاره الحادة في الموضوعية والتحيز. وفي النفس البشرية من السنن نحو مما هو موجود في الكون، ففي كل منهما آيات لله ــ جل وعلا ــ :

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

والدراسات الاجتماعية تطلعنا على السنن التي تحكم اجتماع الإنسان مع الإنسان، وما يحكم الظواهر الاجتماعية في نشأتها وتطورها؛ ومعرفتها تجنبنا ألواناً كثيرة من الاعتساف الذي نقع فيه من جراء تعاملنا مع تلك الظواهر، وتجعل أحكامنا أقرب إلى المنطق والواقع. ولنضرب لذلك مثلاً واحداً نجلو به ما نريد. إن عدم إدراك كثير من الباحثين القدماء أن اللغة ظاهرة اجتماعية جعلهم يذهبون مذاهب بعيدة عن الصواب في نشأة اللغة الإنسانية الأولى، حيث ذهب بعضهم إلى أنها نشأت نتيجة الاصطلاح والمواضعة، وكذلك ما ذهب إليه كثير منهم من ادعاء حكمة العرب في وضع الألفاظ بإزاء المعاني على وجه من التوافق والانسجام بديع! ولو أن قائلي ذلك كانوا يعلمون أن اللغة ظاهرة اجتماعية، ويعلمون في الوقت نفسه آلية تكون الظواهر الاجتماعية، وتطورها لما قالوا ما قالوه؛ ولأدركوا أن اللغة لا توضع نتيجة مؤتمرات ومشاورات، وأنها تتطور، وتنمو على ألسنة اللاغين بها دون أدنى وعي منهم!!.

٣ ـ الانفتاح عامل أساسي في تكوين العقل الموضوعي، حيث إن الوعي بالحجم الحقيقي لقضية ما يتوقف في كثير من الأحيان على المقارنة والموازنة بينها وبين غيرها، ليتخذ بشأنها القرار المناسب. وإن كثيراً من الناس يكوِّنون لأنفسهم عالماً خاصاً يظنون أنه العالم كله، ويُنضجون في عالمهم ذاك الكثير من المعايير الخاصة المتولدة من بيئة نفسية وفكرية ذات نمط واحد، وهذا الصنف من الناس يقع ضحية للتحيز والتعميم والتسرع في الأحكام، وعدم القدرة على رؤية

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

متوازنة، وتكون قدرتهم على التكيف ــ في العادة ــ محدودة، مما يجعل حياتهم عبارة عن صراع مستمر مع ما حولهم!!.

٤ ــ لا موضوعية بدون تضحية؛ ففي المجتمعات المريضة تكثر الإنجازات غير المشروعة، وتوضع في الظل حقائق وإنجازات رائعة نتيجة الهوى أولاً، والجهل ثانياً؛ وحينئذ فإن على الذي يريد أن يكون موضوعياً أن يضحي بأشياء كثيرة؛ فإذا كان المجتمع مصاباً بمرض تمجيد الذات فإن الموضوعيين سوف يعرضون أنفسهم لإعراض المجتمع عنهم، واتهامهم في حالات الأزمات بالتآمر مع العدو، وبث الدعاية له!!.

وحين يكون النفاق وسيلة للوصول فإن الذين يعرفون قيمة الكلمة وأمانتها سيكونون في المؤخرة دائماً. ويكاد يكوِّن هذا المرض قانوناً عاماً: امدح أكثر تنل أكثر! وعلى الذين يحترمون أنفسهم وعقولهم أن يدفعوا الثمن! إن التضحية بأشياء كثيرة هي الضريبة التي لا بد من أن ندفعها إذا ما رفضنا السير في ركاب أهل الشهوات والقيم الزائفة.

٥ ــ إذا كان الانغلاق يعني (اللاموضوعية) فإن الحوار يعني الانفتاح الواعي على الآخرين، والحوار ظاهرة اجتماعية؛ إذ هو من أفعال المشاركة التي لا يمكن للفرد أن يقوم بها؛ ولكن الخوف والشك يدفعان المرء في كثير من الأحيان إلى النأي عن هذه الظاهرة! ومع أن الحوار يتخذ في بعض تجلياته الأساليب الصامتة التي لا يمكن إيقافها، أو حصرها، إلاّ أن عند الإنسان قدرة على فرز المقولات التي تعطل تفاعله مع الآخرين!.

والحوار قد يعني شيئاً من التنازل عن بعض ما نعتقد أنه نهائي لا يقبل الجدل تنازلاً مؤقتاً، وقد علَّمنا القرآن الكريم أن هذا التنازل قد يكون في أكبر اليقينيات عند الفرد، وذلك في سبيل عدم قطع خيوط التواصل مع الآخرين، كما قال ــ سبحانه ــ:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى

ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾[1].

إن هذه الصيغة في تقرير الحال تدعو الخصوم إلى الأرضية المشتركة المحايدة التي تصلح لتبادل الرأي والنظر من غير أحكام مسبقة، وهذا كما يقول أحدنا لخصمه: أحدنا مخطىء؛ مع علم القائل بأن الحق معه، فهو لا يشك في ذلك، ولكنه لا يريد أن يترك الخصم دون إقناعه بما هو مقتنع به[2].

ويعود ضعف الحوار عندنا إلى مشكلتين: الأولى الاستخفاف بفائدة الحوار، والثانية الخوف من الحوار. أما الذين لا يدركون قيمة الحوار فهم كثر، وينطلقون من منطلقات مختلفة، منها: اعتقادهم أن الخلاف الذي بينهم وبين الآخرين لا يمكن أن يزول بالحوار؛ لأنه خلاف متجذر، أو هو في الأصول. ومنها أن الحوار مضيعة للوقت، وأن المطلوب العمل، وليس اجترار الأفكار. . .

وفي هذه المنطلقات غفلة عن حقيقتين هامتين:

الأولى: أن المطلوب من الحوار لا يشترط أن يكون توحيد الرأي دائماً، وإنما المطلوب هو شرح وجهة نظر الأطراف المختلفة لبعضها بعضاً، أي: أن يُري كل طرف الطرفَ الآخر ما لا يراه. وإذا ما أدّى الحوار إلى تضييق شقة الخلاف فإنه يكون قد أدّى كثيراً مما نطلب منه. ثم إن وحدة الرأي في كل صغيرة وكبيرة ـ لا سيما فيما هو مناط للاجتهاد ـ ليست ظاهرة صحية دائماً، فالتنوع المؤطر مطلوب كالوحدة.

الحقيقة الثانية: أن العمل الذي لا تسبقه رؤية ناضجة معرض للانحراف، كما أنه معرض للإصابة بأزمات واختناقات لا يخفف من غلوائها إلّا الفكر النير القادر على إيجاد بدائل وتوافيق جديدة، وهذا يسهم فيه الحوار بنصيب كبير.

---

(١) سورة سبأ.

(٢) انظر: الكشاف: ٣/٢٥٩، والظلال: ٥/٢٩٠٥. وقد ذكر ابن هشام أن (أو) في الآية للإبهام. وهذا يؤيد ما ذكرناه؛ فالمسلم لا يشك أنه على الحق والهدى، ولكنه يبهم الأمر حتى يوجد منطقة صالحة للأخذ والرد. انظر المغني: ص ٨٧.

أما الذين يخافون من الحوار فإنهم أيضاً غير موضوعيين، والأسباب التي دفعتهم إلى الاحجام هي التي كان ينبغي أن تدفعهم إلى الحوار، ذلك أن الذي لا يثق بما يحمل من أفكار ومنطلقات هو وحده الذي يخاف من محاورة الآخرين، فما منا إلَّا ويرغب في نشر أفكاره وتعميمها. . .

هذا الخوف قد يدفع إليه الاعتقاد بأن الأفكار التي نحملها أشبه ما تكون بالزهرة التي لا تطيق المس بالأيدي؛ لأن مصادرها عبارة عن إشراقات وإيحاءات ذاتية يصعب التعبير عنها! أو لأن أفكارنا تولدت من تجربة معقدة يصعب تفهمها من قبل الآخرين! وأذكر هنا أننا كنا نتحاور حول بعض المسائل الإجرائية في العمل الإسلامي، فقلت ننظر ماذا يقول علماء الشرع في هذا. فقال أحد الإخوة المحاورين: علماء الشرع لا يعرفون هذا!!!.

وقد يكون دافع الخوف عدم وجود الأدلة على تلك الأفكار؛ لأن صاحبها أخذها بالوراثة والتقليد. وقد يكون الدافع إلى الخوف خشية التغيير؛ حين يكون المرء قد بذل جهداً في الوصول إلى بعض الأفكار والحقائق، وهو يخشى أن يذهب بها الحوار، ويصبح بعدها في فراغ! إنه كمن يخشى أن يوقظه أحد وهو يسرح في حلم جميل!.

٦ ـ من العسير أن نكون موضوعيين إذا ما نحن أصغينا إلى كل ما هو شائع من أفكار وآراء وعادات، لأن كثيراً منه لا يكون شيوعه نتيجة جدارة ذاتية؛ فقد تمر الأمة بمراحل صعبة في تاريخها، وهذه المراحل تفرز عدداً كبيراً من المقولات المعبرة عن التأزم من جهة، والمعبرة عن التكيف، وربما التفلت من جهة أخرى. وتتعاقب الأجيال وهي تردد تلك المقولات التي قد تصبح أمثالاً سيارة دون أن تُعرف الأسباب والظروف التي أوجدتها. وهناك سلطان اسمه: سلطان القدم؛ حيث يميل أكثر الناس إلى منح كل قديم مكانة خاصة، كما أنهم ينظرون إلى الأفكار الجديدة كما ينظرون إلى الفتى الحَدَث الذي لم يبلغ مرحلة النضج! وهذه نظرة غير موضوعية، وقد جاء الإسلام لاجتثاثها من جذورها حين عاب على أولئك الذين يقبلون ما انحدر إليهم من آبائهم من عقائد وأفكار دون أدنى وزن لها، أو تمحيص، كما قال ـ سبحانه ـ :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾(١).

وقال ـ جل وعلا ـ :

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(٢).

وإذا علمنا أن كل قديم كان في يوم من الأيام حديثاً، وأن كل حديث سيصبح يوماً ما قديماً علمنا أن الرشد هو استخدام موازين الحق والعدل مع كل منهما تبعاً لما يقضي به المنهج الذي أكرمنا الله به.

ومما هو بادٍ للعيان أن الناس قادرون اليوم على الوقوف على كثير من أسرار الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والذي لم تمكن منه المعطيات العلمية والتقنية القديمة؛ كما أن جمع السنة النبوية وسهولة الوصول إليها، وتمحيص أحاديثها، وجمع أقوال السلف في مضامينها قد يمكن أهل الكفاءة الاجتهادية من الحركة في ساحات الاجتهاد والتجديد بسهولة ويسر. . .

ومن جهة أخرى فإننا قادرون اليوم ـ لو حزمنا أمرنا ـ على إبصار نتائج كثير من أعمال السابقين واجتهاداتهم، والحكم عليها بما لم يتهيأ للسابقين، وسيأتي أقوام يرون نتائج اجتهاداتنا فتكون دوائر الإبصار أوسع أمامهم، ومجالات الاعتبار أرحب؛ مما قد يجعلهم أكثر حكمة في كثير من المواطن!!

وإذا ما أجلنا النظر في تراثنا وجدنا الكثير الكثير من الأقوال والأفكار المنحرفة، أو الخاطئة فهل مرور القرون عليها يعطيها (تأشيرة دخول) إلى عقولنا وقلوبنا، ولو كانت مصادمة لنصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة؟ وفي مقابل ذلك هناك أقوال كثيرة لعلماء معاصرين، هي أقرب إلى روح الإسلام من أقوال سابقة.
إن استمرار عملية الاجتهاد ـ التي تعني التحام العقل بكل المعطيات التي يمتلكها

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة الزخرف.

مع النصوص والواقع المعاش في عملية تفاعلية نشطة ـ سيؤدي إلى غربلة نافعة لكل ما قيل، ويقال.

إن كثيراً ممن يعطون ولاءهم للقديم يستخفون بالجديد دون النظر في تفاصيل كل منهما إنما يفعلون ذلك؛ لأن مصالحهم ارتبطت بذلك القديم؛ فهم أعداء الجديد الذي قد يحمل تغييراً غير مواتٍ!! وفريق آخر من الناس يقدم القديم؛ لأنه عاجز عن استيعاب الجديد الذي سيتطلب جهداً.

وفريق ثالث يشم في القديم عطر الذكريات ودفء الماضي؛ فهو يلوذ به من باب الوفاء أي: ينظر إليه بعيون القلب، لا بعيون العقل!!.

وكل هذا مخالف للمنهج الإسلامي الصارم في هذه المسألة.

هذه بعض الأفكار التي تساعدنا على تنشيط حركة الفكر لدينا، وتجعل تفكيرنا أقرب إلى الموضوعية، كما تساعدنا على إيجاد مركب نفسي وعقلي يرى الأمور على ما هي عليه، ويتعامل معها كذلك.

• • •

الخاتمة

إن أملي يتعاظم في سيرورة تفكيرنا نحو العافية، ووجود النقد الذاتي ـ الذي مارسنا شيئاً منه في هذا الكتاب ـ أمارة العافية التي ننشدها، ولا تملك هذه الأمة خيارات كثيرة في تحديد مسارها وأهدافها؛ فالمسار مرسوم والأهداف مرسومة وآليات تحقيق ذلك واضحة في أذهان كثيرين منا، لكن لا بد من المراجعة المستمرة للوقوف على مدى انسجام أحوالنا وأوضاعنا وجهودنا مع كل ذلك.

وربما لاحظ القارىء الكريم بعض الأفكار الجديدة عليه، أو على البيئة التي يعيش فيها، أو على الثقافة التي ألفها؛ فإن من الطبيعي ألا يتفق القارىء معي في كل ما قلته، وهذه طبيعة بشرية؛ فنحن نتلقى الكتاب الذي ليس فيه شيء من الجديد بالبرود والعزوف؛ لأنه يفقد مبررات تأليفه وبيعه وشرائه، ونتلقى الكتاب الذي قد يحمل بعض الجديد بالشك والحذر والنقد والرد، وهذه هي المكافأة السخية التي يتلقاها المؤلف من القارىء، ومن ثم فإني سوف أكون مغتبطاً بكل نقد بنّاء يوجه إلى هذا الكتاب بغية مزيد من الرشد والنضج! . وإذا ما وقف القارىء على بعض الصور النقدية التي لا يرتاح لها لسبب من الأسباب فليوقن أني كتبت كثيراً من ذلك وقلبي ضد كتابته، لكن طلب العافية والغيرة على حالة هذه الأمة كانت الدافع إلى بعض العمل الجراحي المؤلم؛ عسى الله أن يعيننا على التغيير؛ فيغير لنا؛ وهو مولانا إنه نعم المولى، ونعم النصير؛ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين؛ وصلّى الله على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

• • •

فهرس مراجع البحث

[أ]

- الإتقان لجلال الدين السيوطي. القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي، ط. ثالثة ١٣٧٠هـ .
- الأدب المفرد للإمام البخاري. بيروت: عالم الكتب، ط. أولى ١٩٨٤م.
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط. أولى ١٣٥٦هـ .
- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د. أحمد محمد كنعان. سلسلة كتاب الأمة عام ١٤١١هـ .
- أسباب النزول للواحدي تحقيق السيد أحمد صقر. جدة: دار القبلة ط. ثانية ١٤٠٤هـ .
- أصول مذهب الإمام أحمد بن حنبل، د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٠هـ .
- الإعلام له تاريخه ومذاهبه، د. عبد اللطيف حمزة. بيروت: دار الفكر العربي.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم. مطبعة النهضة الجديدة. ١٣٨٨هـ .
- الإعلام والدعاية، د. محمد عبد القادر حاتم. بيروت: مكتبة لبنان.
- إغاثة اللهفان لابن القيم تحقيق محمد عفيفي. بيروت: المكتبة الإسلامية، ط. أولى ١٩٨٧م.
- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني. القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٢٧م.

ـ اغتيال العقل، د. برهان غليون. القاهرة: مكتبة مدبولي عام ١٩٩٠م.

ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ.

ـ الإنسان بين الجوهر والمظهر تأليف إريك فروم، ترجمة: سعد زهران. الكويت: سلسلة عالم المعرفة ١٤٠٩هـ.

ـ أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، د. يوسف القرضاوي. القاهرة: مكتبة وهبة، ط. أولى ١٤١١هـ.

[ب]

ـ الباعث الحثيث لابن كثير. أحمد شاكر. القاهرة: مكتبة التراث، ط. ثالثة ١٣٩٩هـ.

ـ البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي. بيروت: دار الفكر ط. ثانية ١٩٧٨م.

ـ البحث العلمي مناهجه وتقنياته، د. محمد زيان عمر. جدة: دار الشروق، ط. خامسة ١٤٠٧هـ.

ـ البداية والنهاية لابن كثير تحقيق د. محمد أبو ملحم وزملائه. بيروت: دار الكتب العلمية.

ـ البيان والتبيين للجاحظ. تحقيق: حسن السندوبي. القاهرة: مطبعة الاستقامة ١٣٦٦هـ.

[ت]

ـ التاريخ الإسلامي العام د. علي إبراهيم حسن. مكتبة النهضة المصرية.

ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. بيروت: دار الكتاب العربي.

ـ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر. القاهرة: دار التراث، ط. ثانية ١٣٩٣هـ.

ـ التصوف الإسلامي. د. زكي مبارك. القاهرة: مطبعة الرسالة ط. أولى ١٩٣٨م.

ـ التصوف معتقداً ومسلكاً. د. صابر طعيمة ط. أولى ١٤٠٥هـ.

- تفسير ابن كثير. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- تفسير النصوص في الفقه الإسلامي د. محمد أديب الصالح. بيروت: المكتب الإسلامي. ط. ثالثة ١٤٠٤هـ.
- التفسير والمفسرون د. محمد حسين الذهبي. القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط. ثانية ١٣٩٦هـ.
- التفكير علم وفن. تأليف هنري هازليت. ترجمة حامد العبد. مكتبة الأنجلو المصرية.
- التفكير العلمي. د. فؤاد زكريا. الكويت: سلسلة عالم المعرفة عام ١٩٧٨م.
- التفكير المستقيم والتفكير الأعوج تأليف: روبرت ثاولس. ترجمة حسن الكرمي. الكويت: سلسلة عالم المعرفة ١٣٩٩هـ.
- تنمية الإبداع والتفكير الإبداعي د. عايش زيتون. عمان: ط أولى ١٤٠٨هـ.

[ج]

- الجامعة والتدريس الجامعي. د. علي راشد. جدة: دار الشروق ط. أولى ١٤٠٨هـ.
- جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري. بيروت: دار المعرفة.
- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي. بيروت: دار المعرفة.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. بيروت: دار الكتاب العربي ط. ثانية ١٣٧٢هـ.
- جدلية الحرف العربي محمد عنبر. دمشق: دار الفكر ط. أولى ١٤٠٨هـ.
- الجوانب الدلالية في نقد الشعر. د. فايز الداية. حلب: دار الملّاح ط. أولى ١٩٧٨م.

[ح]

- الحافظ الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث د. محمود الطحان. بيروت: دار القرآن الكريم.
- حركة النفس الزكية. محمد العبدة. الكويت: دار الأرقم ط. ثانية ١٤٠٦هـ.

ـ حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني. بيروت: دار الكتاب العربي ط. خامسة عام ١٤٠٧هـ.

ـ الحيل في الشريعة الإسلامية تأليف: محمد عبد الوهاب بحيري. القاهرة: مطبعة السعادة ط. أولى ١٩٧٤م.

[د]

ـ دعوة إلى السنة د. عبد الله الرحيلي. دمشق: دار القلم. ط. أولى ١٤١٠هـ.

ـ دور الكلمة في اللغة تأليف: استيفن أولمان. ترجمة د. كمال بشر. مصر: مكتبة دار الشباب عام ١٩٨٧م.

[ذ]

ـ ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة مع شرحه لابن القيم. بيروت: دار الكتب العلمية ط. أولى ١٩٨٢م.

[ر]

ـ الرحيق المختوم للمباركفوري. جدة: دار القبلة ط. رابعة عام ١٤٠٨هـ.

ـ الرد على من أخلد إلى الأرض للسيوطي. بيروت: دار الكتب العلمية ط. أولى ١٤٠٣هـ.

ـ الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية. بيروت: دار المعرفة.

ـ الرسالة للإمام الشافعي. تحقيق الشيخ أحمد شاكر.

[س]

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة. للشيخ ناصر الدين الألباني. الكويت: الدار السلفية ط أولى ١٣٩٩هـ.

ـ سنن أبي داود. تحقيق محيي الدين عبد الحميد. بيروت: دار الفكر.

- سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- سنن النسائي تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. بيروت: دار البشائر الإسلامية ط. ثانية ١٤٠٦هـ.
- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي. أشرف على تحقيقه الشيخ شعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة ط. أولى ١٤٠١هـ.
- السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق مصطفى السقا وزملائه. بيروت: دار القلم.
- السيف اليماني في نحر الأصفهاني. وليد الأعظمي. مصر: المنصورة: دار الوفاء ط. أولى ١٤٠٨هـ.

[ش]

- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الدمشقي. تحقيق د. عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة ط. أولى ١٤٠٨هـ.
- شرح القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقا. تحقيق د. عبد الستار أبو غدة. بيروت: دار الغرب الإسلامي ط. أولى ١٤٠٤هـ.

[ص]

- صحيح البخاري. بيروت: عالم الكتب ط. خامسة عام ١٤٠٦هـ.
- صحيح مسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- صفوة التفاسير الشيخ محمد علي الصابوني. بيروت: ط. ثانية ١٤٠١هـ.

[ط]

- طبقات الشافعية الكبرى. تاج الدين السبكي. بيروت: دار المعرفة. ط. ثانية.

[ع]

- العَلَم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ. تأليف الشيخ صالح المقبلي اليمني. صنعاء: المكتبة اليمنية ط. ثانية ١٩٨٥م.

- العلم في منظوره الجديد تأليف: جورج ستانيسو وروبرت أغروس. ترجمة: د. كمال خلايلي. الكويت: سلسلة عالم المعرفة عام ١٤٠٩هـ.
- عون المعبود شرح سنن أبي داوود. تأليف محمد شمس الحق العظيم آبادي. المدينة المنورة: المكتبة السلفية ط. ثانية ١٩٦٩م.

[ف]

- الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية. الرباط: مكتبة المعارف.
- فتح الباري لابن حجر العسقلاني. القاهرة: المطبعة السلفية.
- فتح القدير للشوكاني. بيروت: دار المعرفة.
- الفقه الإسلامي وأدلته. د. وهبة الزحيلي. دمشق: دار الفكر ط. ثانية ١٤٠٥هـ.
- الفكر الاجتماعي د. محمد فاير عبد. الرياض: دار الفيصل الثقافية عام ١٤٠٦هـ.
- في ظلال القرآن لسيد قطب. بيروت: دار الشروق ط. ثامنة ١٣٩٩هـ.

[ق]

- القاضي والبينة د. عبد الحسيب يوسف. الكويت: دار المعلا. ط. أولى ١٤٠٧هـ.
- قبسات من الرسول. محمد قطب. الطبعة التاسعة عام ١٤٠٦هـ.
- قضية الألوهية بين الفلسفة والدين. عبد الكريم الخطيب. بيروت: دار المعرفة. ط. ثالثة ١٣٩٥هـ.
- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي. د. زغلول النجار ط. أولى ١٤٠٩هـ. ضمن سلسلة كتاب الأمة.
- قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام. بيروت: دار المعرفة.
- قواعد في علوم الحديث للتهانوي. تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. الرياض: عام ١٣٨٤هـ.

[ك]

- كبرى اليقينيات الكونية. د. محمد سعيد رمضان البوطي. دمشق: دار الفكر ط. ثانية ١٣٩٠هـ.

- الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشري. بيروت: دار المعرفة.

[ل]

- لواقح الأنوار للشعراني. القاهرة.

[م]

- مجلة دراسات عربية. العدد الثالث.
- مجلة عالم الفكر. العدد الأول من عام ١٩٨٩م.
- محاضرات في تاريخ العلوم. د. فؤاد سزكين. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٩هـ.
- المختصر الوجيز في علوم الحديث. د. محمد عجاج الخطيب. بيروت: مؤسسة الرسالة. ط. أولى ١٤٠٥هـ.
- مدارج السالكين لابن القيم. تحقيق محمد حامد الفقي. بيروت: دار الكتاب العربي ١٣٩٢هـ.
- المدخل إلى التاريخ الإسلامي. د. محمد فتحي عثمان. بيروت: دار النفائس ط. أولى ١٤٠٨هـ.
- مسند الإمام أحمد. بيروت: المكتب الإسلامي.
- مشكل الآثار للطحاوي. بيروت: دار صادر. مصور عن الطبعة الهندية.
- مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري. تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد. بيروت: دار الفكر ط. خامسة ١٩٧٩م.
- مقدمة ابن خلدون. تحقيق المستشرق الفرنسي كاترمير. بيروت: مكتبة لبنان ١٩٧٠م.
- مقاييس نقد متون السنة د. سفر الدميني. ط. أولى ١٩٨٤م.
- الملل والنحل للشهرستاني. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي. تحقيق: د. عبد الله التركي ود. علي محمد عمر. القاهرة: مكتبة الخانجي. ط. أولى ١٣٩٩هـ.

- مناهج البحث العلمي د. عبد الرحمن بدوي. الكويت: وكالة المطبوعات عام ١٩٧٧م.
- المنتقى من منهاج الاعتدال للحافظ الذهبي. تحقيق محب الدين الخطيب دمشق: دار البيان.
- المنطق د. جميل صليبا ط. ثانية عام ١٩٦٧م.
- المنطق الحديث ومناهج البحث. د. محمود قاسم. القاهرة: دار المعارف. ط. خامسة ١٩٦٧م.
- منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال. أحمد الصويان. الرياض: مكتبة دار الوطن ١٤١٠هـ.
- منهج النقد في علوم الحديث. د. نور الدين العتر. دمشق: دار الفكر.
- الموافقات للشاطبي. بيروت: دار المعرفة.
- الموسوعة العربية الميسرة. القاهرة: دار الشعب عام ١٩٦٥م.
- الموطأ للإمام مالك. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

[ن]

- نقض المنطق لابن تيمية. تحقيق محمد حامد الفقي. القاهرة: مكتبة السنة المحمدية.
- نكت الهميان في نكت العميان للصفدي. القاهرة: المكتبة التجارية ١٣٢٩هـ.
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير. تحقيق: د. محمود الطناجي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

[هـ]

- هدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر. بيروت: دار الفكر.

● ● ●

فهرس الأفكار والمقولات العامة

ـ جعل الله ـ جلَّ وعلا ـ الدنيا داراً للابتلاء فوفّر فيها كل شروط الابتلاء .

ـ إن الثروة الحقيقية لأية أمة لا تكمن في المال، وإنما في كمية الأفكار البنّاءة التي تخلِّصها من قيود الضرورات .

ـ لسان حال كثير من الناس عندنا يقول: «مشكلاتنا صنعها الجيل السابق، وسوف يحلّها الجيل اللاحق»!! .

ـ حين تأخذ أمة في التراجع، فإن مُثُلها تكفّ عن الفعل، وتنسحب المضامين من كثير من أنشطتها .

ـ إن النظم الاجتماعية، تمثّل خط الدفاع الأول عن المبادئ، فإذا ما هزلت أو انهارت، أخذ العطب يسري إلى المبادئ نفسها .

ـ إن السُّنَّة تجسِّد العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل .

ـ ما من حالة إلا يمكن إدخال شيء من التحسين عليها، بتكثير ما فيها من الخير، أو تقليل ما فيها من الشر .

ـ التفكير أشق عمل يقوم به الإنسان، لذلك لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة .

ـ لا تفكير بدون وجود مشكلات، ولو قدر للعالم أن يقبض على حلولٍ لجميع مشكلاته، لانتهىٰ إذن التفكير الجاد .

ـ إن أبرز صفات المفكر أنه يمتلك رؤية نقدية، ينقل من خلالها تناقضات مجتمعة إلى حسِّ الناس وأعصابهم .

ـ كانوا يقولون: العالِم من يعرف كل شيء عن شيء، وشيئاً عن كل شيء.

ـ إذا كنت تقرأ لتوفِّر على نفسك التفكير، فقد يكون من الخير لك أن توقف القراءة على نحو تام.

ـ إن القراءة لا تمدُّ العقل إلى بحور المعرفة، لكن التفكير هو الذي يجعل ما نقرؤه مُلْكاً لنا.

ـ إن تاريخ التقدُّم العلمي، ما هو إلا نوع من الجهاد ضد التفسيرات الخاطئة.

ـ إن المفكِّر الذي تسيطر عليه مقولة: (إما هذا وإما ذاك) لن يستطيع الاستمرار في التفكير، وغالباً ما يأخذ إجازة مفتوحة.

ـ إن الإنسان البدائي أقل صبراً على البحث والملاحظة، وأسرع إلى إطلاق الأحكام الكبيرة.

ـ ليس من العلم في شيء أن نولد نتائج يقينية من مقدمات ظنّية، أو أن نسوقها سَوْق القطعيات.

ـ لا يكون العلم علماً حتى يكون عالمياً.

ـ إن نقد الذات، سيظل مقياساً دقيقاً بالذات وبالزمان.

ـ حين تكون أواسط الأشياء ذات تغييرات متصلة، فإنه يصعب رسم حدود فاصلة بين أجزائها.

ـ زج العقل في غير دوائر عمله إرباك له، وحطٌّ من قدره.

ـ البعد عن الظنون أسهل من الناحية الفنيّة والموضوعية من البعد عن الأهواء.

ـ إن الإنسان حين يفقد انسجامه الذاتي، يخوض حرباً أهلية، هو ساحتها وأسلحتها ومحاربوها.

ـ ما كان لا يتأثر باختلاف الزمان والمكان، جاء في الشريعة مفصلاً، كما في العقائد والعبادات الشعائرية.

ـ حين جاء الإسلام كانت (الحقيقة) في الجزيرة موزعة على أرصدة الزعماء والأثرياء والأوثان والأشباح.

ـ حين يخفت صوت المنهج، أو تُشوَّه صورته، فإن المقاييس الذاتية تكون حينئذ هي البديل الجاهز.

ـ ليس النقد مختصاً ببيان العيوب والمثالب فحسب، وإنما هو بيان لمساحات الخير والجمال أيضاً.

ـ لم تستطع أوروبا أن تتقدم إلا بعد أن تحررت من قيود منطق أرسطو.

ـ الإنسان يتغير باستمرار، وهو خلال ذلك يتأرجح بين المراهقة والنضج والهداية العملية.

ـ أهل الحق يكتبون ما لهم، وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم!.

ـ الامتداد يأتي دائماً بما يخالف الاتجاه.

ـ حين تصطدم ثقافة بثقافة أخرى، فإن كلاً منهما تعزز من الأفكار والحرمات ما تدافع به عن وجودها.

ـ يظل (الواقع) محاطاً بالضرورات، على حين ينتمي (المثال) إلى عالم مطلق، هو عالم (ما ينبغي أن يكون).

ـ الاعتراف بالواقع شرط للنهوض به.

ـ إن لكل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً طبيعة تخصّه في ذاته، وفيما يعرض من أحواله.

ـ جعلُ الدين قسمين أصولاً وفروعاً، لم يكن معروفاً عند الصحابة والتابعين، وأدخله بعضهم إلى كتب أصول الفقه نقلاً عن المعتزلة.

ـ إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما.

ـ يُحتمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

ـ إن كثيراً من الحقائق يظل هلامياً، قابلاً لتشكيلات عديدة، وإن الذين يفسِّرونها هم الذين يقومون بتشكيلها.

ـ تمثِّل المبالغة حيال مسألة من المسائل نوعاً من التفلُّت من القيود التي تحكم تلك الحقيقة.

ـ ليس هناك شخص أو مذهب في أي علم من العلوم، انفرد بالصواب كله، كما أنه ليس هناك من مضى بالخطأ كله.

ـ إن من أكبر وظائف المسلم في هذه الحياة أن يُحق الحقَّ، ويُبطل الباطل، ولوعظم مناصروه والمستفيدون منه.

ـ تحتاج الموضوعية إلى نوع من الجهاد على مستوى الإرادة، وعلى مستوى القدرة، حتى لا نقع في التحيز والهوى.

ـ ظلَّت فترة (رأس القمة) تشكل النموذج الضاغط المهيمن فكرياً وشعورياً على كل المراحل والحالات التالية.

الالتزام انحياز إلى قطعيات، على حين أن التعصب انحياز إلى الظنيات، والاجتهاديات.

ـ الأشياء تتميز بأضداد معاً، وإن للشوهاء فضلاً على الحسناء.

ـ ما لم يتغير التركيب العقلي لدينا، فإن ظروف الحياة المتجددة سوف تولِّد أنواعاً جديدة من التعصُّب.

ـ الحضارة التي تنتزع الإعجاب، هي الحضارة التي يجتمع فيها ما تفرَّق في غيرها.

ـ إن الحضارة التي لا تستطيع إقامة التوازن بين جوانبها الروحية والمادية، لا تعمر طويلاً.

ـ إن الدراسات الإنسانية المبدعة، تظل بالنسبة للأمم بمثابة المخ، وتظل الدراسات التطبيقية بمثابة اليد، ولا غنى لها عن أي منهما.

ـ إن الأسباب الرئيسة للأمراض التي نعيشها ليست كثيرة، لكنها تسبب ما لا يحصى من الأمراض والعلل.

ـ حين تكون البيئة الثقافية فقيرة، فإن عقلية أبنائها تميل إلى التصلُّب في التعامل مع الأشياء والأحداث.

ـ إن الإنسان الذي يرى أنماطاً مختلفة يكون أقدر على إبداع الوسائل والاندفاع في ميادين الحضارة المختلفة.

ـ سيكون الحوار محدود الفائدة إذا جرى بين أشخاص (تَهَيْكَلَتْ) ثقافتهم على التقليد والنقل لأقوال زيد وعمرو.

ـ إذا كنا نرفض الحوار فإن رفضنا للنقد سيكون أشد.

ـ الذين يفكرون في اتجاه واحد، ينظرون إلى كل المشكلات الكبرى على أنها كتلة صلدة أحادية التركيب.

ـ إن كل ما نظنه ثابتاً تخترقه تحويلات داخلية، على قانون الفطرة من التدريج لا على قانون الطفرة.

ـ ما من ظاهرة إلا يمكن إحداث شيء من التغيير فيها عن طريق تغيير علاقات السيطرة، وتبديل وضعها واستثمار الإمكانات القائمة في تناقضاتها الذاتية.

ـ من الغلط تفسير أية ظاهرة اجتماعية بعامل واحد؛ لأن ذلك يعني تمزيق أعمال الإنسان الاجتماعي إلى وحدات منفصلة.

ـ النظر المتأمل يفضي إلى أنه ليس هناك شيء بسيط.

ـ يميل الناس إلى إدراك الخطأ في المواقف؛ لأن نقد المناهج شاق.

ـ في أوقات الأزمات يميل الناس إلى (التبسيط) ويكون تعقيد الصورة أمراً مكروهاً.

ـ إن تبسيط الأمور عدو لدود للملاحظة والتجريب والتخصص.

ـ إذا كان تعذيب الناس يُعد جريمة فإن تشكيل عقولهم علىٰ نحو خرافي هو جريمة أكبر.

ـ إن من المسلَّم به أن الوعي بالذات كثيراً ما يتوقف على الوعي بالآخر.

ـ إن نوعاً من العطالة والانفلاق قد يكون ضرورياً حين تتعرض ثقافة الأمة إلى دفق ثقافي أجنبي يباين مكوناتها الأساسية.

ـ للأقوياء دائماً طريقهم الذي يسلكونه، أما الضعفاء، فإنهم يتصرَّفون بطريقة أقرب ما تكون إلى صراع الفأر داخل المصيدة!.

ـ أخطر ما في الانفلاق هو تشكيل العقل الخيالي الذي يحمل أفكاراً مغلوطة عن الواقع المعاش، وعن الأوضاع العالمية.

ـ إن الانطلاق يولِّد الخبرة، والخبرة تولِّد الثقة بالنفس، والمنفلقون على ما لديهم لا يستطيعون إلا أن يكونوا خائفين.

ـ سوف يستمر الجدل بين الحق والباطل؛ لأن ذلك من مقوِّمات الابتلاء في هذه الحياة.

ـ الصراع يُصلِّب روح المقاومة، والرخاء والاستقرار قد يؤديان إلى الترهل.

ـ كثيراً ما قرأنا في التاريخ عن عبيد أعتقهم سادتهم، فتشبثوا بالرق؛ لأن حياتهم مع الحرية غير ممكنة!.

- إن القرآن الكريم يعلِّمنا أن أساس المشكلة لا ينبثق من وجود الآخر، فالآخر موجود؛ لكن ينبثق من وجودنا القاصر المريض.

- إن التفسير التآمري للتاريخ سوف يولِّد لدينا نوعاً من الجبرية والاستسلام للمصير المحتوم، ونوعاً من الإعاقة عن النقد الذاتي.

- لكل قاعدة شواذ، والشذوذ لا يجرح القاعدة، لكنه يؤكدها.

- ظل التقدم الحضاري مرتبطاً بالإحصاء، الذي يعطي القاعدة مساحتها، ويعطي الشذوذ حجمه الطبيعي.

- إن حل مشكلات الأمة، لا يمكن أن يُعلَّق على شخص متميز أو قائد فذّ، وإنما هو مذخور في دم كل مسلم.

- إن التبسيط كثيراً ما يصحبه البغي والطغيان.

- النقد يرقى بالعمل، ويوجهه وينضجه، ولا يتأذى منه بشكل عام إلا الحالات المريضة.

- في هذا الوجود علاقة جدلية بين الكم والكيف، ويستحيل على الإنسان المحدود الطاقات أن يُحَوِّل كل (كم) إلى كيف.

- إن هناك مفارقة أبدية بين النظرية والتطبيق.

- إن الثوابت في أي منهج تُلقي الضوء على المتحركات، كما أن المتحركات تلقي الضوء على الثوابت.

- إن الرسم في الفراغ، من شأنه إثارة المشكلات وقلب الثوابت إلى متحولات، والمتحولات إلى ثوابت.

- من النماذج الحية الراقية، نستمد طاقات العمل التنفيذي، وبالفكر المستنير نبيّن ملامح الطرق.

- هناك نزوع شديد نحو الاستهلاك حتى صار الإنسان الاستهلاكي هو

الرضيع الأبدي الذي لا يكف عن طلب الرضّاعة .

ـ صار محور إثبات الذات ما يمتلكه الإنسان، لا ما يتمتع به من خصائص وملكات .

ـ كانت الصداقات رصيداً مذخوراً لأيام الشدائد، وصارت اليوم عبئاً ! .

ـ حين تصبح العلاقات عبئاً، تصبح شكلية، وتفقد خاصية الدفء والإسعاد .

ـ إن السعادة، لا تنبع إلا من الداخل، وإن قانونها هو (خذ) وليس (هات) .

ـ مبدأ ضرورة استمرار النقد أن الإنسان خطّاء، وأنه لا يستطيع القبض على الحقيقة الكاملة دفعة واحدة .

ـ النقد الذاتي لدى كثير من الجماعات معدوم، والنقد الخارجي مرفوض ! .

ـ إن الجماهير تستدرج الخاصة، حتى إذا جدّ الجدّ كان على الخاصة أن يدبروا حلاًّ ! .

ـ إن العامة حين يرون العالِمَ العامل يكونون معه أشبه بالطفل في حِجْر أمه ! .

ـ إن النفاق للحكام هو النفاق الجلي، أما النفاق للعامة والشباب فهو النفاق الخفي ! .

ـ إن من غير الموضوعية أن نسارع إلى تحليل النصوص والأفكار قبل أن نتيقن أننا قبضنا على أدوات فهمها على نحو كاف .

ـ من خلال الفعل ورد الفعل نحفظ التوازن العام لحياتنا العقلية والنفسية والاجتماعية .

ـ إن محصلة اصطدام الآراء المتطرفة بآراء متطرفة أخرى ستكون في النهاية ولادة مزاج معتدل بين أبوين غير شرعيين.

ـ كلما ازداد الضغط على جانب (النقل) في المنهج، برز إلى الوجود تيارات عقلية، تدير ظهرها للنصوص والآثار.

ـ إن الموضوعية ليست درساً نحفظه، ولا هي شعارات نرددها، وإنما هي إرادة وقدرة، وعلم وعمل، وسيظل التزامها نسبياً.

ـ امدح أكثر، تنل أكثر، وعلى الذين يحترمون أنفسهم أن يدفعوا الثمنَ.

ـ يقوم جوهر الحوار على أن يُري كلٌّ طرف الطرفَ الآخر ما لا يراه.

ـ إذا علمنا أن كل قديم كان يوماً ما حديثاً، وكل حديث سيكون يوماً قديماً، وجب أن نستخدم مع كل منهما معايير ومناهج عادلة دون تقديس أو استخفاف.

* * *

فهرس الموضوعات

الفصل الثاني

بناء القرآن الكريم الخلفية التاريخية للموضوعية

الفصل الثالث

بناء المجال النظري للموضوعية

الفصل الرابع
تجلّيات الموضوعيّة عند علماء المسلمين

الفصل الخامس

صور ومواقف تنافي الموضوعية

الفصل السادس

كيفية بناء التفكير الموضوعي